

Embajada del Paraguay en Egipto
سفارة جمهورية الباراجواي بمصر



المركز القومى للترجمة

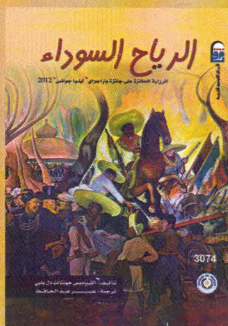
الرياح السوداء

الرواية الحائزة على جائزة باراجواي "ليديا جوانس" 2012

تأليف: الثيبياديس جونثالث دل بايي

ترجمة: عبير عبد الحافظ

3074



الرياح السوداء

تأليف: الثيبياديس جونثاليث دل بايي
ترجمة: عبيـــر عبد الحافظ

نلمح بصعوبة خيال الرجل متين البنية وسط الضوء الشحيح الصادر من مصباح يكسوه التراب، يسألنا إذا ما كنا على استعداد لحفل راقص جديد. أغلق الباب واختفى. اعترتنى الدهشة لأن تهديده لم يجعل ضربات قلبى تتسارع، لم يثر رعبى، على العكس رغبت في أن يعجِّل بالحضور وينتهى منِّى أولاً، هذا ما أردت أن أخبره به، ولكننى تذكرت كريستينا، سينتظرها القيظ والرطوبة والبعوض، هذا هو جحيمنا، داومنا على انتظار أن ينفتح الباب، كنا رقودًا وقيامًا.

صدور أى صوت طفيف كان يشحذ انتباهى انتظارًا لأية انفراجة للباب. فقدت الإحساس بالزمن. استطعت أن أسترق لحظات للنوم لدقائق معدودة إلى أن غشى بصرى ضوء من الخارج، بدا بصيص الفجر يتسلل من كوة الزنزانة، ولم يكن مصباح الفلورسنت. وهكذا أمضينا الليل دونما الحفل الراقص هذه المرة. فُتح الباب بعد ذلك، ودخل أحد العساكر، "حسنًا"، نطق كلمته ووضع الإفطار المؤلَّف من عصيدة سوداء ومخبوزات متعفنة فى دلو ثم خرج. همس لى بينما يدلف من الزنزانة: "لقد رحلوا"، همست بدورى لرفقائى أن زبانية التعذيب ذهبوا.

المركز القومي للترجمة
National Center for Translation
REPUBLICA DEL PARAGUAY
Embajada del Paraguay en Egipto
سفارة جمهورية الباراجواي بمصر

الرياح السوداء

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 3074
- الرياح السوداء
- الثيبياديس جونثالث دل بايى
- عبير عبد الحافظ
- الطبعة الأولى 2017

هذه ترجمة:
UN VIENTO NEGRO
Alcibiades Gonzalez Delvalle

صدرت هذه الترجمة بالتعاون مع سفارة جمهورية باراجواى بالقاهرة

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الريـــاح الســـوداء

الرواية الحائزة على جائزة باراجواى «ليديا جوانس» عام ٢٠١٢

تـــألـــيـــف : الثيبياديس جونثالث دل بايي
تـرجـــمـــة : عـبـيـر عـبـد الـحـافـظ



2017

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دل بايى، الثيبياديس جونثالث، ١٩٣٦ - ١٠٠
الرياح السوداء: الرواية الحائزة على جائزة باراجواى «ليدياجوانس» عام ٢٠١٢ / تأليف الثيبياديس جونثالث ، دل بايى؛ ترجمة عبير عبد الحافظ- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٧
٢٨٠ ص : ٢٤ سم
١ - القصص الأسبانية
(أ) عبد الحافظ ، عبير (مترجم)
(ب) العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع ٤٨٧٨ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى: 978-977-92-0998-2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

الإهـــداء

إلى أبى فى سمائه القصيَّة الدانية

بلاس أرثامنديا

منذ ثلاث عشرة سنة، تداوم أرملة السيد أرثامنديا – التى فقدت زوجها منذ خمس سنوات– على الخروج وقت الغروب فى الثانى من شهر فبراير لتشترى باقة زهور تضعها اليوم التالى فوق قبر ابنها فى ذكرى مولده. وحين استعدت لتناول العشاء مع الخادمة، حادثتها شقيقتها تليفونيًا لتخبرها أن ابن شقيقهما الضابط فى سلاح الفروسية فى "ثيريتو"، حذرها من الخروج ليلاً مخافة التعرض للخطر.

– سنعاود الحديث. تردد صوت شقيقتها المرتجف خوفًا.

وضعت السيدة كلوتيلدى دى أرثامنديا السماعة، بينما تجلس إلى جانب طاولة الهاتف وقد فقدت الشهية فى الطعام. يؤكد الخبر الشائعة التى تنتقل من منزل لآخر منذ عدة أيام، رغم أن أحدًا لم يلتفت إليها. تتردد منذ ثلاثين عامًا أنباء انقلاب وشيك ضد الحكومة. تتمنى أن يتحقق الخبر هذه المرة، لكنها لا تجد من الأسباب ما يبعث على الأمل. فمنذ وفاة ابنها تتأمل الفضاء السياسى بحثًا عن أية بادرة لانتهاء الدكتاتورية، رغم ذلك لا تجد سوى صلف وتعنت الحكومة، وذلك من خلال الصحفيين الرسميين للدولة والالتصاق الكبير بين قطاعى المجتمع المدنى والمؤسسة العسكرية والبوليسية. لا أحد يعلم نقطة الضعف التى سينهار بسببها الدكتاتور، ما عدا مرة واحدة، أعلن فيها المنفيون السياسيون خارج البلاد إصابته بمرض شديد من شأنه القضاء على إسترويسنر. غير أن كل ذلك لم يكن ليبعث العزاء فى النفوس، فيتابع المواطنون صورته على شاشة التليفزيون، يتفحصون وجهه بحثًا عن أية بادرة شاذة، فى المقابل يخيب ظنهم.

يشع محياه بالصحة، وتظهر شفته السفلى بنفس صورتها المعتادة، رغم زعمهم إصابته بورم بها. ومنذ قرابة عامين خضع لعملية استئصال البروستاتا لإصابته بمرض خبيث بها، إلا أنه عاود الظهور بعد عدة أيام وواصل عمله بمكتبه دون أن تبدو عليه أية

علامات للألم أو الإعياء. وكان يبدو أنه هو أيضًا يفكر فى احتمالية انقلاب وشيك. فإذا كان الأمر معروفا على مستوى البلاد، فهل ستجهله أجهزة الأمن التى تملك من الكفاءة ما يؤهلها لتفكيك وإجهاض أية مؤامرات، بل والقضاء على المتآمرين أنفسهم ؟ وإذا كانت على علم، فهل من الممكن الاعتقاد بأن جهازى الاستخبارات الأمنية والعسكرية سيكونان بمنأى عن الخطط المخربة للنظام ؟ أرادت أن توجه هذه الأسئلة إلى شقيقتها وتغلق الهاتف، لكنها أحجمت خوفًا من أن يكون الخط مراقبًا حتى هذه اللحظة.

استمرت المراقبة حتى وفاة ابنها. خرجت لتسير بمحاذاة السور لتتأمل الشارع. لا تعلم لماذا أخذت تبحث عن مكان مظلم تصعب رؤيتها فيه. خيَّم الصمت على كل شيء، مثلما هو معتاد. ومن حين لآخر يقطع الصمت خطوات سائر ما. المنازل مضاءة كالعادة. تلاحظ فى بعض منازل الجيران الذين يبدو أنهم شعروا بالقلق من هذه الشائعات، لجوئهم إلى الفناء فى انتظار أن تتحسن درجة حرارة الجو. ثم تعود إلى الصالة لتسمع نشرة أخبار الساعة الثامنة. تفكر أنهم قد يذيعون أخبارًا بشأن الشائعات الدائرة. فمنذ أن دخل جهاز التليفزيون البلاد عام ١٩٦٥، تستهل نصف البرامج الإخبارية بداية البث بأنشطة الرئيس المعتادة : الاجتماع بمديري المحليات، أصحاب الشركات، قيادات العمال والطلبة، الوزراء، رجال الشرطة والجيش، إلخ. ويلهج جميعهم بالشكر لقائد البلاد الذى يمضى بثبات نحو السلام الذى يعم البلاد فى الحاضر والمستقبل. فيما يعرض فى النصف الساعة التالية الأخبار الدولية والرياضية. ومثلما توقعت فلم تتم الإشارة للشائعات. وكانت قد انتشرت قبل أيام أنباء عن تنقلات عسكرية. ففكرت أن هذا الحدث قد يكون سببا فى الحديث عن الانقلاب. ولدى خروجها من الصالة فى طريقها إلى المطبخ أوقفها رنين الهاتف. وكانت شقيقتها تطلب منها الاستماع إلى إذاعة راديو "كاريتاس". تغلق التليفزيون وتفتح الراديو، يتصلب جسدها لدى سماع الأخبار. لم يحدث أن سمعت بأى شكل من الأشكال فى فترة الدكتاتورية العسكرية أن كبار العسكريين تمردوا على الجنرال "إستروسنر". تجذب مقعدًا لتجلس بجوار الراديو بانتباه بالغ. وبحركة غريزية تُخفض صوته لتتمكن بالكاد من السماع. يفزعها رنين آخر للهاتف، تخبرها شقيقتها التى تسكن على بعد بنايتين منها أن تخرج إلى الفناء بحذر.

- ماذا هناك ؟

- ستعرفين.. ثم تغلق الهاتف.

تفتح أرملة السيد أرثامنديا الباب بحذر بالغ. يستقبلها دوى أسلحة نارية. تعود مهرولة إلى الراديو وتستمع إلى الجنرال آندريس رود ريجث بصوته الثابت، وهو زعيم التمرد معلنًا عن الأسباب التى أدت إلى خروج العسكريين عن ثكناتهم. وأحد الأسباب هو الدفاع عن حقوق الإنسان، تتذكر ابنها وتترقرق الدموع فى عينيها ترفع صوت المذياع، لم تعد تخشى أن يستمع إليها أحد أو أن يراها منتشية بنبأ التمرد.

وكما هو معتاد، يذهب العقيد "رامون جوانيس" إلى مكتبه فى مقر أركان الحرب مبكرًا. يجلس إلى مكتب صغير باهت من تأثير الزمن، يتأمل طاقمًا للجلوس، يبدو باليًا، ودولابا اكتظت به الأوراق، وجهاز تكييف، وصورة ضخمة للدكتاتور.

يناقض مظهر الحجرة أهمية منصب صاحبها وهو رئيس استخبارات الجيش. يبدأ عمله بالقراءة الدقيقة للصحف التى تنتظره فوق مكتبه. ويعلم باللون الأحمر على الأخبار التى يعتبرها مهمة، ليعود إليها مرة أخرى. يتلقى بعد ذلك التقارير من الجهات التابعة للقوات المسلحة والشرطة، ثم يضع منها تقريرًا مجمعًا مثلما يفعل دومًا فى التاسعة صباحًا، دون تأخير، ويُوضع على مكتب رئيس البلاد.

بعد الانتهاء من هذا الروتين، يعود مرة أخرى إلى الأخبار المختارة. هذه المرة، يسجل فى ورقة منفصلة، أسماء، وأماكن وتواريخ بعض الأحداث التى تبدو له سطحية. ثم يضعها جنبًا إلى جنب مجددًا، محاولاً استظهار صورة كلية قد يلتحم بعضها بالآخر. وحين يعثر على مصادفات تتشابه، ينفرج وجهه عن ابتسامة تصعب رؤيتها. ثم يجذب ورقة أخرى ويسجل بها ملاحظات جديدة، ثم يدونها فى بطاقات وفقًا للترتيب الهجائى، وتحفظ مكانها فى الأرشيف.

يبلغ العقيد أربعين عامًا، وهو طويل ونحيف، تبدو عليه علامات الهدوء التى تخفى تحتها غضبًا متأججًا قد ينفجر لحظة الاستنفار.

تبدو فى عينيه نظرة حالمة حين يكون فى حالة سكون، لكنهما تشتعلان غضبًا إذا ما وقع خطبٌ ما. يخرج السجناء السياسيون بعد لقائه فى قسم التحقيقات بقناعة تامة فى معاملته الطيبة.. إلا أنه فى اللقاء الثانى، حين يشير إلى أنهم يسخرون من ذكائه، وأنهم لم يستغلوا سماحته واستعداده للتعاون، فإن يديه اللتين بدتا ناعمتين تضربان بعنف وجه الشخص المعرض للتحقيق. هنا تكون البداية لما سيحدث فى غرفة التعذيب.

يدخن بشراهة، ومثله مثل جميع من يقومون بالتعذيب يتلذذ بأن يطفىء سيجارته فى الأعضاء التناسلية للضحية، سواء كان رجلاً أم امرأة. يجعله هذا التصرف أكثر هدوءًا، فيعود إلى استخدام التعبير الإنسانى، فى صوته وكلماته التى تتبدل لتبدى تضامنًا. يتصنع عدم إصدار الأوامر، بل يتوسل إليهم أن يخبروه بالحقيقة لينهى هذه المشاهد التى تثير ضيقه.

كان يقول برقة لمن يجلس أمامه يرتعد من فرط الرعب: **لا أفهم عنادك، لا ينقصنا سوى اعترافك لنغلق القضية. انظر إنها الثانية بعد منتصف الليل، تكلم ثم نذهب للنوم. هل تدخن؟ ثم يضع له سيجارة فى فمه.**

- بماذا ستخبرنا، لقد مررنا بيوم عصيب، ونريد أن نبيت فى بيوتنا، مع عائلاتنا. سأظهر نيتى الطيبة، سنأمر بإطلاق سراح الزوجات.

- ثم يدخن بهدوء فيما يسألنا عن زعيم هذا المشروع العبثى، وعن المجرم الذى ورط الآخرين فى هذه الترهات.

- حدثنا عن طلبة باراجواى الذين يتآمرون مع المقاتلين الأرجنتينيين. الوثائق التى أحضرتها واضحة، ولكن تنقصها بعض التفاصيل التى تعرفها جيدًا.

وبانتهاء التقارير المقدمة للرئاسة، يُسمح لشخص ينتظر بفارغ الصبر منذ ساعات في بهو الاستقبال. هي سيدة تبلغ من العمر ٤٥ عامًا، ترتدي زيًا متواضعًا، على الرغم من رغبتها في أن تبدو أنيقة. يبدو على محياها القلق والألم أو ربما التوجس.

- معذرة أيها الكولونيل، أنا كلوتيلدى أرثامنديا.- ثم تعجز عن المواصلة وينقطع صوتها من فرط الانفعال.

- تفضلي بالجلوس. لقد حدثني صديقي، الأب موليناس. حضرتك تسألين عن ابنك..

- لم يغمض لي جفن بالأمس، لأنه وصلتنا أخبار..

- لا يدهشني ذلك. في هذا البلد نتصرف بناء على الشائعات.

- جئت لأطلب إليك أخبارًا عن ابني. أخبروني في التحقيقات أنهم لا يعلمون شيئًا، وبالمثل في المكتب الفني، وفي كل أقسام الشرطة. والمعلومة الوحيدة التي وصلتني أن مجموعة من المدنيين أجبروه على الولوج إلى سيارة وهم يوجهون له اللكمات. كان ذلك صباح أمس بإدارة شرطة "إنكارناثيون".

- أحسنت الصنع بالتوجه إلى الأب موليناس، فقد كان كنيسة الجيش، وصديقًا شخصيًا للسيد الرئيس. نحترمه كثيرًا ولا نستطيع أن نرفض له طلبًا. ما دام كان ذلك بمقدورنا وفي إطار القانون.

- ابني، سيدي الكولونيل..

- نعم، ابنك. ثم يمد على المكتب ملفًا أزرق اللون، كان محتفظًا به في درج المكتب الأول. يمر بعينيه سريعًا على الأوراق لأنه يحفظها تمامًا في ذاكرته.

- حسنًا و.. لا تحتمل الصمت الطويل. وتخشى أن تسأل عن محتوى الملف، لكنها أتت لتعرف معلومات عن ابنها وتتمنى أن تعرفها في أسرع وقت ممكن.

- هل أنتِ على دراية بالنشاط السياسي لابنك ؟

- أجهل تمامًا ما هو، ولكن إن كان لديه فسيكون مماثلاً لنشاط أبيه، فهو ينتمى لـ كولورادو، وموظف رفيع.

- أجل، بوزارة المالية. فهو نائب فى إدارة الجمارك.

- وهو ليس موظفًا فقط، بل يتعاون أيضًا مع حكومة الرئيس إسترويسنر، الذى يقدره، ويعترف بسياسته الداعمة للسلام والرخاء بشكل كامل. كما أنه فى إدارة الحى..

- نعم، نعم، إنه من العناصر الطيبة. المشكلة ليست مع زوجك، بل مع ابنك.

- ما هى المشكلة أيها الكولونيل ؟ أرجو أن تخبرنى.

ولكننى أولاً أود أن أعرف مكانه. يقولون لى معلومات متضاربة، هل هو على قيد الحياة ؟ هل يحسنون معاملته ؟

لم يجب الكولونيل، ونهض وعلامات الضيق بادية عليه.

شارع "ماريسكال لوبيث"، وكما هو معتاد فى هذه الساعة من الصباح، الطريق مزدحم بالسيارات. وتسببت حافلة متعطلة فى وقف السير. وقفز بعض الراكبين يتجادلون مع السائق ليحصلوا على قيمة التذكرة بينما أصر على الرفض، فيما امتنع آخرون عن النقاش، واحتموا من الشمس تحت الأشجار فى انتظار أن تقبل حافلة أخرى. ينظر الكولونيل إلى المشاة الذين يعبرون الطريق، وتتفاداهم السيارات التى تعبر مسرعة. ويسمع قيام السيدة التى أولاها ظهره، دون أن ينظر إليها.

- هل ترحلين ؟

- لا يا سيدى، إلى الآن لا أدرى شيئًا عن ابنى.

يرن جرس التليفون الخاص بالمكالمات المباشرة، والذى يستخدمه أشخاصٌ معدودون. يرفع الكولونيل السماعة، ويسمع صوت رئيس جهاز التحقيقات "باستور كورونيل" قبل أن يجيب. يدعوه ليمر عليه بمكتبه من أجل التحقيق الجديد الذى خضع له الطالب المعتقل والمشتبه فى انتمائه إلى شرذمة تدعو للانقلاب وعلى صلة بعناصر خارجية.

أخبره : أراك اليوم. ثم وضع السماعة وعاد إلى الجلوس. نظر إلى المرأة دون أن يحدد ملامحها. الشاب الذى تتحدث عنه، مقيد اليدين وملقى على الأرض، بدا أنه سيلقى حتفه من مجرد التهديد بالقتل. لكنه لا يصرح بمعلومة واحدة.

سأجعله يتحدث. لا تسخر منًا. هل تتصدرون المشهد أمام مقاتلى الجيش الثورى الشعبى أم هم من يقفون خلفكم ؟ فجامعة "لابلاتا" الأرجنتينية تعتبر المصدر الأساسى للمتمردين المشاغبين. استغل قطرة الصبر الأخيرة لدينا وتكلم. أخبرنا بكل شىء، تحدث، استمع إلى.

- سيدى، إن ابنى... ثم تصمت طويلاً.

ثم يعلو صوتها بلا ملامح وكأنها مرهقة أو مريضة.

- اذهبى غذا إلى الأب "موليناس". وسيخبرك بشأن ابنك.

- غذا هو يوم الخميس المقدس..

- حسنًا، ستجدينه فى الكنيسة.

- ولكنه لا يعرف أن..

- سيعرف. عمت صباحًا.

وحين أصبح الكولونيل بمفرده، نظر إلى الملف الأزرق. ثم بدأ يضع علامات بالقلم الأحمر حول بعض الأسماء، والأماكن والبيانات، والتواريخ المنتشرة فى صفحات عديدة. وبعد ذلك، حفظ الملف فى مكانه، وقد بدت على وجهه علامات التقديس لعابد مخلص يلمس أشياء مقدسة.

لدى الكولونيل قناعة بأنه ينقذ البلاد من مأساة الفوضوية، من خلال كشفه للمؤامرات والقضاء عليها فى مهدها. فلا يوجد معارض إلا ويرغب فى هدم الديمقراطية. ترسخ هذا اليقين لديه من عائلته والمدرسة العسكرية. فهذا هو ما يزرعونه فى عقول الطلاب الناشئين من أجل الدفاع "ولتضحى بحياتك من أجل ذلك إذا تطلب الأمر" ، إنها "الثورة السلمية" .

يدرس الدكتاتور عادة سلوك الضباط الشباب فى الجيش. ويجد فى النقيب "رامون جوانس" المواصفات التى يقدرها، القدرة على العمل الشاق، وندرة الأصدقاء. يعتبر الدكتاتور الصداقات عائقًا لدى من يشغلون مناصب رفيعة. فالوحدة لصيقة بالسلطة، هذا ما يقوله دائمًا. ويقدم النقيب جوانس خدمات لقسم الاستخبارات معتمدًا على قدرته وطبيعته المتحفظة. وكان على صواب تام. اتضح بعد ذلك كأنه وُلد من أجل التجسس. يبدأ بزملائه، يفتح لكل منهم ملفًا يدون به سلوكه بدقة بالغة، على المستويين الشخصى والمهنى. ومنذ ذلك الحين سوف تلازمه تدويناته، التعقب بالبطاقات، الاستنتاجات والشكوك. يثق فى حدسه بالرغم من أنه قد يفشل مرة أو أكثر. فكان يحدث نفسه قائلاً : النجاح يمحو الأخطاء.

تركت أرملة أرثامنديا مكتب الكولونيل وقد ازداد قلقها عما كان عليه قبيل الزيارة. أقبلت يحدوها الأمل أن تجد إجابة وغادرت يائسة من الانتظار يومًا آخر لمعرفة مصير ابنها. وتعزيتها أن ابنها ما زال على قيد الحياة، وأنهم لا يسيئون معاملته. لا شك أن الأمر يتعلق بسوء تفاهم. فلم يكن لديها أبدًا أية أسباب تجعلها تشك أن ابنها يعمل ضد الحكومة. فهو طالب متميز فى جامعة "لابلاتا الأرجنتينية". ويسافر إلى "أسونثيون" مرتين أو ثلاثة كل عام فى حافلة عن طريق "بويرتو فالكون" أو "إنكارناثيون".

تغادر المصعد وتسير فى ممر حتى باب الخروج، فى وجود اثنين من الحرس. تنتظر الحافلة إلى جوار مجموعة من الأشخاص. تتمنى أن تتأخر فى الوصول، فلا رغبة لديها فى الرجوع إلى المنزل. ليس الآن. تحرقها رغبة ملحة فى العودة مرة ثانية إلى الكولونيل لترجوه أن يسمح لها برؤية ابنها. تلوم نفسها لأنها لم تصر على ذلك. تشعر بالتعاسة لاضطرارها الانتظار يومًا آخر. فاتتها الحافلة لإصرارها على فكرة العودة لرؤية الكولونيل. تنظر إلى النافذة فى الطابق الخامس علّها تراه، وتشير له ليسمح لها بالصعود مرة ثانية. وبعد دقائق من التردد، تقرر الصعود إلى المكتب. ستنتظره لحظة خروجه، فمن المؤكد أنه لن يسمح لها بالدخول مجددًا، وفى الممر سوف تتوسل إليه بشأن ابنها. وفيما تنتظر المصعد لحت الكولونيل يهبط الدرج محاطًا بمجموعة من العسكريين. تصرخ راجية أن يستمع إليها، إلا أن الكولونيل يهرع إلى سيارته، متجنبًا منطقة المحطة ليعبر الشارع.

تعود إلى المحطة مرة أخرى، غير أنها هذه المرة على عجل، فتصعد إلى الحافلة المكتظة بالركاب. وفى كل محطة يزداد عدد الركاب، فهو وقت الذروة. فيقوم معاون السائق بتوزيعهم فى الحافلة

" إلى الأمام"، "فى الوسط"، "إلى الخلف"، يجلس الرجال متلهيين بالنظر إلى النافذة، لتجنب النظر إلى امرأة عجوز أو أم تحمل ابنًا بين ذراعيها.

تحاول السيدة أرثامنديا النزول، ثم تعبر بنايتين. وفى طريق العودة تلتقى بشقيقتها.

- ما الذى جرى ؟ تبدى دهشة صادقة لمعرفة الإجراءات.

- سأحصل على المعلومات فى الصباح الباكر. أجابت ما بين الشعور بالحزن وعدم التصديق.

- أعتقد فى شائعة واحدة مما يقال، وهى أنه بمكتب التحريات. أخبرتنى بهذه المعلومة زوجة شرطى، لكنها لم تخبرنى إذا ما كانت سمعتها مباشرة من زوجها، أو أن أحد زملائه أخبره بها.

- نفوا فى مكتب التحقيقات أن يكون هناك، قالت بينما تجفف قطرات العرق على عنقها... اعتادوا على فعل ذلك، ولكن فيما بعد يتضح كذبهم، يتغير صوتها وتلمع عيناها - انظرى - تشير إلى إحدى حافلات الشرطة المعروفة باسم " ذات الرداء الأحمر"، بسبب لونها الأحمر بالكامل.

- ماذا لديك ؟

- إنها المرة الثانية التى تمر فيها من هنا اليوم.

- تمر بجميع المناطق وفى كل الأوقات. تحاول أن تخفى قلقها، حين رأتها تتوقف عند الناصية، تتراجع وتذهب إلى شارع منزلها.

- لا أعلم.. ولكن أشعر بالخوف. انظر لما تفعله.. ألن تذهبين إلى منزلك ؟ هل زوجك هناك ؟

- لا يأتى فى مثل هذه الساعة - تشهد الحافلة وهى تختفى ويزداد خوفها.

- سننتظره فى المنزل.

- هل أتيتم طلبًا لزوجى ؟ نطقت بينما ترتعش شفتاها.

- إنه صديق للحكومة.

- أصبح يتجنبه عدد من زملائه فى العمل وفى الإدارة المحلية لما يُقال عن نشاط ابنه لقلب نظام الحكم.

تسير السيدتان فى الظل إلى الناصية، وتريان منها الشاحنة الحمراء وسط البنايات، فيما ينظر الجيران إليها بذعر من وراء أسوار منازلهم. ينزل منها أربعة عناصر مسلحة بزيهم الرسمى. بقى أحدهم فى الخارج، فيما دخل الثلاثة إلى المنزل وحاولوا اقتحام الباب. ثم يعودون مرة أخرى ومعهم رجل نحيف، متوسط القامة يناهز عمره الخامسة والعشرين تقريبًا. دفعوه بعد ذلك إلى الحافلة التى انطلقت فيما بعد. يخشى الجيران التواجد فى الشارع. يختبأون فى بيوتهم ويهمسون بصوت خافض عن أسباب اعتقال الشاب "ريكاردو بيلاثكيث"، الابن الأكبر لزوجين محبوبين جدًا فى الحى، وتمتلك العائلة صيدلية.

تُحرك رياح الشمال أوراق الأشجار فى الشوارع، فيما يتبدى فى الجانب الآخر ضجيج الظهيرة. تتسبب هذه الموجة غالبًا فى أن يسود الحى هدوء مبعثه أشعة الشمس المترامية، بيد أن الجيران يتحركون الآن بقلق خلف أبوابهم ونوافذهم المغلقة بسبب الخوف. يتساءلون عن هذه الزيارة لرجال الشرطة. والإجابة تكمن دائما فى النميمة المتداولة حيث لا توجد تصريحات رسمية أو نشر فى الصحافة بناء على تعليمات الحكومة، إلا إذا صدرت المعلومات عن وزارة الداخلية أو الشرطة.

ينادى بائع المثلجات على زبائنه، لكنه لا يجدهم. لا يلبى أحد نداءه وهو ما اعتاد أن يفعله غالبًا الأطفال. يندهش للهدوء المخيم على الشارع. يقرع الأبواب ولايجيبه أحد. ينظر إلى سيدتين يعرفهما، ويحاول أن يسألهما عما يجرى، ولكنه يتراجع حين يراهما تجدان فى السير، ويبدو عليهما الخوف. يدس البائع صفارته فى جيبه وينطلق فى أول ناصية.

تدخل السيدتان منزلاً تغطيه شجرة مانجو، تتدلى أغصانها على السور. تتوقف السيدة أرثامنديا من الرعب حين ترى الباب مواربًا.

تقول لشقيقتها : لقد تركته مغلقًا.

- ربما يكون زوجك !

- إنه يصل متأخرًا.

ينظر إليهم الزوج من النافذة : لماذا لا تدخلان ؟

- ولماذا لم تخبرنى إن كنت ستحضر إلى المنزل باكرًا ؟ ادخلى.

- لا، تأخر الوقت، ولكن سأحاول المجىء بمجرد أن يتاح لى ذلك. اعتنى بنفسك.

تنهار على الأريكة وتخلع حذاءها. يمد لها زوجها الخف المنزلى، ويسألها عما جرى فى لقائها مع الكولونيل.

- حولنى إلى الأب مولينياس وسألقاه غدًا. أجابت زوجها بينما تضغط زر المروحة ذات القائم.

- وماذا أخبرك عن بلاسيتو ؟

- لا شىء، أخبرنى فقط أنه بخير، ولكننى لا أعتقد ذلك.

- ولكننى أنا أصدق، فهم يعلمون أنه ابن مدير بإدارة المحليات ويدعم حكومة الرئيس إستروسنر. قال ذلك ثم أخرج من الثلاجة الماء والثلج ليعد مشروب التيريري.

- إنك ساذج، أو تريد أن تضحك على نفسك وعلىّ. قالت ذلك بينما تمد ساقيها على وسادتين صغيرتين. لن يغفروا له لمجرد أنه ابنك، فهو مشتبه بعلاقته مع أعداء الحكومة. لم أرغب أبدًا فى أن يدرس فى جامعة "لابلاتا".

- فعلت ما فيه الصالح لابننا.

- لو بقى معنا، لما أصبحنا فى هذا اليأس. على الأقل لعرفنا من هم أصدقاؤه.

- تتحدثين وكأنه منخرط فى مؤامرة، أو ما شابه.

- أو شىء من هذا، ذلك ما أقصده. الإجراء البوليسى الذى اتبع مع بلاسيتو هو ما يُتبع فى مثل هذه الحالات- أنت تعرف ذلك أفضل منى. قالت ذلك ثم اتجهت إلى حجرة نومها لترتدى لباس البيت. تنظر إلى الساعة وتكتشف أنها قد تجاوزت الواحدة والنصف. تفكر فى زوجها الذى لم يتناول غداءه بعد، ثم تذهب إلى المطبخ لتعد له شيئًا. إنها بمفردها دون عاملة المنزل منذ الأمس.

رحلت "إولاليا"، حين أخبروها فى المتجر أن ابن سيدها وسيدتها شيوعى، وتم حبسه بـ "آسونثيون".

أعدت له طبق اللحم بالبيض، وجهزت لنفسها مخفوق الأناناس.

– سألها زوجها وهو يجلس إلى مائدة الطعام : ألن تتناولى الطعام ؟ .

– أجابته وهى تبتلع رشفة دون رغبة – ليت لدى شهية !

- إنك لا تتناولين شيئًا تقريبًا!

- جهلى بمصير بلاسيتو يقتلنى.

- ألم يعطك الكولونيل أية علامة ؟

- أعطانى علامة ضاعفت قلقى. فتح أمامى ملفًا أزرق به وثائق عليها علامات حمراء، وملاحظات على الجانب. لم أتمكن من سؤاله عن احتمالية تورط ابننا لكنه أخبرنى أن المشكلة معه، وليست معك. وما نوع المشكلة ؟ مؤكد أنها سياسية. لو كان ابنى قتل شخصًا لكنت أكثر هدوءًا.

- لا تقولى ذلك. ابن قاتل ! ثم ترك طبقه وبه نصف الطعام. لدى اجتماع مساء اليوم مع رئيس الحزب. لم يتمكن أمس من مقابلتى.

- ولا اليوم أيضًا. لا تضيع وقتك مع هذا المعتوه عديم الفائدة. سيعرف لماذا ترغب فى لقائه ويتجنبك.

أخذت ترفع أدوات المائدة متجهة إلى المطبخ. لن يحرك هو أو أى شخص آخر من رفاقك إصبعًا من أجلك أو من أجل شخص فى نفس موقفك. اعتدت القول أن "باستور كورونيل" من أصدقائك.

- إنه يعرفنى بصفتى قياديًا حزبيًا.

- لن يستقبلك هو أيضًا. إذا لم يصلنى خبر عن ابنى غدًا سأتصل بأحد من المعارضة. أفكر فى السيدة "كارمن دى لارا كاسترو". هى ستذهب لتقرع أبواب التحقيقات حتى يخبروها بمكان بلاسيتو.

- لن تصلى لشىء. قال ذلك فيما نهض ونظر من النافذة إلى الشارع الهادئ.

- على الأقل سأتسبب فى إحداث ضجيج وجلبة.

- سيكون خطأ. فى حال تدخل الرأى العام، تتصلب الحكومة فى قراراتها.

- فليكن ما يكن، ولكن غدًا لا بد أن أعرف شيئًا عن مصير ابنى.

يعود إلى مقعده ويستلقى فيه من أجل محادثة طويلة :

- مثلى مثلك، أشعر بالفزع من عدم معرفة مصير ابننا. لو كنت أعرف على الأقل مكانه، لبارحنى نصف القلق الذى أشعر به - يصمت بينما يبحث عن كلمة - ولكننى لا أرغب أن يكون ذلك من خلال ضغط الرأى العام.

- وهل هناك وسيلة أخرى ليستغلوها أفضل من الصمت لإخفاء حقيقة موته من حياته ؟ قالت ذلك وهى تخرج من المطبخ لمواجهة زوجها، وبصوت بدا غير معروف له. حسنًا، فلنر ما الذى يجب علينا فعله؟ فلم نورط العالم كله فى شأننا. فلا أفعل سوى التردد على أقسام الشرطة وسؤال أصدقائك فى العمل والحكومة. وماذا أحصد سوى الوعود والخداع والسخرية.

- لكن..

- أجل، السخرية - تتمالك نفسها بصعوبة كيلا تصرخ - لا يحركون إصبعا من أجلنا، ولكنهم يقسمون بمساعدتنا.

خفض صوته وأرخى ملامح وجهه وقال:

- المسألة الأخرى هى موقفى - ركزت المرأة عينيها عليه وكأنها بانتظار اعتراف رهيب - مستقبل ابنى مرتبط بمستقبلى ومستقبلك بالطبع. أقصد تحديدا عملى ومستقبلى السياسي. إننى الآن فى مركز عام مهم ولدى إمكانيات للترقى فيه. فبعض الأعضاء المؤثرين فى الحزب يرجحون وضعى على رأس القائمة المختارة للعام المقبل. والاحتمالات جيدة للغاية. ولكن إذا أثرنا فضيحة شعبية بشأن الاعتقال، فلا شك أنه سيزج بنا فى الشارع.

- تقصد سنعود إلى الشارع، ولكن لا يهمنى ذلك. فلن أغير..

- لا يتعلق الأمر بتغيير شىء مكان الآخر. وبالمثل لن أضحى بابنى تحت أية ظروف. أريد فقط مواصلة الإجراءات فى هدوء. فلن تفيد الضجة سوى فى إضعاف موقف بلاسيتو.

ينتفضان لدى سماع جرس الباب الخارجى، يرن على التوالى. يطلان من النافذة ويريان مالكى الصيدلية الكائنة على ناصية الشارع، واللذين اعتقل ابنهم ونقلته حافلة الشرطة منذ قليل، الشاب ريكاردو بيلاثكيث.

جاء إلى آسونثيون منذ أسبوع قادمًا من "كورنيتس"، حيث يدرس عامه الثالث فى كلية الطب. كان زميلاً فى المدرسة لبلاس أرثا منديا، وفى نفس فريق كرة القدم فى الحى، حتى إن كليهما كان معجبًا بنفس الفتاة، إلا أن أيًا منهما لم يفز بها. وأبواهما أصدقاء منذ زمن طويل فى الأفراح والأتراح، مثل القول المعتاد للتدليل على مدى الصداقة. كان ريكاردو بيلاثكيث على وشك الدراسة بكلية الطب بالجامعة الوطنية، ولكنه لم يجتز امتحان القبول. ولكيلا يفقد العام الدراسي، ساعده والداه للالتحاق بالدراسة فى "كورينتس".

- ولكن ما الذى يجرى! تعجبت والدة ريكاردو لدى الباب وهى بين الفزع والألم.

- ونحن نسأل نفس السؤال. قالت السيدة أرثامنديا وهى تدعو جاريها للدخول.

وبعد أن جلسا فى الصالة تساءلا إذا ما كانت هناك حملة فى سبب اعتقال الشابين أم أنها مجرد مصادفة. تبحث العائلتان عن السبب المنطقى، وهو السياسة، ولكنهما تعجزان عن التكهن بأى شىء لأنهما تجهلان خلفيات الشابين. قام والد بلاسيتو وعاد مسرعًا بأعداد صحيفة "باتريا"، فى الأيام الخمسة الأخيرة. ربما يعثرون على أية دلالة. فالشرطة تستخدم صحيفة الحزب والحكومة لتضمن القمع الآمن. ولا شىء هناك سوى الموضوعات المعتادة.

– أشار والد بلاسيتو بهدوء ملحوظ بعد ما قرأ الصحيفة الأخيرة: **لم يعلنوا الكشف عن أية مؤامرة.**

استيقظ حين سمع صوت السائق يدعو الركاب إلى مغادرة الحافلة وبيدهم وثيقة الهوية. أزاح الستارة ودخل ضوء الشمس متسربلا الهوينة ماحيًا الضباب، وانعكس بعينيه.

لمح من النافذة جمرك "بوساداس" وعلى البعد نهر البارانا مثله مثل بساط أزرق هائل. استعد لمغادرة الحافلة على رغم معرفته بطول إجراءات الخروج من إدارة الهجرة.

سيستغل الوقت لكى يتمشى قليلاً و يسبق لرؤية ضفة النهر الأخرى عند إنكارناثيون، التى بدت وكأنها مختبأة وراء غلالة رقيقة.

صعد بلاس أرثامنديا فى طريقه إلى "بوينوس أيرس"، وبانتصاف النهار وصل إلى مدينة "لابلاتا"، حيث يدرس فى جامعتها عامه الثانى بكلية الهندسة الإلكترونية.

جلست إلى جواره فى الحافلة سيدة تحب الثرثرة، أخبرته أن ابنها غادر بلدته وذهب إلى بوينوس أيرس ليصنع ثروة، ومكث هناك ١٢ عامًا، بدأ حياته مساعد عامل بناء ثم أصبح الآن محترفًا كبيرًا، ومطلوبا بشكل دائم فى عمليات البناء. تزوج من فتاة من باراجواى، ولديه ثلاثة أبناء: صبيان وفتاة، وأنهم يذهبون إلى المدرسة الابتدائية، إلا أنهم يتمنون زيارة موطن أبيهم.

وتابعت السيدة دون أن تهتم إذا ما كان الشاب يستمع إليها أم لا: ويبعث لى كل عام، مرة أو مرتين، نقودًا لأزوره، ويطلب منى الانتقال للعيش معهم. ولكننى فى هذه السن لا أستطيع ترك منزلى وبقية أبنائى وأحفادى. كما أنه فى "فييتا" يقيم جميع أقاربى، وهناك قبر زوجى، هل زرت "فييتا" ؟

- نعم، اعتاد أبى أن يصحبنى معه، حين كان يذهب مع أصدقائه للصيد.

- هل تحب الصيد ؟ إن "فييتا" هى أفضل مكان للصيد بوفرة. إننى أعيش فى البلدة نفسها، ويعرفنى الجميع هناك. عليك فقط أن تسأل عن هيلاريا أرملة جارثيتى، وسيعرفونك مكان البيت. هل تعيش فى أسونثيون ؟

- إننى أعيش حاليًا فى "لابلاتا"، ولكننى حضرت إلى أسونثيون لقضاء أجازة "أسبوع الآلام".

- واحدة من حفيداتى ترغب فى دراسة الطب، ولكن ذلك مكلف للغاية. لا يملك ابنى النقود الكافية لتصبح حتى مساعدة ممرضة. يعمل فى شركة الأسمنت ولكن لا تتبقى له أية نقود. لديه خمسة أبناء. كم عدد أخواتك ؟

- إننى ابن وحيد.

- إنك ملك المنزل، تطلب من أبويك ما تريد.

- ليس كثيرًا، خاصة فيما يتعلق بى.

يستغل لحظة الصمت التى تلت الإجابة ويستعد للنوم. استمع فى أحلامه إلى همهمات جارته. ثم أيقظه صوت السائق الذى يعطيه الإيحاء بأنه لم يستغرق فى النوم.

صف الانتظار لتقديم الوثائق طويل وممل. هناك بعض الأيام يبالغ فيها الموظفون فى فحص الأوراق وتوجيه الأسئلة.

وأخيرًا يعود المسافرون إلى الحافلة ليواصلوا طريقهم عبر مركب العبور. انقشع الضباب بشكل كامل، ويبدو بناء الجسر إنكارناثيون – بوساداس.

- هناك أمل فى أن ينتهى. علقت السيدة مخاطبة بلاس بشأن العمال فى أعلى البرج، مضيفة: هكذا سيكون السفر أقل مشقة.

تهتز الحافلة إثر رياح سوداء ضربت الميناء. ويشعر المسافرون بعدم الراحة بسبب الحر الشديد والرطوبة والتراب الأحمر الذى يلفهم. يتمنون ألا تؤدى السلطات إجراءاتها بدقة، وأن يسمحوا لهم بالعبور مباشرة. فما زال لديهم ست ساعات تقريبًا للوصول إلى أسونثيون.

يصل فى النهاية إلى الموظف الذى يطلب منه وثيقة الهوية، ثم يسجل البيانات فى دفتر بجلدة سميكة. فى الوقت نفسه يفحص موظف آخر الأمتعة وعلى وجهه تعبيرات الملل من العمل الروتينى.

- بإمكانك الذهاب.

يتنفس بلاس بعمق ويرسم على ملامح وجهه الهدوء. يرفع حقيبته على ظهره ويتوجه بخطى ثابتة إلى الحافلة التى تمتلئ بالركاب شيئًا فشيئًا. وفجأة يسمعهم ينادون اسمه وهو على وشك الركوب. وبينما يحاول تحديد مصدر الصوت يباغته شرطى ويقوده نحو ممر ضيق مظلم إلى مكتب بابه موارب. وينتظره على المكتب العتيق القذر رجل شرطة فى زى مدنى، يقارب عمره ٣٥ عامًا، أسمر، قصير القامة، أصلع الرأس بالكامل. ينهض ببساطة لدى رؤية المسافر ويأمر: الآن، الأمتعة.

– يبحث بلاس فى جيوبه عن مفتاح حقيبته، وأخيرًا يجده. يحاول بلاس أن ينجو فيقول: لقد فتشوها بالفعل.

- افتح.

يفتح الشرطى الحقيبة ويجد على الفور قاعًا مزدوجة بها العديد من الأوراق والصور وبعض الصحف. يراجعها بدقة، فيما يجلس إلى جانب المكتب. يدخل ضوء الشمس بالكاد فى الصالة الضيقة الرطبة، وتسقط أشعة الشمس على صورة الجنرال إسترويسنر المعلقة على الحائط. تصلب بلاس وتساقط عرقه فيما ينظر حوله فى كل الاتجاهات بحثًا عن أى

منفذ للهروب. يقف عند الباب الوحيد شرطيان مسلحان بالكامل يراقبان بلا مبالاة تدخل رئيسهما.

يتلعثم بلاس ليتلفظ بأى شىء : حافلتى على وشك الانطلاق.

- تستطيع اللحاق بحافلة أخرى.

بعد ذلك بعدة دقائق، يظهر شرطيان مدنيان آخران يدفعانه بالكلمات داخل عربة.

- صرخ بلاس ليجذب الانتباه: إنهم يسوقوننى للحبس. ثم يصمت إثر تلقيه سلسلة من الضربات.

قبل نصف ساعة من الإعلان عن وصول الحافلة التابعة لشركة "تشيفالير"، جلست السيدة أرثامنديا فى محطة "فرانكو وكولون". وصل أتوبيس آخر من بوينوس أيرس من "لاانترناثينوال" مكتظًا على آخره. فى الوقت نفسه تتلهى السيدة أرثامنديا بمشهد طفل ينطلق نحوه كلب فور نزوله من الحافلة، فينبح ناحيته مسرورًا. يتخلص الطفل من حقيبته ويقبل على الجرو بسعادة بالغة. هى أيضًا لديها كلب مشابه يشاكسها حين تذهب لزيارة والديها اللذين يعيشان فى "كونثبثيون". يذكرها المشهد بأنها فى اليوم التالى، مثله مثل أيام الأربعاء المقدسة، ومنذ أن أتت إلى أسونثيون، ستسافر الخميس ليفعل زوجها وابنها نفس الشىء. تجاوز اللقاء العائلى دفء احتفالات الميلاد والعام الجديد. ستحاول إقناع شقيقتها ألا تسافر كى تعتنى لها بالكلب.

بعد ثلاثين دقيقة من التأخير ظهرت الحافلة "تشيفالير"، واحتشد عند بابها العديد من الأصدقاء وأفراد العائلات للمسافرين. فيما تنتظر السيدة أرثامنديا بلهفة معانقة ابنها. أخذت تتطلع لنافذات الحافلة ولم تر ابنها، اقتربت منها سيدة لتسألها عمًا إذا كانت تبحث عن شاب طالب فى "لابلاتا".

- إننى والدته، كان يجب أن يحضر فى هذه الحافلة.

- سافر معى حتى "إنكارناثيون" - ثم أضافت فى صوت خفيض - ثم جاءت حافلة شرطة وألقت القبض عليه وحملته بداخلها.

شعرت الأم أن شيئًا ما يرتعش بداخلها، فبقيت جامدة، واختفى صوتها فيما أغلقت عينيها. وقبل أن تفقد الوعى عاجلوها بمقعد لتتهالك فوقه. وبعد أن تناولت كوب ماء، طلبت ممن حولها أن يتصلوا بزوجها. بصعوبة تمكنت من العثور على بطاقة فى حقيبتها كُتب عليها : الإدارة العامة للجمارك، خيراردو أرثامنديا – نائب مدير، مع رقم الهاتف والعنوان الخاصين به.

يحاول بلاس والقيود بيديه أن يستريح على الجانب الخلفى من السيارة وكل جسده يؤلمه إثر الضرب المبرح الذى تعرض له. فى الوقت نفسه أخذ الشرطيان الجالسان فى الجزء الأمامى للسيارة يتحدثان مع السائق فى موضوعات مختلفة. يتحدثون عن أعياد الأسبوع المقدس المقبلة ورغبتهم فى الحصول على إجازة ليومين كاملين. بعد رحلة الرعب الأولى، أخذ بلاس يتذكر إقامته فى الأرجنتين فى ظل حكم إيزابيل بيرون، والذى سمح – سواء كان ذلك تلقائيًا أم لا – بحياة جامعية ديناميكية، نشطة، وجدلية، تختلف تمامًا عن نظيرتها فى "أسونثيون"، فهى معتمة، وهادئة، لا مكان فيها للنقاشات المفتوحة.

والتقى فى الجامعة بجار له من "أسونثيون"، روبرتو أندرادى، الذى يدرس علم الاجتماع منذ ثلاث سنوات، ولديه العديد من الأصدقاء ويعيش حياة نقابية صاخبة.

يتنفس الأب بلاس أرثامنديا براحة حين يترك ابنه فى مكتبه الصغير بالقرب من الجامعة. ابنه على مسافة ١,٢٠٠ كم من مجموعة من الأصدقاء كانت لهم مؤخرًا مشكلات مع الشرطة. والسبب هو الاشتراك فى المظاهرات المناهضة للحكومة. هو سلوك غير مألوف، وعليه اكتسبوا شهرة فى وسائل الإعلام والصحافة، كما يتركون تأثيرًا بالغًا على الرأى العام. كان مقررًا أن يدرس بلاس العلوم الاجتماعية بالجامعة الكاثوليكية، ولكن بعد إصرار طويل استسلم لرغبة أبيه فى دراسة هندسة الإلكترونيات. قال له والده: "سيلائمك هذا الاختيار، سيتيح لى بسهولة أن أجد لك فرصة فى "إيتاييو"، أو "ياكريت". ويتطلب ذلك أن تحصل على تكوين علمى لن تجده فى البلاد.

إننى أفكر فى جامعة أجنبية من أجل اللغة والسمعة العلمية، أعتقد أن جامعة "لابلاتا" هى الاختيار الأفضل. فهى على مسافة ٢٠ ساعة بالسفر البرى، وساعتين بالطائرة. وفضلاً عن ذلك، لن ينقصك أى شىء.

أدرك أن الأب يريد أن يبعده ولم يعارض من جانبه، لأنه أراد أن يدرس بجامعة أجنبية. ومن جانب آخر فلن تنقطع الصلة بأصدقائه فى "أسونثيون"، إلا أن قراره الأخير يتوقف على موافقة صديقته مرسيدس، والقدرة على المحافظة على علاقتهما على الرغم من المسافة، كما أن بإمكانهما اللقاء فى الإجازات والمناسبات الأخرى. ترسخ الحب فى وجدان كل منهما على مدار عامين من معرفة كل منهما للآخر.

هى ابنة كولونيل فى سلاح الفروسية، وتدرس الطب فى الجامعة الوطنية، وما تفتقده من جمال الشكل تعوضه بملاحتها ورقتها وذكائها. وفى الوقت نفسه إصرارها وحماسها على دعم قناعاتها. تطوعت فى المركز الطبى المستقل بالرغم من تواضع حاله.

وبمجرد أن يستقر بلاس فى لابلاتا، يستعيد بلاس أرثامنديا صداقته القديمة بـروبرتو أندرادى، الذى تمتد علاقته به منذ أن تزاملا فى مدرسة "كريستورى" فى أسونثيون، بعد ذلك يعرفه أندرادى بأصدقائه المقربين، والذين يجتمع بهم مرة واحدة على الأقل أسبوعيًا. تتمركز أحاديثهم حول الشأن السياسى والاجتماعى للمنطقة التى شهدت تحولاً كبيرًا غير متوقع إثر فوز الزعيم الاشتراكى سلفادور ألليندى فى شيلى. ينتظم الطلاب فى أحاديث ومناقشات مستمرة فى جامعة "لابلاتا"، يجتمعون فى قاعات الدرس أو فى الممرات، ويناقشون احتمالية وصول الحركات الثورية إلى السلطة من خلال قوة السلاح، أو من خلال الطرق السلمية. والمدافعون عن هذه الوسيلة يستحضرون استنهاض لينين بشأن التطور السلمى لمسيرة الثورة. فيما يستند الآخرون إلى تروتسكى حيث "السلاح هو من يقرر كل شيء". وينبهر بلاس بحرية الرأى فى قاعات الدرس وخارجها، المتبدية فى النقاشات الملتهبة، فى اللوحات المعلقة، والأفيشات والتى تستدعى جميعها كفاح "تشى جيفارا"، وفيدل كاسترو، وبيرن فى المنفى، والتى تحفز بدورها "مونتونيروس" والجيش الشعبى الثورى، الذى ينتمى إليه عدد كبير من طلاب الجامعة من الكليات المختلفة. وفى أحد اللقاءات يكتشف بلاس أن صديقه روبرتو أندرادى هو أحد زعماء الجيش الشعبى الثورى، ولا يندهش من الخبر.

وبانتصاف الظهيرة، يدفع رجال الشرطة بلاس أرثامنديا إلى قسم التحقيقات، فى شارع "الرئيس فرانكو". يسرع المشاة القلائل فى الشارع الخطى ونظرهم مصوب نحو الأرض. يقوم أحد الضباط بفحصه مجددًا فى صالة الحراسة. يأمره بإفراغ جيوبه. بعد ذلك يملأ ورقة ببياناته الشخصية، والتقطت له صورة، ثم وقّع على ظهر الورقة البيضاء.

وبانتهاء الإجراءات البيروقراطية، يقوم الضباط بإعطاء إشارة معينة، فيظهر رجل ضخم يسير ببطء، رث الهيئة، بلحية طويلة، فى عمر يناهز الخمسين عامًا. تبرز فى ملامحه عينان ضيقتان غائرتان فى وجهه الضخم المستدير. يهتز فخذاه ببطء حين يسير، فيما تتحرك ذراعاه مثل حيوان متوحش، بمجرد أن يشيروا أمامه للفريسة ينقض عليها وينشب فيها مخالبه القوية الوحشية. يدعى "بيلوتو"، وهو أحد نجوم التحقيقات القديمة. يقود المعتقل إلى الفناء حيث يوجد قرابة اثنى عشر معتقلاً آخرين من الرجال والنساء منكفئين على ركبهم، ووجوههم إلى الحائط. يجذب مفتاحًا من جيبه ويفتح زنزانة فى الطابق الأسفل. يقذف بالمعتقل بين ثلاثين من المحبوسين، فيما يكيل له ضربات على الرأس والوجه. يبدون جميعًا مذعورين بؤساء، دون أى مساحة يتحركون فيها. تبلغ مساحة الزنزانة ١٥ مترًا مربعًا، على شكل زاوية قائمة، وبها مرحاضان معطلان لا يلجأ إليهما أحد، إلا بعد أن يفيض الوعاء الذى ارتجله كل سجين لنفسه.

حين يسترد بلاس وعيه، يجد نفسه بين مجموعة من الأشخاص. أحدهم رجل نحيف قصير القامة وبلحية لم تُحلق لأيام، يبلغ من العمر ثلاثين عامًا، ينظف وجهه بطرف منشفة عليها بقع دماء. يحاول بلاس الاقتراب، ولكن تغزوه رغبة عارمة فى التقيؤ.

– لا تتحرك. يأمره الرجل الذى يمسك به، ويبلل آخر شفتيه بالماء.

يرقد بلاس على الأرض، فوق شىء طرحوه له يشبه المرتبة. يشعر بالألم والرعب، وفى الوقت نفسه بالحماية بين رفاقه، الذين تعرضوا مثله للقذف والضرب المبرح وبعد إغفاءة قصيرة، تخللتها كوابيس، يلمح انحسار الضوء فى الفناء مع إقبال المساء، ويفكر فى والديه.

- لا شك أنهما انتظرانى فى المحطة، ويعلمان الآن أننى هنا.

تكلم بلاس بصعوبة دون أن يوجه كلامه لأحد بعينه.

يتبادل اثنان من رفاقه النظر غير مصدقين. يقول أحدهما ولديه قطع طولى بوجهه وشفته من أثر الضرب : لا يخطرون أحدًا، إنها طريقة لتعذيب الأقارب.

- قبضوا على فى "إنكارناثيون" خلال عودتى من بوينوس أيرس. أدرس الهندسة الإلكترونية فى "الابلاتا"، إننى فى العام الثانى.

- إنه لأمر جيد. وجه له الحديث شاب واقف مستندًا على الحائط لعدم توافر مكان للجلوس. سيعطونك هنا كهرباء عالية لتختبرها.

- لا تصدق ما قاله، إنه يفقد صوابه فى هذا الوقت من اليوم. أخبره الشاب ذو القطع الطولى بالوجه.

- هذا ما يجرى له بعد ذلك، وخاصة بعد أن يعود من المسبح. يتحدث شخص آخر.

يطلق الشاب الواقف صرخة تشق الجدران.

يظهر "بيليتو" وبيده سلك كهربائى مضفر. يقترب من القضبان شخص معروف بينهم بأنه واشٍ ويقول: لا شىء أيها الرئيس. فيختفى "بيليتو" فى الممر مهددًا ومتوعدًا.

وحين قدموا له طعام العشاء المكون من قطعة عظام مع الأرز، نصحوا بلاس ألا يتناوله.

قال له فرانسيسكو، وهو أكثر من يبدو عليه الضرر: لا شك أنهم سيحققون اليوم معك، يكون الأمر أفضل والمعدة خالية.

على كل حال لم يشعر بلاس بأية شهية. هو أيضًا ينتظر ظهور "بيلوتو" فى أية لحظة ليقوده إلى صالة التعذيب. وتجعل هذه الفكرة الدماء تتجمد فى عروقه، فهو

محاط بنماذج تعرضوا لهذا التعذيب. ينظر إليهم ويتخيل شكله بعد التعذيب فترتعد فرانصه من الخوف.

أخبره فرانسيسكو: إن أردت الغناء، فافعل ذلك الآن قبل أن يلحقوا بك الأذى. فلن يصبح للأمر معنى بعد ذلك. فلن يتبق لك سوى أن تغلق فاك إلى أن يكلوا من ضربك. لدى اسم آخر، لن يتمكنوا من إجبارى البوح به. وليس لديهم ما هو دون ذلك ليلاعبوني.

- سأله بلاس بينما يفكر فى نفسه: ولا تشعر بالخوف أن...؟

- ولم سيقتلونني؟

-لا إنهم لن يقتلوك. لو مت لن تتعذب، وهو ما لا يريدونه، يريدون تعذيبك فى حياتك. وحين يطلقون سراحك تكون قد أصبحت بقايا وحطامًا، تعيش فى خوف بقية حياتك، وتصبح لا شيء. وهكذا لا يراقبونك، فهم يعلمون أنك ستكون أفضل مثال للقمع لمن تسول له نفسه معارضة الدكتاتورية. أنت معتقل سياسى أليس كذلك؟

– أجاب بلاس وهو مرتعب من المعاناة مثل الآخرين : أعتقد ذلك. لقد أخذوا منى بعض الوثائق.

– قاطعه فرانسيسكو: أفهم ما تقول. لا حاجة أن تشرح أكثر من ذلك. فلنحاول النوم إلى أن نستيقظ بأنفسنا، أو يجذبونا من شعورنا.

لم يتمكن بلاس من النوم. لديه إحساس بأنهم سوف يحملونه حين ينام إلى صالة التعذيب. فيستيقظ من الرعب حين يسمع صوت المفتاح فى باب الزنزانة، وراءها صورة "بيلوتو" الفظة والتى يستشعرها مع ضجيج صوت صرير الباب ويتوجه إلى بلاس ويشير له أن يتبعه. ينتظره الكولونيل "جوانس" و "باستور" وبعض الرجال الذين لا يعرفهم. وبمجرد أن يقترب من الباب يدفعه الرجل العسكرى نحو الأرض بضربة فى بطنه. ثم يمطرونه بالأسئلة والصفعات والضربات إلى أن يصدر أمر بعودته إلى الزنزانة. يتظاهر المعتقلون فى الزنزانة بالنوم، ويشعرون بالرعب من اقتيادهم إلى غرفة التعذيب.

ويعلم "بيلوتو" تمامًا الأثر المدمر لوجوده على المعتقلين. ثم يعود بعد ذلك راضيًا إلى مكتب الحراسة.

يقوم بعض الرفاق ويسندون الطالب. لا يملكون سوى تركه ليستريح، ويتنفسون الصعداء حين يرون "بيلوتو" خارجًا، ولكن لا يستمر ذلك وقتًا طويلاً. فبعد ذلك بساعتين يعاود الشرطى المشهد. هذه المرة، يدخل إلى الزنزانة ويقف فى الوسط بين المساجين. أغلبهم يقف على قدميه، مستندين على الحائط، يتبادلان الأماكن مع من يجلسون وقد ضموا سيقانهم إلى صدورهم قدر الإمكان لتوفير أكبر قدر ممكن من المساحة.

ومثل المرة السابقة، يعود بيلوتو إلى مكتب الحرس، ويظل على هذا الحال إلى أن تضرب شمس أبريل القوية الزنزانة بالكامل، يتوسل بلاس ألا يعود مجددًا بعد الضربات المبرحة التى تلقاها. وفى ظل هذا الرجاء يحل المساء. وهو اللحظة الأكثر قلقًا، ففيه يخرج بعض المعتقلين ولا يعودون، يذهبون إلى غرفة التعذيب وتتصاعد أصوات متداخلة من صرير حاد مختلطة بصرخات المعتقلين. وفى مرات أخرى تعلو أصوات من يقومون بالتعذيب وهم فى حالة من الانتشاء.

ثم يظهر بيلوتو ويجذب مقعدًا ليجلس قبالة الزنزانة، وحين يجلس ويلحظ أن المعتقلين يرقبونه، يشغل جهاز التسجيل وتَسمع أصوات المعتقلين أثناء التعذيب. وبزيادة الرعب تظهر على وجهه آيات القلق. ومن وقت لآخر ينظر لأحد المعتقلين ويشير له بحركة إلى أن صوت الصراخ هو صوته.

يصرخ صوت : يومًا ما سنسمعك تصرخ هكذا. لا يتمكن بيلوتو من تمييز الصوت، وفى المقابل يرفع صوت التسجيل. ثم يغلقه ويعود أدراجه إلى الممر المفضى إلى حجرة التعذيب.

يمر بلاس فى اليوم التالى دون أن يلتفت إليه أحد. فى الليل يسمع أحدًا ينادى اسمه بصوت يرتفع. فيقترب من القضبان حيث ينتظره أحد الضباط. فى المقابل لا يشعر بلاس أرثامنديا بتأنيب الضمير فى الاجتماعات التى تجعل حكومة إستروسنر محلاً للنقاش، بينما يعمل والده موظفًا فى الحكومة وقياديًا حزبيًا. فى البداية كان يشعر بضيق – دون أن يظهر ذلك – بأن يتم الحديث عن حكومة بلاده بشكل يبدو له مفتقرًا للاحترام ويقلل

من شأنها. ويتوالى الحراك السياسى والاجتماعى بشكل سريع فى الإقليم. لقد عاد بيرون من إسبانيا ليحكم الأرجنتين عام ١٩٧٣، وهو نفس العام الذى سقط فيه الزعيم الشيلى سلفادور الليندى، ونفس العام الذى قرر فيه الجيش الثورى الشعبى التحول إلى جيش منظم من المقاتلين ينظم المناطق التالية، بوينوس آيرس وتوكومان ويؤسس رابطة التنسيق الثورى مع حركات التحرر الوطنى في شيلى، وجيش التحرير الوطنى فى بوليفيا. وبالنهاية المأساوية لـ ألليندى تنتقل مجموعة من الطلبة الباراجونيين من شيلى إلى الأرجنتين.

يمكث بعضهم فى بوينوس آيرس، وآخرون يذهبون إلى "كورينتس"، يعاودون فكرتهم مجددًا، والتى تولدت وناقشوها منذ فترة وهى تأسيس منظمة فى أسونثيون تضم جميع من يرغبون فى الإسراع بإنهاء دكتاتورية إستروسنر. فهم يعلمون تمام المعرفة أنه لا شيء يَنتظر من رجال السياسة. فبعد الأحداث المأساوية بـ الجبهة الموحدة للتحرير الوطنى وحركة ١٤ مايو نهاية الخمسينيات، استطاعت الدكتاتورية قمع مشاريع الثورة الناشئة.

وفى يوم أحد من شهر يوليو، فى طقس بارد وممطر وبعد أيام من وفاة بيرون - الذى خلفته أرملته فى الحكم - ظهر فى الاجتماع سيرخيو بوجادو، صديق روبرتو أندرادى، الذى وصل حديثًا من كورينتس حيث قضى فى المنفى عامين.

وسيرخيو بوجادو شخصية معروفة بين طلاب الجامعة بنشاطه السياسى المناهض للدكتاتورية. ولعب دورًا بارزًا فى الاحتجاجات الطلابية ضد نيلسون روكفيلر - مبعوث الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون عام ١٩٦٩.

وأدت تدخلات الشرطة العنيفة ضد المتظاهرين إلى إضراب شامل عن الطعام وحضور المحاضرات فى الجامعتين اللتين قادتا الإضراب : الجامعة الوطنية التى درس بها سيرخيو فى عامه الثانى فى العمارة، والجامعة الكاثوليكية. ووجهت المؤسسة الكنسية "بيانًا للشعب المسيحى" يندد بعنف الحكومة. وسجل هذا البيان صفحة جديدة فى العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية والدكتاتورية.

واستطاع سيرخيو بوجادو أن يتواصل من "كورينتس"، بزعماء الطلبة فى أسونثيون، الذين قابلهم شخصيًا بعد تجاوزه نقاط المراقبة التى وضعتها الشرطة، فسخر منهم وتمكن من عبور الحدود على مدار ساعات ولمدة يومين متواصلين. كان يتحدث فى هذه اللقاءات عن ضرورة المضى قدمًا – ودون تأخير – فى مشروع هدم الدكتاتورية عن طريق استخدام السلاح. واعتاد سيرخيو أن يكرر عبارة "نظام بُنى بالقوة لا يُهدم إلا بالقوة".

وتمكن على الفور من تصدير هذه الفكرة إلى الجيش الثورى الشعبى، وامتدت الفكرة إلى الشباب الباراجوانيين المدافعين عن نفس الهدف الذى ترسخ فى التنظيم السياسى العسكرى الذى تولى سيرخيو قيادته، وبعد جهد لمدة أسبوعين تمكن من تقديم أسماء المتعاونين الذين تم توزيع نشاطهم فى المرحلة الأولى ما بين لابلاتا وكورينتس وأسونثيون.

حين اقترب بلاس أرثامنديا من القضبان، فتح الشرطى الباب وأمره: اتبعنى.

جانبه الشك أنه سيتم إطلاق سراحه عن طريق وساطة أبيه، أو ربما وساطة والد صديقته، أراد أن يودع رفاقه، ولكنه تراجع تخوفًا من ارتكاب أى خطأ. وحين يدخل إلى البهو المفضى إلى مكتب رئيس إدارة الشئون السياسية، استقبله مفتش الشرطة "بوينا بينتورا كانتيرو"، ويشير إليه ليجلس.

يتخيل بلاس أباه وهو يتحدث مع الرجل. يتوقع أن يكون أبوه بالخارج. يظهر الضابط ويأمره أن يتبعه إلى مكتب آخر ويتركه جالسًا أمام أحد المكاتب. يلهى نفسه بفكرة العودة مجددًا إلى "لابلاتا". يطل من مكتب مجاور رجل يرتدى زيًا مدنيًا، يبلغ حوالى ٣٠ عامًا، ممتلئ الجسد، بشوش الوجه.

يمد يده إلى بلاس مرحبًا قبل أن يجلس، فيتأكد ظن بلاس من تدخل أبيه بنفسه أو أحد أصدقائه أصحاب النفوذ.

- لست شرطيًا، بل محاميا فى الجيش وأمارس مهنتى. لدى أصدقاء هنا فى التحقيقات ومعتاد على زيارتهم. اسمى بينتى توراليس. والدك صديق مخلص للحكومة. لذلك طلب منى رئيسى أن أقدم لك بعض النصائح.

- أجابه بلاس، الذى أخذ يشعر بأن حريته وشيكة : تفضل سيادتك.

- لقد ارتكبت حماقة بأن جلبت إلى البلاد مجموعة من الوثائق التى على ما يبدو - وأكرر - على ما يبدو، تحتوى على إرشادات وطرق لكى يقوم شخص أو تنظيم بإجراء عمليات تخريبية، ففى الأرجنتين لا يهدأ أعداؤنا وأعداء السلام والديمقراطية فى بلادنا من إعداد مخططات لنشر الفوضى فى البلاد. كان هناك عدة محاولات وأدت إلى نهايات مأساوية. الجهود التى تبذلها حكومة باراجواى تُظهر بلادنا بين الدول الأخرى، فهى تتسم بالهدوء والرخاء والاستقرار الذى يعم الشعب والمواطنين، ومن بينهم والدك، لا شك فى ذلك. وإذا لم يكن لديه هذا العمل، فلم يكن ليتمكن من إتاحة الدراسة لك بالخارج. واعتبارًا لهذه المزايا، يطلب منك الرئيس أن تذكر الحقيقة فى إجاباتك على الأسئلة التى ستوجه لك الآن.

حسنًا يا عزيزى بلاستيو، الرئيس بانتظارك. يربت على كتفه ثم يتركه مع كانتيرو.

يستقبله رئيس الجهاز السياسى، جالسًا إلى مكتبه وقد تبعثرت عليه أكوام من الأوراق، وأمامه صورة للدكتاتور، ثم مد إليه يده ببرود. يرتدى بذلة داكنة وقميصًا أبيض ورباط عنق أحمر. إنها هيئة رجال البوليس وغيرهم من القيادات الرسمية. يشير إليه ليجلس ثم يقدم إليه سيجارة، فيجيبه بلاس: "شكرًا، إننى لا أدخن".

- فعلت خيرًا. لأنه تأكد أن الدخان ليس إلا كتلة من السموم. اتخذت قرارًا بإطلاق سراحك، ولكن حتى هذه اللحظة...، حسنًا، نتيجة لانشغالى ولكن لنختصر الوقت، عليك أن تتعاون معنا. وعلى كل حال، فإن تعاونك معنا من عدمه سيان، لأننا سنفكك هذا العبث فى كل الأحوال.

- فى هذه الوثائق... ثم يكف عن الكلام ويصمت لدى دخول باستويور كورونيل، الذى لم ينطق بكلمة، يمر بنظره سريعًا وبعصبية على الوثائق. هى المرة الثانية التى يظهر فيها فجأة ويفعل نفس الشىء. هذه المرة يسجل ملاحظات ويخرج.

يلمح بلاس على طرف المكتب الحقيبة التى دخل بها إلى البلاد.

- أنتظر ردك يا كانتيرو، وبدقة وحزم.

- إن كان ذلك فى استطاعتى.

- نعم، باستطاعتك. فى جامعة لابلاتا يساعدون أعضاء الجيش الثورى الشعبى. وأنت واحد منهم، مثلك مثل قرابة دستة من الطلبة الباراجونيين. فما الرتبة التى تشغلها فى هذا الجيش الثورى؟

- لا أشغل أية رتبة.

- هل تنتمى للجيش الثورى الشعبى ؟

- لا يا سيدى. ربما لدى أصدقاء ينتمون إليه، لكننى لم أكن أعرف ذلك.

- هل تعلم أنها منظمة إرهابية ؟

- الصحافة الأرجنتينية تطلق عليها هذه التسمية، ولكننى لا أعرف...

- إذا كنت تطالع الصحف، فكيف تجهل الأعمال الإجرامية التى يقومون بها وتنشر يوميًا ؟

- أريد القول إننى شخصيًا لست طرفًا فى ذلك.

- لست عضوًا فى الجيش الثورى، ولا تعلم أنه يقتل مواطنين، ولكنك رسول للجيش الثورى، كيف يمكن فهم كل ذلك ؟

قال ذلك وبدت على وجهه علامات الصلابة والشدة وتابع : إننى أمنحك الفرصة الأخيرة لأساعدك ولكى نساعد أنفسنا أيضًا

ثم يستعد لتدوين شىء ما فى دفتره : هل أحد قادة الجيش الثورى موجود بـ أسونثيون ؟.

- لا أستطيع أن أجيبك يا سيدى، لأننى لا أعلم.

- لن تستطيع أن تنكر سؤالى هذا. ما الذى تعرفه عن التنظيم السياسى العسكرى ؟

- أجهله يا سيدى.

- حسنًا. يغلق دفتره ويضغط على الجرس : فليأت بيلوتو.

وبمجرد خروج بلاس من المكتب ينهار على الأرض إثر ضربة على رأسه. عادت أصابع بيلوتو الضخمة الغليظة وجذبته من شعر رأسه ودفعته ركلاً إلى الفناء. يجعله يلتصق بالجدار ويأمره ألا يتحرك سنتيمترًا واحدًا. قدرَّ الوقت الذى بقاه بمقدار الساعة إلى أن أعاده بيلوتو مرة أخرى إلى الزنزانة، حيث يدفعه بضربة قوية فى بطنه. وحين يستعيد وعيه يجد أنه بمكان آخر، فبدلاً من الثلاثين شخصًا توجد مجموعة صغيرة من المعتقلين. ربما أثرت الضربات على نظره. يتمالك نفسه بصعوبة ثم يدرك أنه فى المكان نفسه، فيسأل بصوت مسموع عن بقية الرفقاء، فيجيبه صوت: لقد رحلوا جميعًا منذ نصف ساعة.

- هل أُطلق سراحهم ؟

- لا أعتقد. حين يخرجون مساء، يكون ذلك للذهاب إلى أماكن أخرى. ماذا فعلوا معك ؟

- تحقيقات، تهديدات، ضرب، البقاء فى وضع القرفصاء أمام الحائط.

- فعلوا معى الأسبوع الماضى الشىء نفسه، هؤلاء الوحوش، استمر ذلك منذ الصباح وحتى غربت الشمس، بمثابة المقبلات لما سيحدث بعد ذلك. إننى أرجنتينى، وهم يعتقدون أننى قيادى أو شىء من هذا القبيل ومسئول عن إحداث تمرد شعبى هنا وفى بلادى. استمدت المعلومات من الشرطة الأرجنتينية. إننى بانتظار أن يأتوا ليأخذوننى. لا شك أنها ستكون فرصة لأدافع عن نفسى، لكن هناك شيئًا غير طبيعى اليوم. إننى معارض بالفعل، وأنظم احتجاجات قوية، ورغم ذلك فمقاومة الدكتاتورية أمر شاق.

- هذا هو كل شىء. وبالمثل فإن عددنا لا يتجاوز خمسة عشر فردًا أو عشرين على الأكثر من المجانين. بعد مطاردات البوليس المستمرة، اعتقد أننى نجوت بالقدوم إلى هنا. نزلت من الحافلة مباشرة إلى سيارة الشرطة التى كانت بانتظارى فى المحطة، لم تلمس قدماى الأرض، من المقلاة إلى النار، ومن النار إلى المقلاة. لقد تمكن العسكريون من بلادنا، ومن جلودنا. هل حدثوك بعد عن الحضارة الغربية والمسيحية ؟

- لا.

- سوف يفعلون. إنهم يسخرون منا على حساب تلك الحضارات ... يريد الحديث، إلا أن ألم أحد ضلوعه المكسورة يمنعه. يجهل إذا كانوا قد ضربوه فى غرفة التعذيب فجرًا، أم وهو ملقى على الأرض، فاقدًا للوعى.

يتذكر بلاس أرثامنديا أنه منذ حوالى أشهر قدم إلى أسونثيون لعدة أيام، بدعوة من عناصر التنظيم السياسى العسكرى. طلبوا منه العودة إلى البلاد، حيث إن وجوده بها أكثر فائدة من بقائه فى لابلاتا، المدينة التى تصبح أكثر خطورة يومًا بعد يوم مثلها، مثل جميع المدن الأرجنتينية. وركزوا على نشاط "الثلاثى-أ"، وهو تنظيم إرهابى مدعوم من حكومة إيفا بيرون، هدفه القضاء على الجيش الثورى الشعبى و"مونتونيروس"، وبعدها مباشرة الدكتاتورية العسكرية للأهداف نفسها. وفى هذه الزيارة، ركز بلاس وقته بالكامل لـ مرسيدس، التى أقنعها أن يقضيا نهاية الأسبوع بمنزل أحد أصدقائه فى منطقة "أريجوا". ذهبا ظهيرة يوم السبت، حين ذهبا كانت لا تزال الشمس ساطعةً، تحاول أشعتها التسربل من بين زخم السحب الكثيفة المحملة بالأمطار.

كان المنزل القريب من البحيرة نموذجًا لبيت صيفى، السقف مرتفع، توجد طرقة فى المدخل، نوافذ عريضة محمية بقضبان، ونباتات زينة فى الفناء المكسو بالأعشاب.

استخدما واحدة من حجرات البيت الثلاث، وهى الأفضل تهوية. وبمجرد دخولهما استسلما للرغبة الضارية لأن يتعرف كلُ منهما على الآخر للمرة الأولى. لم يدركا، أو لم يرغبا فى الالتفات إلى الرياح التى ضربت النوافذ بشدة.

نهض بلاس ليغلق النوافذ، وحينها ألقى نظرة على جسد مرسيدس البرونزى العارى، فبادلته ابتسامة وهى مسترخية على الفراش الذى شهد صخب عاطفتهما. وعاودا ما كان فيه بعد فترة صمت تخللتها القبل. تحدثا عن دراستهما، وعن الأوضاع فى كليتيهما، وعن الأصدقاء المشتركين. حاول بلاس أن يحدث عن نشاطه السياسى والسبب الحقيقى لوجوده فى أسونثيون، ولكنه تخوف ألا تتفهمه، وأن تعارضه بإصرارها وعنادها الذى يعرفهما كأفضل ما يكون وكثيرًا ما أعجب بها لهذا السبب.

ولكنه قرر أن يصارحها فقد شعر أنه غير مخلص للإنسانة التى يحبها، والتى بادلته الحب. واختار الطريق المباشر بالحديث عن الأوضاع الراهنة.

- أتعرف فى كل يوم على مجموعة من الرفاق الذين يهاجرون إلى الأرجنتين. فهم منفيون سياسيون أو اقتصاديون. على ما يبدو فإن هذا الوضع سوف يستمر طويلاً، إلا إذا. يصمت بلاس أمام نظرة مرسيدس المتفحصة.

- إلا إذا، إلا إذا. تقول مرسيدس بينما تعتمد برأسها على الحائط.

- تتردد بشدة شائعات مرض إستروسنر.

- كثيرًا ما تحدثوا عن مرضه، وها أنت ترى.

- وبالمثل يتم الحديث أن هناك شيئًا ما يجرى فى القوات المسلحة، على الأقل بين المنفيين. هل سمعت والدك يتحدث بهذا الشأن ؟

- على الإطلاق، وحتى إذا كان يعرف شيئًا فلن يتفوه به.

- نفس الشيء بالنسبة لأبى، بل إنه أكثر من ذلك، يعتقد أن الشائعات هى نوع آخر من المعارضة. نحن شباب ولا شك أنه فى وقتٍ ما سنشهد اللحظة التى تتحول فيها الشائعات إلى حقائق.

قالت مرسيدس: إننى أتساءل أحيانًا، إلام سيؤول حال باراجواى من دون إستروسنر. لقد ولدنا أنا وأنت فى ظل حكمه، ويصعب علىّ تخيل الأمر دونه. على الرغم من أننى متأكدة أن بلادنا ستشهد تغيرًا كبيرًا دونه، أفضل ؟ أسوأ ؟

- أجاب بلاس بيقين : بالطبع ستكون أفضل.

- ولم تشعر بهذه الثقة ؟

- حسنًا، يتوقف الأمر على من يخلفه. إذا كان ديمقراطيًا فستتحقق الديمقراطية.

- ومن قادر أن يخلفه غير ابنه ؟

- ألا تفكرين فى فكرة الانقلاب، فى ثورة، فى كفاح مسلح، فى انتفاضة شعبية ؟ أراد بلاس أن يستطرد ولكنه اعتقد أن يمضى بسرعة فائقة.

أجابت مرسيدس: إن أية محاولة من هذه المحاولات سوف تبوء بالفشل ويتم القضاء عليها فى ساعات. هذا ما أسمعه دائمًا من أبى ويكرره بقناعة كبيرة.

أحجم بلاس عن إخبارها بسره، واسترخى على الفراش ليستسلم إلى عاطفة كبتها مرات عديدة.

رأى بلاس حلمًا مخيفًا. كان ينتظر لأن يأتوا بحثًا عنه، لكن الشمس تشرق بينما هو فى مكانه، منكمشًا غارقًا فى عرقه. قل عدد رفقائه فى الزنزانة بشكل كبير، وقد استيقظوا جميعًا.

يشعرون بخوف دائم من الذهاب إلى حجرة التعذيب. يسمعهم ينادون اسمه، فينهض مرتعبًا. ويلمح ضابطًا يشير إليه لأن يخرج. يقوده إلى مكتب آخر مجاور للضابط "كانتيرو" وبعد دقيقة يظهر الشخص الذى نصحه اليوم السابق بلطف أن يتحدث عن كل ما يعرفه.

- لاحظت أننا نخصك بمعاملة خاصة من أجل والدك، ولكن بما أنك لا تظهر استعدادًا للتعاون فـ...

- لا أخفى شيئًا يا سيدى. لكنكم تسألوننى عن أشياء وأشخاص أجهلهم.

- لقد كنت حاملاً لوثائق خطيرة تهدد أمن البلاد. تعاون معنا الآن. إذا حل المساء ولم تفعل، فسيكون الوقت قد تأخر كثيرًا.

أجاب بلاس وقد امتقع وجهه رعبًا: أجهل ما يمكن أن يقع ليلاً، وإن كنت أتخيله.

- حسنًا، هكذا نكون قد قمنا بواجبنا مع أبيك. قال ذلك وخرج يضرب الأرض بقدمه. ثم أعاد الضابط بلاس إلى محبسه، وقبل أن يدخل قال له فى نبرة أخوية : من الأفضل أن تتحدث الآن، لأنك فى كل الأحوال، ستخبرهم بكل شىء ليلاً.

اقترب منه فى الزنزانة رفيقه الأرجنتينى الأصهب، الذى يطلق عليه الزملاء "تشى جزرة".

- ماذا أخبرك كانتيرو ابن العاهرة ؟

- لم أتحدث معه.

- إذن تحدثت مع هذا المخنث الذى يقدمونه على أنه محام. إنه مخنث ومسئول عن التعذيب. هل حكيت شيئا ؟

قال بينما يفكر فى والدته التى كان من المفترض أنها ستذهب إلى أسونثيون (على الأرجح أنها لم تذهب) : لا، ولكنهم هددونى أننى اليوم سأخبرهم بكل شىء.

الاعتبار الذى توليه الشرطة لوالده بصفته موظفا يشغل منصبًا رفيعًا بالحكومة، جعله يتحمس آملاً أن يتحسن وضعه. شعربالسعادة لرغبته فى النوم. سيستريح من آلامه ويأسه. وحين استيقظ كان الليل قد حل. أراد مواصلة نومه، لكن بيلوتو أجبره على الاستيقاظ.

ارتعش جسده، وعرف أن ساعة الخوف قد حلّت. تنفس براحة حين وجد نفسه فى مكتب "كانتيرو"، الذى كان ينتهى من قراءة مستند من ورقتين لنسخه على الآلة الكاتبة. يشير إلى بلاس ليجلس.

- وقّع هنا وينتهى كل شىء. لقد جنبناك جرائم غاية فى الخطورة.

- لا شك فى ذلك.

وجه بلاس نظره إلى الورقة وقرأها سطرًا سطرًا وبدا وكأن كل كلمة تطلق غازًا سامًا. أخذ يتنفس بصعوبة وغاب بصره، وشعر بسحابة قاتمة تمر بذهنه. لم يلحظ أن كانيترو مد إليه يده بقلم.

أصر الشرطى : امسك. ها أنت ترى أنه لا شىء يدينك.

- ولكن هناك أسماء أجهل أصحابها.

فقد كانينرو صبره وقال : كيف ؟ ألا تعرف ريكاردو بيلاثكيث، وإسيتبان ليثكانو وروبرتو آندرادى..؟

- نعم أعرفهم، إنهم أصدقائى. ولكن لا شأن لهم بالأوراق التى جلبتها معى. أردت فقط أن أخبرك أن نشاطنا...

- تخريبى !

- بل سياسى يا سيدى. إنه مفهومنا عن واقعنا الوطنى.

- الأصوب أن تقوم بالتوقيع.

- ولكن هناك أسماء لم أسمع عن أصحابها قط.

- إنهم رفاقك يا أرثامنديا. هم من سيتزعمون التمرد الذى ينظمه أعضاء الجيش الثورى الشعبى.

- ولكن يا سيدى...

- لقد نفد صبرى. قال عبارته ثم نادى بيلوتو قائلاً: إنه بحاجة إلى حمام جيد.

وقع بلاس فى يد "باثان" المخيف. ومرت الدقائق الخمس عشرة الأولى تحت وابل من الضربات المبرحة فى حجرة التعذيب، والإيحاء بأنه على وشك الغرق. كان ما زال يسمع صوت كانتيرو يطلب إليه أن يوقع. تدريجيًا بدا الصوت أكثر بعدًا، وشيئًا فشيئًا انقطع تمامًا. كان الأمر مثل موجة إشعاع تحركها رياح ضالة. وحين يفيق يجد نفسه بين رفاقه. يشعر بالغثيان والرغبة فى القىء. يتذكر بصعوبة أن طبيبًا قد قام بحقنه، أو ربما حقنه أكثر من مرة حتى يتمكنوا من مواصلة تعذيبه. وطلب بعد ذلك أن يعطوه فترة من الراحة. حين وصل لهذه المرحلة من الألم، بدا سيان لديه الهدنة أو مواصلة التعذيب، وتمنى فى لحظة من اللحظات أن يتلقى ضربة قاصمة تنهى آلامه.

وفى فجر يوم جمعة الآلام المقدس، أخرجه ضابطان من الزنزانة. ولمح لحظة خروجه إلى الفناء ذاهلاً روبرتو آندرادى جالسًا على الأرض مقيدًا، عارى الظهر. أدخلوا بلاس

إحدى الحجرات ليفحص الطبيب أعضاءه، ثم حقنه وأمر أن يعيدوه إلى الحجرة التى نام فيها ساعات طويلة. واستيقظ ليلاً من شدة العطش، فصرخ أحد رفقائه طالبًا الماء. وبعد أن شرب تمدد على الأرض منهكًا من شدة الألم. تذكر روبرتو آندرادى.

لقد غادر لابلاتا منذ حوالى أسبوع ملبيًا لدعوة القتال لقيادات التنظيم السياسي، لنفس الأسباب التى استدعوه من أجلها: الانقلاب العسكرى فى الأرجنتين، وحشد وتجنيد الطلبة والفلاحين من مختلف المناطق. كانت هناك حاجة ملحة لمن لديهم خبرة فى العمل التنظيمى، والقدرة على التعاون مع التنظيم السياسى القتالى، لتحقيق أهدافهم. وحين أوشك على النوم، شعر بطرف نعل فوق رَأسه. كان باثان.

بينما كان المحامى ساتورنيتو بنيتث وزوجته ماجدالينا يتناولان الإفطار فى المطبخ، تحدثا عن مرور خمسة عشر عامًا على ميلاد إدالينا. والذى يتصادف مع جمعة الآلام المقدس، إلا أنهما فكرًا فى إرجاء الاحتفال إلى السبت من الأسبوع المقبل بنادى ساخوينا الرياضى. على كل حال، سيكون احتفال البيت مقصورًا على الأقارب فقط. فالأب سيهديها مجموعة أجهزة من طراز " فيليبس"، راديو وجهاز أسطوانات فى قطعة من الموبيليا الخشبية، تشبه المكتب، ويمكن استخدامها أيضًا كمرآة. هى هدية قيمة تستحقها الفتاة التى كان قد رأها فى منزل صديقه منذ سنوات.

وساتو رنينو أكبر من زوَجته بسنوات قليلة، فهو يبلغ أربعة وأربعين عامًا، قوامه رياضى ممشوق للتردد المنتظم على صالة الألعاب الرياضية ويتعارض مع مظهر وجهه الباهت. فعيناه تبدوان كأنهما فى حاجة إلى النوم، ولا تشعان إلا عند رؤيته إدالينا حين تصل من المدرسة أو من أى مكان آخر. يتذكر كيف خطت خطواتها الأولى وسقطاتها التى كانت تتسبب فى تورم جنبها واصطباغه باللون البنفسجى، وبالمثل صراخها وبكاءها فى أيامها الأولى فى المدرسة لتعود إلى منزلها ممسكة بيد أمها، وشهادة المركز الأول فى الشهادة الابتدائية، والآن درجاتها الممتازة فى المرحلة الثانوية.

يزفر الأب: خمسة عشر عامًا. يتذكر أن يوم ميلادها سوف يصادف يوم الأربعاء، اليوم الأخير للقيام بالمشتريات قبل انتهاء فترة العروض.

يذهب سانتورينو بينتث إلى معرض مبيعات فيليبس بشارع " إستريا". وكما هو معتاد يرتدى بذلة داكنة من قماش خفيف. تظهر على ظهره آثار تعرق بادية فى حدود قميصه الداخلى، وتحت القميص الأبيض وياقته وأساور كميه. يطلب لقاء مدير المتجر، فيما يشترى الأسطوانات المفضلة لدى ابنته مثل "نات"، و "كينج"، "كلوى". ويبتاع لزوجته "لوس بانشوس" ولنفسه أسطوانات لويس ألبرتودل بارانا. تقوده سكرتيرة إلى مكتب المدير، رجل هولندى أشقر، طويل وضخم، أنفه مائل للحمرة، اختفت عيناه خلف عدستى نظارة سميكة. كانا قد اتفقا على السعر منذ أسبوع وتسديد المبلغ على دفعات بدون فوائد، وذلك بناء على التوصية التى قدمها، مثلما أشار المدير.

قال مدير المتجر: سوف نرسل الأجهزة على الفور، واحمل لابنتك أطيب أمنياتى.

خرج بينيتث إلى الشارع فى انتظار الترام، يقوم شخص بتحيته من الجهة الأخرى، فيرد له التحية دون أن يلحظ وجهه بدقة. يقرر السير من شارع "١٤ مايو" إلى "بالما". يتجه نحو اليسار ويدخل كافيتيريا "فيرتوا" ليحجز كعكة عيد الميلاد. وسيعاود الرجوع بعد العصر لأخذها إلى البيت. وجد قاعة الصالون فارغة على العكس مما هو معتاد أيام السبت حيث يقف المايسترو "ينينكو نورتون" مع فرقته الموسيقية تعزف ألحان "الجاز"، ويدعو الرجال الذين يرتدون البذلات البيضاء، والنساء فى تنوراتهن الملونة المطبوعة بأزهار تغطى كعوبهن، إلى الرقص. يتم الحديث بصوت خافت على الموائد إذا تعلق الأمر بالسياسة، أو الفضائح الموسمية، مثل حادثة الأسبوع الماضى حين اعتدى رئيس جهاز الشرطة على مضيفة من أوروجواى تعمل فى شركة طيران "بلونا" فى حفلة أقيمت فى منزله فى "ترينيداد". وهى الفضيحة التى شغلت حيزًا كبيرًا فى صحف "ريودى لابلاتا".

الجو الحار يجعله يتردد بشأن استقلال الترام لكى يذهب إلى الجمارك أم الأفضل أن يسير المسافة على قدميه إلى مكتب صديقه الذى يعمل فى الجمارك ووعده بـ عشرة صناديق من البيرة المستوردة. فى النهاية قرر السير على قدميه لأن الترام سيتركه على بعد أكثر من نصف المسافة التى سيقطعها تقريبًا فى "بالما" و"كولون". يسير مارًا بـ"١٥ أغسطس" ثم "باراجواى أندبندينتى". ويقابل صديقين له أمام القصر الجمهورى، عضوين فى الحرس الرئاسي، فيتبادل معهما حديثًا قصيرًا. يصل إلى الجمارك ويستقبله مدير الإدارة الذى يتعهد بتوصيل الصناديق إلى "ساخونيا" حيث يقطن.

شعر بالضيق من حرارة الجو، فقرر بينيتث العودة فى سيارة أجرة إلى المنزل، بحى "سان بثينتى". وقبل أن يستقل العربة حلّ قليلاً ربطة عنقه، وخلع الجاكت وشمر كمى القميص.

وضع علب الأسطوانات بعناية وحرص على المقعد الخلفى. وطلب من سائق التاكسى الذى يعرفه أن ينطلق به إلى البيت. لقى ابنته التى تستقبله بالقبلات للهدية التى منحها إياها وتتصدر صالة المنزل كأبهى قطعة أثاث فى المنزل. تمكن بينيتث من تشغيل الجهاز بعد قراءة الكتيب. استمعوا إلى الراديو ثم إلى أسطوانة "نات"، "كينج"، "كولى" و بدا الصوت نقيًا ويسلب العقول.

تعد الأم والأبنة مائدة الاحتفال فى الفناء لاستقبال المدعوين الذين سيزورون العائلة اليوم لتهنئة "إدالينا". يقول الأب فيما يقوم بوضع الأجهزة الجديدة فى مكان ظاهر، حتى لاتمر هذه المناسبة مرور الكرام. وحين تقترب ساعة العشاء، يدق جرس الباب بإصرار. بينيتث يخرج إلى الباب فيجد رجلين وسيارة محركها دائر.

يقول أحدهما: معذرة، ولكن المدير يطلب حضورك.

- الآن ؟

- على الفور.

- اليوم عيد ميلاد ابنتى. وكنت قد طلبت..

- المدير يطلبك فى خدمة خاصة.

- حسنًا. يتراجع بينيتث ويخبر أهل بيته أنه سيعود فى أسرع وقت ممكن.

يستقبله رئيس جهاز التحقيقات ويبدو مزاجه طيبًا. محاطًا بأتباعه من أهل الثقة يقصون عليه نكات عن بعض الشخصيات المهمة. وتعتبر مكالماتهم التليفونية المسجلة مصدرًا للتسلية المفضلة لديهم مثلهم مثل الدكتاتور. وينفجرون جميعًا ضاحكين حين يقلد أحدهم حركات وزير المالية العجوز، الذى يطلب من عشيقته الشابة لقاءً عاجلاً. وانطلقت موجة جديدة من الضحك حين استمعوا إلى الابن الأصغر لزعيم المعارضة "يبكى مثل امرأة" حين صدر الأمر بإخضاعه للتعذيب بالمياه.

يتفرق الجمع عند الإعلان عن وصول الكولونيل "جوانس"، يستقبله "باستور كورونيل"، وتبدو على وجهه علامات الاستعداد للخدمة أكثر من البشاشة.

يجلسون فى المكتب ويتناقشون بشأن الطالب بلاس أرثامنديا. ويتفقون جميعًا على أنه من أحد أهم عناصر التمرد وأعمال التخريب.

- من سيتولى أمره ؟ سأل العسكرى.

- باثان.

- وماذا عن سابريثا ؟

- إنه فى "ميسيونى"، ولكننى طلبت منه أن يتصل بـ بينيتث.

مًر على بلاس أكثر من نصف الساعة فى المشرحة المجاورة لحجرة التعذيب وهو مقيد الأطراف، بانتظار حضور "باثان" ليعالجه بركلة فى بطنه. لم يعد قادرًا على تحمل الصمت والترقب. يحاول التفوه بأية كلمة، لكنه يخشى استفزاز مُعذبه الذى جلس على مقعد بلا مسند يقًلم أظافره. يسمع صوت الباب يُفتح. يدخل كانتيرو وبصحبته رجل يجهل هويته. هو سانتو رينو بنيتيث.

- الأمر برمته يعتمد على ما ستقرره بنفسك.

قال كانتيرو عبارته وهو يقف أمام بلاس، ثم اتبع عبارته:

- وسننتهى على الفور. إذا أردت المساعدة، فالأمر سهل للغاية: تحدث وأكد معلوماتنا بأن هناك تهديدًا لبلادنا من الخارج يهدد استقرار حكومتنا، نريدك أن تفيدنا بأسماء العناصر الإرهابية الخارجية والداخلية. يراقب بلاس باهتمام الدقة التى ينزع بها ملابسه الرجل الذى دخل مع كانتيرو. خلع كنزته وعلقها على إحدى الشماعات، وبعدها القميص ورباط العنق. ثم طبق بنطاله بعناية على أحد المقاعد. ثم خلع حذاءه وجوربيه وارتدى بنطالاً قصيرًا مطبوعًا بالورود. فى النهاية خلع سلسلة معلق بها صليب فخم. يفعل كل شىء فى هدوء تام وسلاسة. وبانتهاء شعيرة خلع الملابس

يقترب من بلاس ويعاجله بضربة غير متوقعة فى صدره ثم دفعه إلى حجرة التعذيب. حينها ظهر بيلوتو ومعه جهاز التسجيل ملتصقًا بأذنه، فيما يستعد كانتيرو لتسجيل المعلومات التى سيحصل عليها من الضحية أثناء عملية التعذيب.

يسأله كانتيرو: الأسماء.

- أعرف فقط.. لا يستطيع بلاس مواصلة الحديث. فيتلقى ضربة ثانية تجعله يسقط على الأرض. يستشعر فى تفاحة آدم بحلقه ضغطًا فيشعر أنه يغرق فى المياه، فيما يواصل باثان توجيه الضربات له بحزام من المطاط على قدميه. وحين شعر بنفسه يفقد الوعى كأنه يغرق، وأن رئتيه قد انفجرتا، يطلقه المعذب لحظات، يستند على الحوض ثم يضغط على الأعضاء التناسلية لـ بلاس بفخذيه بقوة، فيما يحكم بيلوتو وضعه بجذبه من شعر رأسه الذى يسقط عليه المياه بغزارة.

يأمره كانتيرو : تكلم.

يفقد المعذب هدوءه. لا يبدو أن الضربات كافية لإرغام الشاب الجسور. وكلما نطق كانتيرو بعبارة "تكلم، اللعنة"، يضرب رأس السجين فى حافة جدار حجرة التعذيب. بعد ذلك يرتدى ملابسه بنفس الهدوء الذى خلعه بها. ويترك فى حجرة التعذيب الجسد المسجى بلا حركة، ثم يلقى به فى الزنزانة التى امتلأت بالمعتقلين مجددًا. وفى الصباح المبكر وصل عشرات من المعتقلين من أقسام التحقيقات فى كل من "باراجواى"، "كاجواثو"، و"ميسيونس". وهم زعماء رابطة المزارعين المسيحيين. وتم تعذيب القادمين من "ميسيونس" قبل قدومهم ببشاعة فى "أبراهام كوى"، السجن التابع لمقر الحكومة الإدارية. قام اثنان من المعتقلين وهما ديوينيسيو روخاس، ورامون سيجوبيا ليفسحا مساحة ضيقة للقادم الذى يبدو أنه فى طور الاحتضار. يمد فرانسيسكو ذراعه لرفيقه كأنه وسادة ليحول دون أن يغرق من الدماء المتدفقة فى حلقه، ولكن فى هذه اللحظة لم يكن ليفيد أى شىء.

التصقت أرملة أرثامنديا بالراديو تتابع باهتمام بالغ الأحداث. وتحبس أنفاسها من وقت لآخر حين تسمع أن قوات المشاة فى طريقها إلى باراجوارى دفاعًا عن الحكومة. وبهذا الشكل تفكر فى احتمالية أن يتحفز المدنيون للتسليح والخروج إلى الشارع للحيلولة

دون الثورة. وتطلق نفسًا حين تسمع المذيع يصرخ بأن الأمر يتعلق بحيلة من قبل أتباع إسترِوسنر لإرباك المواطنين. فكرت السيدة: "ربما كان الأمر حيلة، كثيرًا ما فعلوا ذلك ليضللوننا وخاصة فى أوقات الدعاية والدفاع عن حقوق الإنسان".

ينقطع حبل أفكارها حين تسمع أن الدكتاتور قد استسلم فى نهاية الأمر وتم اقتياده سجينًا إلى "كابابيريا"، بقيادة زعماء الحركة، ولكن قبل ذلك، وكما هو معتاد من تصرفاته الخبيثة، طلب الذهاب إلى منزله فى "مالبوروفيتشا روجا". وأعلن المذيع أن الدكتاتور وصل إلى "جران أونيداد"، حيث سيوقع أوراق تنازله عن الرئاسة. خرجت أرملة أرثامنديا ووقفت قرب سياج المنزل وامتلأت عيناها بدموع الفرح ولمحت جيرانها يعانق كلُ منهم الآخر، فيما يصرخون ويغنون. وفجأة امتلأ الشارع الذى كان مهجورًا بالبشر يحتفلون بضوضاء وصخب بسقوط الدكتاتورية. وحين شقشق نور الصباح عادت إلى منزلها. ترتدى ملابسها وتحمل باقة الأزهار وتذهب إلى المقابر.

ديوينيسيو روخاس

يطالع " ديوينيسيو روخاس" وزوجته شاشة التليفزيون فى صالة منزله الضيقة، وبصحبه "باريريتو"، بقرية "سانتا روسيا" بمنطقة "ميسونيس". ويرى الجنرال الفريدو إستروسنر يترجل من سيارة سوداء فى المطار الدولى الذى يحمل اسمه، لم ينظر إلى الأشخاص المتكدسين هناك، ليتيقنوا من رحيله إلى المنفى، يصعد سلم الطائرة ويختفى بداخلها. يبلغ روخاس تسعة وثلاثين عامًا، أشيب الشعر، ارتسمت على ملامح وجهه حدة اكتسبها من معاناة طويلة. يبدو وكأنه رجل فى الخمسين مرهق من أعباء جسيمة، إلا أن عينيه تعكسان وميضًا يناقض ملامحه. تشع منهما طاقة حياة وسعادة، تلمعان بضوء داخلى انتظر طويلاً ليرى النور. لا يبتسم، ولا يتفوه بكلمة، إلا أن نظرته المثبتة على جهاز التليفزيون تعكس ضحكات، وكلمات جديدة لم ينطق بها فى حياته. وفجأة، تهاجمه الشكوك: مشاهد إستروسنر فى المطار، السيارات، الحشود، ملامح الاحتجاج .. ترى هل هى مشاهد سينمائية ؟ خيال يعكس ذهاب الدكتاتور المطاح به إلى المنفى ؟ يعرف أن الخيال والفانتازيا قد يخدعان الحقائق الثابتة. ترى هل هى هواجسه تتبدى له أشكال تتحرك أمامه على الشاشة ؟ إذا لم يكن الأمر محض وهم، فقد تحققت بالفعل أمنياته.

يتذكر ديوينيسيو أنه رأى إستروسنر شخصيًا، واقفًا فى المقصورة مرتديًا منديلاً أحمر فى عنقه. عرف أنه الجنرال، تعرف على وجهه وملامحه وصوته منذ أن كان طفلاً. كانت صورته تتكرر على شاشة التليفزيون، والصحف، وإعلانات الطريق، والبيوت والمكاتب الحكومية. صورته الأولى التى رآها كانت فى مكتب معلمته فى أول يوم له بالمدرسة. وسأل عمن يكون صاحب الصورة، وكانت الإجابة : إنه زعيمنا الوحيد الذى يمنحنا السلام والرخاء.

فى هذه الأيام استيقظ ذات يوم إثر ليل لم يطل فيه القمر. ركب الحافلة التى حملته إلى أسونثيون إلى جوار والده والعديد من الأشخاص، يضعون جميعهم المناديل الحمراء فى أعناقهم أو فى معاصمهم. كان قد تم الحديث فى الأسبوع السابق فى المنزل- وبلا حماس- عن فائدة قبول الدعوة الموجهة من االسلطات. إلا أنه سرح بخياله فى زيارة عاصمة البلاد، وهو الأمر الذى بدا له قبلاً مستحيلاً. استمع إلى أبويه وإلى بعض أعمامه يتناقشون فى الحافلة بحماس خلال الرحلة. فى البداية رفضوا فكرة الدعوة، إلا أن قرار أبيه حسم الموقف مشيرًا إلى امتيازات قبول هذه الدعوة. وارتسمت على وجه الطفل وفى نظراته ابتسامة.

وعلى الرغم من برودة الجو فى شهر أغسطس، والرياح الجنوبية التى تسللت إلى الحافلة، بدا له طريق السفر الذى استغرق ثلاث ساعات قصيرًا بسبب تشوقه للوصول. تخلل الطريق حديث المسافرين بصوت خفيض يقطع ساعات الصمت الطويلة. ولم تبد الحماسة على الركاب إلا حين يتم إطلاق الدعابات عن إستروسنر، وعن إلحاح الشعب عليه خلال عروضه المهيبة أن يعاود الترشح.

نزلوا قرب إحدى النواصى بأحد الميادين حيث العديد من الحافلات والمسافرين والبضائع المشحونة. نزل رجال ونساء وأطفال وقد ارتدوا الملابس القومية الملونة. شعر ديوينيسيو برغبة شديدة فى التبول، لكنه لم يعرف مكان دورة المياه. أدرك المكان المناسب على الفور حين لمح أباه وآخرين وراء مكان جرت على الأرض بجواره بركة فاتبع المجرى مبتهجًا. وأدرك بعد ذلك حيوية رفقائه فى السفر.

وحين صعدوا مجددًا إلى الحافلة، أخبروهم أن لكل منهم علبة من اللحم المحفوظ ورقائق البسكويت، فقد كانوا على وشك تناول الإفطار حين صدرت التعليمات بصعود مجموعة ميسيونس إلى الحافلة. شعر ديوينيسيو بسعادة وهو يسير إلى جوار والده فى شارع عريض محاطًا بآلاف الأشخاص يهتفون جميعًا باسم إستروسنر. لفت انتباهه أن أباه و بعض الجيران صاروا يرددون الهتافات للجنرال الذى كثيرًا ما تحدثوا بصوت خفيض عن تجاوزاته العديدة واستغلاله للسلطة على كل حال، أقنع نفسه أنه قد سافر من أجل التعرف إلى العاصمة أسونثيون، وليس للقيام بالسخرية أو الانتقاد. فلو كانوا أخبروه أن مقابل سفره هذا سيكون التصفيق المستمر إلى أن تتورم يداه لفعل ذلك، لكنه

الآن دس يديه فى جيب بنطلونه القصير. شقشق نور الصباح منذ قرابة ساعتين، أشعة الشمس تتراقص خلف السحب. يتمنى أن يتحسن الجو ويمنحه وقتًا سعيدًا. يتعمد ألا يراه والده يرتعش من البرد لأنه فى تلك الحال سيجبره على ملازمته. وبعد أن ساروا طريقًا بلا نهاية – وفقًا لتخمينه – وبعد أن تهالك نعل حذائه الذى اشتراه قبل يوم، وصلوا أخيرًا إلى المقصورة التى سيظهر فيها الدكتاتور. ارتدى بذلة داكنة ومنديلاً أحمر فى عنقه، وصار يرد التحيات التى وصلت إليه من الصيحات المتواصلة للجماهير. توقف منسق وفد "ميسيونس" لحظة ليعبر عن دعمه غير المشروط هو وجميع رفاقه القادمين من المنطقة، ليدعموا المشروع الوطنى لإعادة انتخاب الرئيس. وأجابه الرئيس ملوحًا بمنديله الأحمر أمام وجهه. وهو ينظر إليه عن بعد. وشجع هذا القبول آخرين ليكرروا المشهد بدورهم. وبعد المسيرة الطويلة، قام ديوينيسيو بخلع حذائه فى مكان قل فيه المشاة. فاعتادت قدماه على الفور الأسفلت البارد شعر بحماسة زائدة واقترب من زميله فى الصف "ألبينو ساليناس". انضم الطفلان إلى رفاقهما، ثم ذهبا للبحث عن الحافلة التى سوف تحملهما إلى قريتهما. إلا أن ذلك لم يكن ممكنًا، إذ اضطرا للانتظار ساعات طويلة بعد انتهاء العرض. فقد تخلف أشخاص عديدون، وكان يتوجب انتظارهم.

عادوا أدراجهم فيما السماء تمطر رذاذًا خفيفًا، إلا أن رياح الجنوب كانت قوية، فتتحول فى بعض اللحظات إلى عاصفة. وقام العديد من الركاب من أماكنهم ليتجنبوا النوافذ بزجاجها المكسور. واستكانوا فى الأماكن التى بدت لهم أكثر راحة. وحين تركوا الطريق الأسفلتى وسارت الحافلة فى الأرض غير الممهدة فى طريقهم إلى قريتهم وأصبح الأمر أكثر صعوبة، بسبب الوحل فى الأرض الذى يجعل العجل ينغرس فيه أو يتسبب أحيانًا فى الانحراف عن الطريق سواء كانت حمولة العربات ثقيلة أم خفيفة. لم يبدَ على وجه المسافرين ما يدل على أنهم قادمون من نزهة أو حدث سياسى كَلل بالنجاح. غلب عليهم الصمت، يقطعه بين حين وآخر سعال أو تثاؤب أو شخير. وحين وصل إلى منزله وقف ألبينا فى المر، ومتبعًا نموذج أبيه علق صورة الجنرال التى وُزعت عليهم فى الحافلة. وأراد ديوينيسيو أن يفعل نفس الشىء، إلا أن أباه جذبه من يده قائلاً: ألق هذه القمامة. شعر الطفل بالارتباك لأنه رأى والده ممسكًا بالصورة يلوح بها خلال المسيرة. على كل حال لقد استمتع برؤية العاصمة، الهدف الوحيد من قبوله السفر. لم تتح له الفرصة أن يتعرف على العاصمة، ولكنه أقنع نفسه بأن الوقت المناسب سوف يأتى لمعرفتها كما يجب.

من جانبه فإن "أنسيلمو ساليناس" خطا بهمة إلى الصفوف الرسمية الأولى فى القرية. تقرب إلى السلطة فى مبادرته الأولى بأن جعل شاحنته التى تنقل البضائع تحت تصرف أنشطة الحزب. وكان يملك شركة تجارية للمؤن الزراعية، أسسها برأس مال متواضع عن طريق قرض. كان محصول القطن سلعة مناسبة له تمامًا، إلا أن العقبة التى واجهته تمثلت فى منافس له استحوذ على مناطق معينة، لم يتمكن أنسيلمو ساليناس من التوسع فيها. وكانت الخدمة الأولى التى قدمها بشاحنته هى نقل الأفراد إلى الاجتماع السياسى فى العاصمة الإدارية "سان خوان باوتيستا"، التى استنهض فيها وزير الداخلية أتباعه للمراقبة الدائمة. فأعداء الحكومة يعملون فى الظل ليقوضوا السلام والرخاء فى الجمهورية.

وبعد ذلك بأسبوعين، تم تكليف أنسيلمو ساليناس بنقل أفراد إلى مدينة أخرى بمقاطعة "ميسوينس"، وهى "سان إجناثيو"، التى أكد وزير الخارجية أن بها مجموعات تخريبية تسعى إلى أن يعم الخراب والحزن فى البلاد، وبعد ذلك بأيام أعلنت الشرطة أنها تمكنت من إحباط مخطط تخريبى خطير. وتم الإيقاع بالمدبرين الأساسيين، إلا أن هناك بعض العناصر التى "سوف تدفع ثمن ما قامت به من أعمال".

وفى تلك الأثناء، تلقى رئيس جهاز الشرطة بـ ميسيونس بلاغًا مجهولاً يفيد بأن المسئول الأول فى هذه المنطقة عن الواقعة قام بالتمويل الكامل لهذا المخطط وللمتآمرين. وتم اقتياد التاجر الذى وجهت إليه التهمة إلى قسم التحقيقات المركزى فى أسونثيون، واعترف تحت وطأة التعذيب بمسئوليته فى المخطط التخريبى. وحينها، تمكن أنسيلمو ساليناس من مد نشاطه إلى المنطقة بالكامل. وبعد وقت طويل من نقل الأفراد تطوعًا إلى المناسبات التخريبية، وتوطيد علاقاته بالسلطة، أصبح أنسيلمو عضوًا بارزًا من قيادات الحزب، فتمكن من دعم تأثيره السياسى ونقل نفوذه إلى دوائر التجارة، مما أثار حفيظة المزارعين الذين كانوا يشتكون دومًا من الفوائد المرتفعة للقروض، أو التسعير المجحف لمنتجاتهم الزراعية، أو اغتصاب أراضيهم فى حالة تعثر دفع القروض. تضاعفت أعداد المعارضين والمتضررين من هذا التعسف ولكنهم ظلوا بلا قوة أو قدرة على الدفاع عن أنفسهم.

كان لدى أنسيلمو ساليناس منزلاً وتجارة كبيرة فى القرية. وبالمثل كانت لديه مزرعة تبلغ خمسة كيلو مترات اعتاد زيارتها مرة أو مرتين كل أسبوع. وأثار الجيران أقاويل أنه يستخدمها ليلتقى بعشيقته. وذات مرة يوم السبت خلال رحلة عودته إلى المنزل. تعثرت سيارته ببعض فروع الأشجار التى أعاقت سيره، ولحظة ترجله من السيارة شعر بشخص وراءه، لم يسعفه الوقت ليلتفت ويرى الشخص، ذلك أن ضربتين عاجلتاه فسقط على الأرض منكفئًا على بطنه. أشيع فيما بعد، أنه كان بصحبة سيدة خرجت تجرى مسرعة. بعد نصف ساعة من الواقعة، تم العثور عليه وكان ما زال على قيد الحياة، إلا أنه فارق الحياة إثر النزيف الشديد خلال نقله إلى المستشفى.

تناقلت القرية الشائعات، وكان هناك ثلاث دوائر للشكوك : السياسية والتجارية والعاطفية. فقد كرّس ساليناس نفسه منذ فترة لخدمة الحزب الرسمى. وفى دائرته كان مسئولاً عن نشر خصوصيات المعارضة، ونقلها إلى وزير الداخلية والسلطات الوطنية. وكان مسئولاً عن البلاغات التى تنتهى بالقبض على المشتبه فيهم لأسباب تدعو إلى التمرد وتخريب المنشآت. لهذا السبب تلقى العديد من التهديدات بالموت فى شكل مطويات تُرسل إليه فى المنزل والعمل. بالمثل حامت الشبهات حول بعض المزارعين الذين كانوا ضحية لممارساته التجارية، فلم يكن يتورع عن الاستحواذ على منازلهم مقابل الديون، فقرر هؤلاء أن ينفذوا العدالة بأيديهم.

وقبل أسبوع من هذه المأساة كان قد حصل على أمر قضائى يقضى بإخلاء منزل عائلة كانت تدين له بدين على مدار دورتين لزراعة القطن لم يحالف فيهما الحظ أصحابها. ولكيلا يصبح موقفه سيئا أمام أتباعه كان يسمح لهم بالبقاء فى الأرض بصفة المستأجر. أما الافتراضية الثالثة، فقد استندت أيضًا على أسباب قوية، ذلك أن أحد الأزواج الذى تأكد من خيانة زوجته له، أقسم على الملأ أن يقتل ساليناس الذى يحطم العائلات بسلطته السياسية والاقتصادية. بعد وقوع الجريمة بساعات، ألقت الشرطة المحلية بالتعاون مع اثنين من أفراد شرطة العاصمة القبض على سبعة رجال من المعارضة، وثلاثة مزارعين. وبقوا إلى اليوم التالى فى مقر التحقيقات العامة بالعاصمة.

اختفى مشهد الطائرة من التليفزيون، إلا أن مشاهد الدكتاتور تسيطر على خيال ديوينيسيو. يتذكره يتصدر العروض العسكرية والطلابية والحزبية، يحيط به الأشخاص

أنفسهم. يراه يتحدث فى البرلمان عن السلام والأمان والديمقراطية التى تتيح للمواطن صناعة مستقبله المشرق. بالمثل أراد ديوينيسيو مستقبلاً أفضل، إلا أن جهوده لم تكن كافية. وحين تنامى لعلمه أن بإمكانه العيش بدون التعاون مع جامعى الفواكه ومن يحملونها ومن يقومون باستغلالهم، توجه إلى لجنة رابطة المزارعين المسيحيين. خرج راضيًا من اللقاء الأول وقرر ألا يفوته أى من هذه الاجتماعات.

ذهب ومعه رفقاؤه إلى منزل أحد الأصدقاء ليتحدثوا بشأن أخبار اليوم ويخططوا لليوم التالى. شعروا بالسعادة لإنجازهم فى ذاك اليوم، فبدلاً من امتلاكهم لما يتراوح ما بين ٢,٦ إلى ١٥ هكتارًا، سيصبح لديهم من ٦٠ إلى ٧٠ هكتارًا، وهو ما سيتيح لهم إنتاجًا أكبر يغطى الاستهلاك ويُستغل فى التجارة. وأخبرهم الكاهن فى الاجتماع بأن هذه هى "الطريقة المثلى" وهى ليست بجديدة" وأضاف : "فهى نفس الطريقة منذ القرن السابع عشر فى هذه الأرض المبشرة". كما أوضح لهم آليات وفوائد العمل فى مجموعة، وأهمية أن يعمل الفرد فى الأرض التى يمتلكها. وأضاف فى حديثه لهم : "هذه الممارسة لها ميزة أخرى، أنها تحول دون ترسيخ الجشع والحسد".

وبعد مرور فترة من الزمن جعلتهم يشعرون بالتضامن فيما بينهم، سعوا لإرساء النمو المؤسسى والاقتصادى، ونفذوا فكرة مخزن الاستهلاك، التى تمت الدعوة لها قبلاً فى الاجتماعات السابقة. وجعلهم فرق السعر فى عملية البيع والشراء يدركون مدى الاستغلال الذى رزحوا تحت وطأته. ولمسوا كيف يحسن العمل الجماعى والإعانة الاقتصادية علاقتهم بأهل القرى. كما عملوا على أن يعم الخير لأى مشروع تشارك به الكنيسة على الجميع، وهى المؤسسة التى كثيرا ما روجت لمباركة قسوة الفقر لأنه الطريق إلى الجنة. وهكذا عرفوا أنه بالإمكان الحصول على جزء من خيرات السماء على الأرض، وهذا عن طريق الصحة والتعليم والسكن اللائق والتغذية السليمة.

وبقيادة رجل الدين أو أى شخص آخر يكون على وعى يصبح بالإمكان التعليق على نص الدستور الوطنى. واكتشفوا أن أنشطتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية كانت متوقفة. ودرسوا بالاهتمام نفسه إنجيل أمريكا اللاتينية. ودرسوا بالإضافة إلى هذه النصوص القداسات التى تقدم فى الكنائس، وناقشوا فى اجتماعاتهم التعليم المدرسى، والسياسة والجيش والقضاء والشرطة، حتى ما اعتاد الرهبان ترديده، كانوا يروجون للفوز بمملكة الرب عن طريق الفقر والمعاناة على الأرض.

بهذا الشكل تعزز دور المتاجر التعاونية، وأشيع تضاؤل دور مثيلتها، وفي المقابل انخفضت الأسعار، وتم مد فترة تسديد القروض، وارتفع عائد بيع المنتجات الزراعية. وبالرغم من ذلك، لم يتمكنوا من إضعاف متاجر الرابطات. واتسع المشروع من خلال تفعيله في المدارس الموازية على هامش التعليم الحكومي، حيث يتعلم الأطفال القراءة والكتابة والحساب، إلى جانب الصلاة وأهداف الرابطات الزراعية المختلفة. وتولت إحدى المعلمات مسئولية إدارة مدرسة شركة "باريريتو"، وكانت قد درَّست قبل ذلك في إحدى القرى، إلا أنها أوقفت عن العمل لأن أباها رفض شراء تمثال من الجص للدكتاتور.

المعلمة كانت تدعى "إيسابل راميرث"، ولديها ثلاث سنوات من الخبرة، ولكنها لم تكن ذات فائدة في ظل هذا النظام الجديد. توجب عليها أن تضبط معارفها لتتطابق مع(بيتفوهارا)[1]، أي التعليم المختلف، فقضت أسبوعين مع المساعدين الذين قاموا بالتدريب في المدارس المجاورة في القرى. ويمارس الطلاب يوميًا هذا النوع من التعليم التفاعلي الذي تظهر نتائجه مباشرة. وللبداية، لابد من التدريس بلغة الجواراني. فالتدريس بالإسبانية يجعل الدارس منعزلاً، كما أنه يجبر المدرس على التكرار مرتين أو ثلاثة لكي يفهمه المتعلم. واستطاعت إيسابيل راميرث أن تدرك مدى تأثير منظومتها الجديدة في التعليم والتي أوصت بها الرابطات الزراعية وتهدف إلى أن يتعلم أبناء المزارعين معارف في المحتوى القريب من بيئتهم وحياتهم اليومية، والتي تختلف بشكل كبير عن برامج التعليم الرسمية. اهتمت هذه المدارس بأن يتعلم الأطفال ممارسة الحوار المستمر بشأن مشاكل الريف، وتشجيع طاقاتهم الإبداعية وقدرتهم على النقد وممارسة العمل الجماعي، والتضامن واعتناق مفهوم السعادة من خلال فكرة معناها ماذا تفعل؟ وليس ماذا تملك؟ وأصر نظام التعليم بهذه المدارس على رفض مبدأي التدجين والاستغلال. فهم لم يتلقوا أية مساعدات من الدولة، ولكنها اعتمدت على المساعدات التي يقدمها الآباء، ورفضت مساعدات المؤسسات المحلية أو القومية، مقتنعين أن أي تمويل من خارج دائرتهم سوف يعوق استقلاليتهم.

---

(١) كلمة من لغة الجواراني، وهي لغة السكان الأصليين في باراجواي، وما زالوا يتحدثون بها.

إيسابل راميرث كانت فى الثالثة والعشرين من عمرها حين تولت مسئولية المدرسة "باريريتو كومبانى"، برغم أن منزلها كان على قرابة أربعة كيلو مترات من المدرسة، لكنها فضلت البقاء مع عائلة "آل فلوريس"، أعمام ديوينيسيو روخاس، وذلك حتى تتمكن من تكريس وقت أكبر لطلابها البالغ عددهم ٢٩ طالبًا وتتراوح أعمارهم بين سبع واثنتا عشرة سنة، وبالمثل لتتمكن من حضور اجتماعات الرابطات التى وجدت نفسها فى أفكارهم. بدت أصغر من سنواتها الثلاثة وعشرين، ومبعث ذلك تلقائيتها وابتسامتها المشعة ونظرات عينيها التى لا تكف عن الحركة. كانت متلهفة لمتابعة كل ما يحدث حولها بينما تتحدث أو تستمع للآخرين. امتازت باللطف والتعاون، فسعى لصحبتها الجميع فى اللقاءات العائلية والدينية. أفكارها المتوهجة وثقتها بنفسها كانت تلهب اجتماعات ونقاشات الرابطة. لم تستغرق وقتًا طويلاً كى تصنع حدًا للألم الذى كانت تئن تحت وطأته المدرسة، تمكنت فى وقت قصير من تهيئة الطلاب وتوجيههم. وجدت ضالتها فى أهداف ومبادئ رابطة المزارعين وهو ما أبرز قدرتها الكامنة على استعدادها للخدمة بإخلاص بعد وقت قصير، امتدت روابط المزارعين فى مناطق كثيرة مجاورة، وهكذا تكونت الفيدرالية التى ضمت جميع المزارعين المنتجين.

ولفت المسئولون فى الاجتماع القومى الأول إلى التفاوت بين أداء الجمعيات، فبعضها كان متأخرًا عن الآخر. وتقدم المتطوعون لمد يد المساعدة فى المناطق المحتاجة للعون. وكان من بين هؤلاء ديوينيسيو روخاس، اعتاد أن يسافر فى نهاية الأسبوع وقطع مائة كيلو متر ليساعد رفقاءه، اشتكى فى البداية من قلة عدد المزارعين المنضمين. اعتاد التوجه للجميع بأن هذا العمل ليس للقادة، بل للجميع، يجب دعوة الكل للانضمام إلينا. عليهم أن يقتنعوا أن هذا المشروع من أجل منفعتهم، سنخرج من بيت إلى بيت، نتحدث إليهم، ونؤكد لهم أن الخير سيكون للجميع، وليس فقط الخير الاقتصادى، أعتقد أن عليكم مضاعفة العمل حتى تتمكنوا من جذب شركاء جدد.

– قال أحد الحضور: اسمح لى.

– أجاب من يدير الاجتماع: تفضل.

– أردت أن أخبر القائد ديوينيسيو روخاس أننا لا نتحمل الذنب كاملاً. نعمل جاهدين لينضم إلينا شركاء آخرون، نذهب من بيت إلى آخر.

– سأل ديوينيسيو: إذا ما الأمر؟

– العديد منهم يعتقد أن ما نؤديه هو عمل سياسي، وأننا ضد الحكومة فيشعرون بالخوف. وآخرون يعملون ضد المنظمة.

– لاشك فى ذلك، إنهم لا يفهمون طبيعة ما تفعلونه، حاولوا دعوتهم وشرح الأمور لهم حتى يروا الأنشطة التى تحققونها.

– الحقيقة أن ما نفعله ليس بالأمر الكبير، لأننا قليلون.

– هذا ليس بذى أهمية، الأهم أن يروا.

– المشكلة ليست فى ذلك، بل فيما يظنون أننا نفعله فى الاجتماعات.

– أجاب من يدير الاجتماع: الحقيقة أن الأمر يبدو كترهات، مجرد قيل وقال. لا أحد يزعج عملنا. نهاية الأمر أيها الصديق ديوينيسيو، ليست هناك مشكلة فى أن يكون لنا شركاء، سيأتون شيئًا فشيئًا حين يرون ما نقوم به. وما نفعله مفيدًا، ربما لو تجاوزنا ما...

– لا. لا، ليست هناك أية مشكلة، إننى اتفق معك، لكننا يجب أن نفهم ما نقوم به وكيف ننفذه.

استمر الاجتماع وناقش قضايا أخرى إلى أن أنهاه ديوينيسيو، وبقى من الوقت نصف ساعة حتى موعد العربة التى ستقله إلى "سانتا روسا". حين ترجل من السيارة كان وقت الغروب وانعكاسات أشعة الشمس الذاهبة، ومثل جميع أيام الآحاد، كانت القرية وسكانها فى وقت القيلولة وهو طقس مقدس. دوى وقع خطوات ديوينيسيو على رصيف المنازل المتاخمة التى تبدو خاوية، إلا فيما صدر من أصوات خافتة من جدران بعضها. مر بست بنايات ليتجه نحو "باريريتو" إلى جوار منزل "رامون سيجوبيا"، وهو من زعماء المزارعين. وجده جالسًا فى بناء منزله يقرأ صحيفة صادرة عن الكنيسة المحلية مكتوبة باللغتين الإسبانية والجوارانى. ناقشت الصحيفة الأحداث الوطنية خلال الأسبوعين

الماضيين وقدمت تحليلاً وفقًا للعقيدة الكاثوليكية، وخُصصت الصفحة الأخيرة لأبناء رابطات المزارعين.

يُعلق ديوينيسيو على نتائج الاجتماعات، حجم المشاركة، والأشياء التى تبدو عصيّة، واستفزاز بعض الحضور الذين يعتبرون الرابطات ونشاطها مناهضًا للحكومة. على الرغم من ذلك، فهناك بادرات أمل أن ينضم مزارعون إلى المشروع. أشار سيجوبيا بينما يطلب من زوجته أن تحضر كوبًا من مشروب الليمون:

– يجب التحلى بالصبر والمثابرة.

صادف ديوينيسيو بعد خروجه من منزل صديقه مجموعة من الأشخاص تبدو عليهم السعادة البالغة وهم خارجون من ملعب رياضى يحيطون بفئة من اللاعبين فيما يصيحون ويصفقون. وعلى مسافة قصيرة، أخذ آخرون يصيحون منددين بالحكم. ذهب إلى بيت أعمامه مثلما اعتاد دومًا قبل أن يتوجه إلى مسكنه. غابت أشعة الشمس بالكامل باستثناء ألوان طفيفة باهتة، غير أنها قادرة أن تنعكس على الياسمين برائحته الزكية فتبرز بياض زهره.

– استقبلته العمة مارتينا بضحكة كبيرة وهذه العبارات: لقد أوشكت على الوصول؟

– أجابها وقد شعر بحرارة صبغت وجنتيه باللون الأحمر من تقصدين؟

– ومن غيرها ؟ إيسابل طبعًا.

– آه.

– فتاة طيبة. أنا وعمك نحبها وكأنها ابنتنا.

– هذا أمر جيد للغاية. نرغب أن يحبها الجميع. أولياء أمور الأطفال سعداء بها جدًا.

– المرة السابقة...

لم يكمل جملته وسكت. لمح إيسابل تقترب. جلست خلف أخيها فيليب على الدراجة البخارية مثلما اعتاد فى أيام الآحاد. وبعد تبادل التحيات سألتها مارتينا: كيف حال والديك؟

– إنهما بخير ويبعثان لك بالتحية. ما أخبار الاجتماعات يا ديوينيسيو؟

– جيدة للغاية، لقد وصلت الآن لتوى وأضاف: ربما سأعود فى وقت لاحق، يجب العودة إلى المنزل.

– قال فيليب: وأنا أيضًا.

تساءل ديوينيسيو لماذا تضرج وجهه بالاحمرار حين نطقت العمة باسم المعلمة. كما أن نغمة صوتها انطوت على شىء من السخرية أو ربما الإدانة. ثم يتساءل مجددًا، ولم ذاك؟ فإننى لا أفعل شيئًا يجعل الآخرين...

يغلق عينيه ويحاول تركيز انتباهه فى شىء آخر.

لقد سمع كثيرًا فى الاجتماعات الأخيرة مقولة أن نشاط الرابطات التعاونية يعمل ضد الحكومة. حاول إدراك ما إذا كان ذلك رأى المزارعين أنفسهم أم يروج له أشخاص مستفيدون. اعتقد أن من يفعل ذلك هدفه إرضاء الحكومة. تتولد لديه ثقة أن كل ذلك سينتهى حين يتعرف الآخرون على المشروعات بشكلها النهائى. يحاول التعمق فى هذه الأفكار، غير أن خياله لا يكف عن التفكير فى إيسابل. ويهرع لرؤيته "رومبى" مغتبطًا يهز ذيله مثل المروحة، فقد كان ينتظره منذ الصباح الباكر، قابعًا عند الباب مرفوع الرأس متحسبًا لظهوره وأذناه قائمتان. هو كلب أسود "بلا سلالة" محددة، مثلما يجيب صاحبه حين يسأله شخص ما. فأرجله قصيرة سخيفة، وبطنه كبيرة بالنسبة لحجم جسمه، أما خطمه فيشبه الخفاش أو الفأر. وحين يقترحون على ديوينيسيو أن يغيره بآخر من فصيلة مختلفة، يكون جوابه: " لا ولو أعطونى كيلو من الذهب الخالص". كان قد عثر عليه ذات يوم فى الطريق، وقد أغرقته مياه المطر، نحيفًا وجائعًا، ولم يكن يزيد عمره على سنتين. استعاد عافيته بعد العناية به، ومنذ ذاك الحين والكلب يرد له الجميل بعاطفته الجياشة ووفائه وإخلاصه. ولا يعرف ديوينيسيو لماذا أطلق عليه اسم رومبى، لكن صار اسمه بين العائلة والجيران. توجها من البوابة إلى المنزل حيث كانت والدته تجمع الحطب لتخزنه بين أجولة الذرة، والفاصوليا والبطاطا.

– ألقت والدته التحية عليه وسألته : هل ستأكل وجبة خفيفة أم تفضل العشاء؟

– سأخرج قليلاً.

– ولكنك وصلت لتوك.

– يبدو أن العمة مارتينا تحتاجنى.

لدى خروجه، كان بانتظاره رومبى مصممًا على مرافقته فهو ليس مستعدًا لانتظار سيده مجددًا عند البوابة وهو يتضور جوعًا. أما العمة ماتيلدا فتوقعت عودة الشاب مرة أخرى، فجهزت وجبة خفيفة فى الفناء.

– أعتقد أنك لم تأكل شيئًا حتى الآن.

– آه.

– حسنًا، اجلسى واستريحى يا إيسابل، وأنت أيضًا يا رايموند، أغرف لنفسك حساء، ولدينا أيضًا لبن وكعكة شيكولاته طازجة أعددتها ظهرًا. رقد رومبى فى ركن متابعًا بنظراته سيده حتى لا يغيب عن عينيه. تدور الشائعات بشأن المسيرة التى تعتزم المدرسة تنظيمها والتى يدعمها الكثيرون من المزارعين، فيما يرفضها آخرون تركزت على المعارضة لنظام التعليم غير الرسمى فى قطاع هامشى،

تولدت لديهم مخاوف من أن هذا النوع من التعليم سيحول دون قبول أبنائهم فى المدارس الرسمية، فيتخلفون عن دراستهم فى المدرسة، ويضطرون لإعادة الصف من السنة الأولى، فيفقدون ثلاث أو أربع سنوات دراسية.

– أضافت إيسابل: لن يكون هناك أى فقد لسنوات الدراسة، لقد أوضحت ذلك لأولياء الأمور، المسألة كلها أن الطلبة سيتلقون تعليمًا مناسبًا لمهاراتهم الحياتية.

– أضافت ماتيلدا وهى تقدم مزيدًا من الحساء واللبن: البعض يخبرونهم أن أولادهم لن يتمكنوا من الالتحاق بمراحل تعليمية أعلى، فلن يصبحوا أبدًا أطباء أو

محامين، وأن المدرسة الحالية لن تمكنهم من الوصول إلى المدارس الأخرى، وأبعد من ذلك الجامعة.

– أجاب رايموندو فلوريس: هذا صحيح، ولكن الرابطات الزراعية تسعى إلى تربية جيل جديد من المزارعين أفضل مما كنا عليه، المسألة أن يتعلم الأبناء أن يحبوا الأرض ويعيشوا بكرامة، وليس مجرد فلاحة الأرض وإنتاج محصول.

نهض ديونيسيو روخاس قبل أن ينتهى النقاش، مشيرًا إلى أنهم ينتظرونه بالمنزل لاجتماع ما. كان يفكر فى مهمة تكوين لجنة فى منطقة أخرى تبشيرية. حفزت نتائج العمل المشترك الفلاحين الآخرين للمشاركة فيه. ظل الشاب يلاعب كلبه الملتصق بفخده، فيختبئ منه خلف الشجيرات فيراه الكلب وتبدو عليه البهجة، ويدرك رومبى أن سيده لم يرفع عينيه عن إيسابل، وأن الفتاة كانت تبادله النظر من حين لآخر بنظرة رقيقة. كما لاحظ أن سيده مهتم بلفت انتباه الفتاة، حتى إنه أهمل موضوع الحديث أثناء الطعام. دخل ديوينيسيو المنزل وقد حمل رومبى بين ذراعيه وألصقه بصدره. فصاحت الأم "لقد جاءا"، بعد انتظارها لهما. وعلى الرغم من خبرة ديوينيسيو فى تنظيم اللجان، فإنه جعل يراجع الأوراق مع خاله، رايموند فلوريس، الذى يحبه الجميع ويحترمه لتكريسه جهده للرابطات الزراعية، وهويمتلك حقلاً للأرز، ويشارك جيرانه معدات الفلاحة.

ومنذ اللحظة الأولى فى الاجتماعات، لاحظ الجميع خصال رايموندو التى ستميزه دائمًا وهى إخلاصه الشديد، واهتمامه بالآخرين، فضلاً عن حصافته ورجحان عقله. خصص جزءًا من أرضه للزراعة التعاونية للأرز وبعض قطاعات الإعاشة. وقد تكفل بابن أخيه ديوينيسيو بعد وفاة والده، وأمده بالمعارف والأدوات اللازمة لزراعة الأرض على أفضل وجه. فبعض الطرق التقليدية المتوارثة والخنوع لـ القضاء والقدر من العناصر التى تحد من إنتاج زراعى متميز. وتعلم رايموندو من أحد التقنيين الخبراء فى الهندسة الزراعية وسائل لتحسين الإنتاج.

واجه ألبينو سالييناس البالغ من العمر واحدًا وثلاثين عامًا سوق العمل التجارى بخبرة محدودة للغاية. ساعده أبوه ليتقلد منصبًا سياسيًا. فى المقابل كانت قد فشلت الشركة التجارية نظرًا لقلة خبرته واهتمامه بها لذلك السبب أبعده أبوه عن التجارة. وليضمن له نشاطًا مربحًا جعله فى منصب أمين محكمة الصلح. وصمم ألبينو من خلال موقعه اكتشاف القاتل الحقيقى لوالده، والذى أقسم أنه سيعرفه عاجلاً أم آجلاً. وكان على يقين أنها لم تكن جريمة سياسية أو عاطفية، كان مصممًا أن الفاعل من هؤلاء الذين فقدوا أراضيهم أو من أصحاب الديون. إلا أنه اعتمد الرأى الرسمى المشير إلى أن الجريمة لأسباب سياسية تستهدف زعزعة الحكومة والأمن العام. منذ توليه هذا المنصب، عمل على صياغة التقارير التى يرسلها إلى قسم التحقيقات بشرطة العاصمة، كان يرصد أى واقعة أو حدث يبدو له مؤشرًا لمعارضة الحكومة. وبعد انقضاء عام فى ممارسة عمله القضائى، الذى اتسم بالممارسات المتعسفة والوشايات، تمت مكافأته بأن أصبح محافظًا.

تلقى الخبر فى مكتبه وكان عاكفًا على تقصى واقعة سرقة ماشيته. ودون أن ينطق بكلمة واحدة، توجه مباشرة إلى الخيَّاط. وجده فى فناء منزله جالسًا تحت ظل شجرة برتقال وقد علق متر القياس الأصفر برقبته فيما يخيط كنزة. فأمره أن يعد له زى المحافظ فى أربع وعشرين ساعة.

– سأله الخياط بينما يجذب دبابيس من بين شفتيه: لمن هذه البذلة ؟

– أجابه وهو يخبط على صدره: إلى هذا الشخص.

– أنت المحافظ؟

– من هذه اللحظة؟

– سوف آخذ القياس.

– أما أنا فسأقوم باتخاذ إجراءات.

اعتاد ألبيناس أن يتجول بزى المحافظ، ومسدسه فى جراب حزامه. لا يخفى عليه أنهم يراقبونه من الأبواب والنوافذ. وبدون أن ينتظر التعيين الرسمى يتوجه إلى مقر المحافظة ويأمرهم أن يسلموا أسلحتهم، وسط دهشة الوكلاء.

حين اعتذر ديوينيسيو ليعود أدراجه إلى المنزل، وانسحبت إيسابل لتنتهى من فروض عملها المدرسى، بقيت مارينا وزوجها بمفردهما فى الفناء الظليل.

– إنه لأمر جميل أن يقع ديوينيسيو فى حب إيسابل.

– هل تعتقد ذلك؟

– ماذا؟ ألا ترين أن عينيه تخرجان من محجريهما حين ينظر إليها؟ وأن وجهه يتضرج احمرارًا مثل حبة الطماطم حين توجه إليه الحديث؟ أما هى فلا حاجة لى أن أخبرك، هى تبذل مجهودًا حتى لا يُلاحظ عليها أى شىء.

– وإذا كان الأمر كذلك؟ كيف لاحظت أنت؟

– بنفس الطريقة التى كنت تتظاهرين بها أنت حين تتملكك الرغبة ناحيتى.

تتنهد : ومن يتذكر ذلك؟

– أنا أتذكر. إيسابل وديوينيسيو فى المرحلة نفسها، وهو ما سيحملانه دائمًا فى الذاكرة. أحيانًا ينسى البعض كيف انتهى الحب، ولكن بدايته لا تنمحى أبدًا.

– أتمنى أن يتحابا، سيشكلان نموذجًا يثير الإعجاب.

وبعد انقضاء أسبوعين زار رايموندو فلوريس صديقه وعرّابه السيد خاسينيو راميريث، والد إيسابل. وجده جالسًا فى فناء المنزل بجوار متجره الصغير، يحرك الهواء حوله لمقاومة الحر الشديد. يطلب من أحد أبنائه إحضار كرسى. يجلس رايموند ويسأل عن حال القرية أجابه السيد خاسينتو: هناك خبر ربما لم يصل إليك بعد..

– إن كنت تقصد ألبرتو ساليناس، فقد وصل إلينا الخبر ليلة أمس.

– كان يستعرض نفسه هنا بالزى الجديد الذى أمر بإعداده فى لمح البصر.

لم يصبر حتى يرسلوا له رسميًا من أسونثيون. من حسن الحظ أن ابنتى تعيش فى منزلك. لا شك أنك تعلم أن ساليناس...

– نعم، مثلما يعرف أهل القرية جميعهم.

– كان مجنونًا بها. وراهن أصدقاءه أنه سينال هدفه منها. إلا أنه تركها بعد ذلك حين أدرك أن الناس تسخر منه.

قال رايموند: لقد جئت خصيصًا لأحادثك بشأنها.

ودون أى مواربة يخبره أن ابن أخيه ديوينيسيو، الذى يعتبره مثل ابنه، يرغب فى الزواج منها وهى تبادله نفس الرغبة. يكف السيد خاسينيو عن التهوية، ويركز بصره صوب مكان بعيد، يستريح فى مقعده ويتنحنح.

– ما رأيك؟

– أضاف بعد برهة، بينما يفرك يديه ويلهو بإبهامه: أعتقد أنه أمر طيب. كنت بانتظار هذا الخبر، علمت أنه سيأتينى فى أى لحظة، لا أدرى لماذا خطر ببالى ديوينيسيو. إننى أوافق تمامًا يا رايموند، ومتأكد أن رأى والدتها سيكون مماثلاً. وأنا على يقين أن اختيار الفتاة هو الاختيار السليم، فهى تعرف ما تعمل ودائمًا تختار الطريق السليم.

– وأين سيعيشان؟

– فى منزل ديوينيسيو، ولكن فى بيت جديد لرابطة "باريتو" سنقوم بإنشائها. عددنا ثلاثة وخمسون شخصًا. أى مائة وستة نراع من البنائين والنجارين ورجال الحدادة، وهو كل ما يلزم. هذا ما اتفقنا على تنفيذه مع الرفقاء الذين يحتاجون العون.

– هل أستطيع المساعدة فى شىء ما؟

– سنعُلمك.

يحل شهر ديسمبر بالأزيز المنتظم لحشرات الحقل. كان العمل على قدم وساق فى كل منزل فى "باريريتو" لاستعدادات زفاف إيسابل وديوينيسيو. طلب السيد رامون

سيجوبيا أن يعقد الزفاف فى قاعة الإنشاد. إلا أن أبوى الفتاة فضلا الكنيسة. وتحدد موعد الإكليل الساعة الحادية عشرة صباحًا، بعد نصف ساعة من إتمام العقد المدنى فى المحكمة. سيذهب العروسان على حصانين برفقة الأصدقاء على أقدامهم أو فى عربات تجرها الخيول. وتتأكد والدة ديوينيسيو قبل الخروج من أن رومبى بالمنزل. اندهشت لرؤية الكلب غير مكترث لخروج سيده، ودون القيام بطقوسه المعتادة.

نظر إليها وكأنما يقول دون ضغينة: "لايهمنى أن يتركونى"، تأسست كنيسة "سانتا روسا دى ليما" فى القرن السابع عشر، على قمة ربوة شديدة الاخضرار. كانت واحدة من أصل ثمان قرى فى باراجواى، من الثلاثين التى أسسها اليسوعيون لنشر المسيحية بين السكان الأصليين. شُيدت الكنائس إلى جوار الميدان وبيت التبشير ومساكن الهنود، والمدافن وورش الفنون اليدوية. أما كنيسة سانتا روسا، فمثلها مثل الكنائس التبشيرية الأخرى بُنيت من الحجر دون أسمنت، وبعروق كبيرة من الخشب. وكان بها خمسة مذابح وتصويرات فنية. إلا أن العديد من هذه القطع الفنية قد فُقدت فى الحريق الذى اندلع فى القرن التاسع عشر. وتم إنقاذ صالة الإنشاد "سيدة لوريتو"، وهى نموذج الفخر الشعبى لهذه الفنون التى شيدت إلى جوار الكنيسة. وبعض هذه التصميمات تُعد الأفضل من نوعها على مستوى أمريكا اللاتينية فيما يخص مدرسة الباروك الفنية.

فى هذا المشهد تتحد حياة إيسابل وديوينيسيو إلى الأبد. وخلال الخطبة، امتدح الكاهن التعاونيات الزراعية المسيحية والدعم والتضامن لمن انضموا لها. وشدد على أهمية مشاعر الأخوة القادرة على إرساء مجتمع جديد، وأكد أن المجهودات الجماعية منذ القرن السابع عشر أدهشت العالم بأداء التبشيريين بها. وأنهى حديثه بعبارة "فليذهبا فى سلام" فهرع إليهما المهنئون والأصدقاء. بعد لحظات تجمدت والدة ديوينيسيو فى مكانها وقد جحظت عيناها، واعتمدت على كتف بنتها كيلا تسقط. لمحت رومبى يشق طريقه بين الحضور ليصل إلى ساق صديقه ويقوم باستعراضه المعتاد مع سيده ولكن فى الكنيسة هذه المرة، وفى هذه المناسبة وبين هؤلاء البشر مجتمعين. ولكنه توقف خلف سيده وعلى بُعد ظل على حاله إلى أن خرجوا. لمحوا شخصًا بين الجميع يطلب السماح بالمرور بين من

تحلقوا حول العروسين. كان الشخص هو المحافظ ألبينو ساليناس الذى جاء يقدم تهنئة مشيرًا بقبضة يديه، قائلاً : "أتيت من أجل رفيق طفولتى، إنه نموذج، وليس لدى سوى أن أحذو حذوه" . وأطلق ضحكة عالية أثناء خروجه. بعد ذلك بشهر، تزوج ألبينو من عشيقته خوليا روميو، محظيته القديمة.

سادت الأجواء موجة من البرودة لا تتفق وشهر مارس، يبذل ألبينو ساليناس مجهودًا لينهض من فراشه بعد دقائق من جلوسه على حافة الفراش. وبعد خروجه من الحمام يوقظ زوجته لتعد الماء الساخن اللازم لمشروب الماتى.

– قالت وهى تفرك عينيها: الوقت ما زال مبكرًا جدًا.

– إننى ذاهب إلى أسونثيون.

– الآن؟

– الآن.

يخرج إلى الفناء المضاء بمصباح خافت الضوء. ينهض الحارس من مقعده فور شعوره بحركة سيده. يأمره أن يفحص الماء والزيت بالسيارة. تأمل السماء الملبدة بالغيوم، فيما كان صوت الرعد يضرب من بعيد. ينطلق بالسيارة بعد أن وجه لزوجته بعض الأوامر الخاصة بالمنزل والتعهد بالعودة قبل أن يحل الظلام. يتوجه إلى قسم الشرطة، يصطحب معه أحد الضباط ليرافقه. ينطلق فى الطريق الممهد نحو العاصمة. كان الوقت ظلامًا، وحالة الجو تنذر بسقوط المطر. فى النهاية أشار إلى مقصده ...

– سأذهب إلى قسم التحقيقات. لابد أن أناقش مع الرئيس مسألة المنشورات التى ظهرت على باب الكنيسة، الأمر لم يدخل بعد فى حيز الخطر، ولكن لابد من التصرف بأداء يتسم بالسرعة والحماس، وإلا انتشرت فى القرية هذه القاذورات المناهضة للحكومة. فلن تكون فى المرحلة المقبلة مجرد منشورات وحسب. فوزير الداخلية لديه كل الحق.

أخذ يفكر فى هذه التحريضات، ظهر المنشور الأول منذ ثمانية أيام، والثانى بعده بيوم واحد. ويحتوى الاثنان على النص نفسه. يطالبون بالحرية من أجل المعتقلين السياسيين، ووضع نهاية للتعذيب، وللدكتاتورية.

– قال بصوت عال: الدكتاتورية!

– سأله الضابط بصوت مرتفع: سيدى؟

– لاشيء. هؤلاء الأشرار لا يعرفون ما هى الدكتاتورية، ولكن إن أصروا، فسيعرفونها عن حق.

يصل المحافظ بعد ثلاث ساعات من القيادة إلى مقر التحقيقات.

أعطى الضابط مبلغًا ليشترى إفطارا وينتظره بالسيارة.

وذهب إلى صالة الانتظار بعد أن أبلغ بوجوده. وكما جرت العادة، لا يعرف اللحظة التى سيتم فيها الاجتماع به. يتلهى بالنظر إلى صورة إستروسنر، وهو مرتدى الزى الرسمى. ويتخيل أنه يتأمله بالفعل من خلال اللوحة بعينيه الحادتين الخضراوين الصغيرتين، ويحدث نفسه قائلاً: "بهذه النظرة يتمكن زعيمنا من توجيه الأسئلة وتفسيرها وكشف أفكار الآخرين". ينفتح الباب ويظهر القائد وعلى وجهه علامات التعب والقلق. يمضى دون أن ينظر إليه، فيما يتبعه مدير الشئون السياسية. يعاود سالييناس الجلوس. يعلم أن الحديث مع القائد ليس بالأمر الهين، لكنه على أتم الاستعداد لانتظاره. التقرير الذى جلبه على قدر كبير من الأهمية، ويستحق النظر فيه مرة بعد مرة.

يعود القائد إلى مكتبه، يحاول أن يسرع خطاه غير أنه لايقدر، فقد زاد وزنه كثيرًا خلال الشهور الأخيرة.

– اسمحوا لـ سالييناس بالدخول!

– يجيب الضابط مهرولاً: حاضر يا سيدى!

– اجلس يا سالييناس، وأخبرنى ماذا يجرى فى سانتا روسا؟

– أعداء الحكومة فى ذروة النشاط. ظهرت منشورات معادية لزعيمنا مرتين متتاليتين، وفى نفس المكان، عند بوابة الكنيسة. الخطر ما زال فى طوره الأول ومن الممكن السيطرة عليه، ولكن الأمر بحاجة لأن يقوم خبير بتقييم مدى الخطر. أعتقد أن...

رنّ جرس الهاتف

– نعم سيدى القائد، تحت أمر سعادتك سيدى القائد.

يحاول ساليناس أن يتسمَّع ليدرك هوية من يحادث باستور كورونيل، أهو رئيس جهاز الشرطة أم رئيس الجمهورية نفسه؟

– أعتقد أن الأمور ستتضح لى بالكامل هذه الليلة. وسوف أعلمك على الفور بالتفاصيل. تحت أمرك سيدى القائد، يضع سماعة الهاتف وتبدو عليه علامات التفكير. يركز بصره على ساليناس، ولكن يبدو عليه أنه غارق فى أفكاره وقلقه.

– ليست صدفة أن تظهر المنشورات عند الكنيسة –تابع ساليناس: قساوسة الكنيسة يزداد اهتمامهم بالسياسة يومًا بعد يوم. وتزداد الاجتماعات حاليًا بحجة أسبوع الآلام المقدس. وهذه هى المنشورات. ثم يقدم لوحتين من الكارتون مكتوبًا عليهما بحبر أسود.

ودعه القائد قائلاً :– اذهب فى هدوء.

وبعد رحيله، أمر باستور كورونيل ضابط الشرطة كاميلو ألمادا موريل المعروف باسم سابريسا.

صادف ساليناس أثناء خروجه صديقًا قديمًا له يعمل فى قسم التحقيقات.

– هل استقبلك القائد؟

– نعم، ولكن فى عجلة...

– إننا نواجه قضية

– يقول ساليناس : حدثنى عنه.

– لا أستطيع، ولكنك ستعرف على كل حال، لأن منطقتك جزء منه.

– والسبب الرئيسى أن...

يصمت فى حين يخرج رئيس الشرطة من مكتبه مصحوبًا بضابط عسكرى. يعبر ساليناس الشارع ليصل إلى المكان الذى أوقف فيه سيارته التى علاها رذاذ المطر.

يحاول الفلاحون فى جميع اجتماعاتهم المنظمة أو الطارئة استشراف المستقبل ما بين الأمل واليأس. ما العمل مع التعاونيات الزراعية المسيحية التى شهد نشاطها خمولاً على مدار ثلاث عشرة سنة؟ ما بعد القمع والقهر وبعد أن تقلصت الأنشطة إلى أدنى حد، ثم قام قلة من الفلاحين باستدعاء النشاط مجددًا وبقوة. حتى إن ذلك العمل المحدود مراقب من قبل السلطات المحلية، وهى المراقبة بدورها من وزارة الداخلية عن طريق التقارير التى يعدها ويرسلها ألبينو ساليناس. هذا المحافظ الذى تقلد أعلى منصب إقليمى، مفوضية بعثات الحكومة. وتتساءل بالمثل النساء ما إذا كان سقوط الدكتاتور سوف يبعث نشاط التعاونيات الزراعية التى كرسن لها جهدًا عظيمًا بحماس كبير، بالرغم من تضاؤله فى بعض الأحيان حين ضيقت الحكومة الخناق على هذه المؤسسات. لم تستطع هؤلاء النسوة التصدى للممارسات الأمنية، وبالمثل القادة، ومرجعية ذلك تاريخ طويل من الذكورية. وفى كثير من الاجتماعات التى غلبت عليها الصرامة، كانت تتم مناقشة محاولات تثبيط الهمة وتقويض العلاقات. ويأتى على رأس ذلك غياب العمل الجماعى، واستغلال جهودهن، وإنكار أساليب تقسيم المهام، وعدم الاشتراك فى الأعمال التطوعية لشق طريق أو إصلاحه أو بنائه، وبالمثل الامتثال للدعوات المتكررة وتخفيف معاناة الآخرين. واعتادوا أيضًا فى الاجتماعات مناقشة بعض القضايا الخاصة. وأصبح من ضمن مهام التعاونيات الزراعية المسيحية مد يد المعاونة فى مشكلات الحياة الخاصة مثل إدمان الكحول ومشاكل الزواج.

كانوا يدعون إلى الاعتدال فى كل شىء، بما فى ذلك احتساء الخمر وممارسة العلاقات الجنسية، وأيضًا ترسيخ آداب المعاملة بين الزوجين وتجنب حوادث الضرب والشجار وما إلى غير ذلك من فضائح. ومن بين المسائل التى ناقشوها حالة أحد زعماء التعاونيات الذى هجر زوجته وذهب ليعيش فى العاصمة أسونثيون برفقة شابة عملت معهم فى المهام التقنية. وكان للحادثة أصداء فى اجتماعات أخرى لأن بطلها كان أبولونيو بايث، أحد الزعماء المحترمين والمشهود لهم بالقدرة على التنظيم والمثابرة والدراية بمشاكل الفلاحين، واعتادوا دعوته إلى النقابات ومراكز الطلاب المستقلين، فضلاً عن كونه أحد الوجوه دائمة الحضور فى الاجتماعات المحلية والقومية للتعاونيات. وكان يعيش فى باريريتو، وحضرت إحدى هذه الاجتماعات طالبة العلوم الاجتماعية سارة روداس، التى أنصتت باهتمام إلى

مهام وأهداف هذه التعاونيات والتى بدت لها امتدادًا للبعثات اليسوعية. وفور عودتها إلى منزلها طابقت الملحوظات التى سجلتها مع مثيلتها الموجودة فى كتب التاريخ. وندمت لأنها لم تطرح تساؤلاً فى الاجتماع عم إذا كانت التعاونيات الزراعية المسيحية تسعى إلى تأسيس فكرة "اليوتوبيا" التى نادى بها اليسوعيون منذ أربعة قرون لنشر روح التشارك فى الأرض ووسائل الإنتاج.

ووجدت الشابة فى حديث أبولونيو بايث أفكارا بعينها موجودة بالفعل فى نماذج تاريخية. وجال بخاطرها سوء الفهم والإساءات والتربص بالآخرين إلى جوار عقبات أخرى تضعها السلطات لتقوض المشروع وتدفنه. وقالت سارة لنفسها: "الآن، نجد اليسوعيين متورطين أيضًا". عثرت فى أحد كتب الباحثة مارجاريتا دوران[1] إستراجو نص المرسوم الملكى الصادر عام ١٥٨٢ الذى يوجهه ملك "ريودى لابلاتا" إلى الأسقف:

" لقد نما إلى علمنا أن الهنود الأصليين بهذا المكان اضمحل وجودهم بالكامل، بسبب سوء المعاملة التى يتلقونها من أسيادهم. وبانقراضهم إلى هذا الحد. ففى أماكن أخرى فُقد قرابة الثلث من عليها (...) تتم معاملتهم أسوأ من العبيد. يبيعهم ويشتريهم تجار وأسياد. فيموت بعضهم من ضرب السياط، وتلقى النساء حتفهن ويفقدن أجنتهن من ثقل الأحمال فوق ظهورهن. وتُسخر أخريات مع أبنائهن فى المزارع. يُتركن فى الحقول دون مأوى فتلدن هناك ويتربى أبناؤهن وسط الزواحف السامة تفتك بهم. بعضهم يشنق نفسه وآخرون يتركون أنفسهم جوعى حتى الموت، وآخرون يتناولون الأعشاب السامة، وأمهات تقتل أطفالها الرضع فور ولادتهم ويقلن إنهن أردن حمايتهم من الشقاء الذى يئنون تحت وطأته. وكره الهنود الرجل المسيحى ويعتبرون الإسبان مخادعين ولايقتنعون بما يعلمونهم إياه "

لهذا السبب تدعم سارة حركات مقاومة السكان الأصليين، بالسلم أو بالعنف ضد أعدائهم المتوحشين الذين قاموا بقمعهم. ربطت الشابة ما بين الماضى والحاضر عند استماعها لكلمات زعيم المزارعين أبولونيو بايث. أدركت أن عدوانية السلطات ليست إلا امتدادًا تاريخيًا تمت ممارسته ضد السكان الأصليين، الذين حاولوا دومًا التخلص من

---

(١) أستاذة جامعية وباحثة وكاتبة وناشطة من مواليد أسونثيون ١٩٤٤.

سيطرة أسيادهم فى مظهرهم الجديد، بخلاف مظهرهم المعتاد القديم، هم اليوم موظفون أو أعضاء فى الحزب الرسمى. ويؤكد كل ذلك الخبر الذى أذاعه أبولونيو بايث بشأن رجلى الدين اليسوعيين اللذين تم تشريدهما فى الأرجنتين، هكذا فكرت سارة فى العلاقة الوطيدة بين الماضى والحاضر، وقالت لنفسها : "فى كل الأحوال يجب أن أرى ذلك بنفسى".

وهكذا تُقرر السفر إلى سانتا روسا. تلتحق بحماس بالأنشطة الجماعية، وتنفذ المهام مثلها مثل جميع النساء هناك. فتساعد الأطفال فى المدارس من خلال دروس إضافية، تنضم إلى الجمعيات لتشارك فى صياغة وتعديل "المنشورات". وتم استدعاؤها مرتين من قبل المحافظ ساليناس ليحذرها من أنه سيتم طردها أو "ما هو أسوأ"، إذا واصلت صياغة هذه المنشورات التى "يظهر فيها أسلوبها"، والتى تسعى للحط من شأن الحكومة. وبعد ذلك بفترة غادرت باريريتو برفقة أبولونيو بايث.

اختفت صورة الطائرة من الشاشة، وتبع مشاهد الرحلة المتوجهة بالرئيس المخلوع إلى المنفى، فيلم وثائقى يعرض لـ الإنجازات الرئاسية فى مناسبات متعددة. ويظهر إلى جوار إستروسنر عدد من قيادات الدولة، إلا أنه يعاملهم بلا مبالاة متعمدة. نادرًا ما يوجه كلمة إلى أحدهم برغم أن الجميع فى انتظار إشارة منه. وفى أحد المشاهد يظهر ديوينيسيو روخاس بينما ينظر إلى باستور كورونيل وهو يتحدث باهتمام إلى رئيس الشرطة. فهو يعرف أن الوزير قد طلب اللجوء إلى سفارة هندوراس وتم إحكام القبض على آخرين من قبل السلطات.

أشار ديوينيسيو فى حديث إلى بعض جيرانه الشباب: لقد عرفت هؤلاء الأربعة، وأشد العقوبات بحقهم لن تكون كافية لشرورهم.

ويتذكر الاستعدادات لـ أسبوع الآلام. كان يوم الخميس يومًا حافلاً مثلما هو معتاد. بدأ اليوم بحمل الشجيرات والنخيل الصغير والفروع لإعداد الموضع الذى سيرتفع عليه تمثال المسيح المثبت على الصليب. شغلتهم هذه المهمة خلال النهار. وأعطت الرطوبة والحر علامة على تغيير حالة المناخ. وبانقضاء النهار كانت المهمة قد انتهت بمباركة الكاهن وبدت السماء صافية. دخل ديوينيسيو الكنيسة الباروكية ومنحه خادم الكنيسة نص "الكلمات السبعة" التى قرأها منذ عامين فى مراسم يوم الجمعة المقدس، التى تسبق محاكاة موت

السيد المسيح. واستغل الوقت ليراجع قراءة النص بمساعدة زوجته. وحين وصل إلى المنزل برفقة بعض "الرسل" الذين دعاهم وجد الجميع مشغولين بإعداد الوليمة المعتادة: الحساء البارجوائى، الدجاج ولحم الضأن، بدأ الاستعداد لإعدادها من اليوم السابق مثل طحن الذرة وتجهيز الحطب من أجل الفرن واستعارة بعض الأدوات من الجيران. رفضت إيسابل مساعدة زوجها فى إعداد ذبح الشاة. تتألم لرؤية الحيوان مستسلمًا يمد رأسه ليتم ذبحه فيما تترقرق فى عينيها الدموع.

وبعد العمل الشاق جلس الحضور وعددهم اثنا عشر شخصًا إلى المائدة يتناولون الطعام فى حماس ويناقشون الأنشطة المزمع القيام بها فى الأيام التالية. يلتزمون جميعًا الصمت فجأة حين يسمعون طرقات عنيفة على الباب. كان خوليان (وهو أحد أعضاء التعاونيات الزراعية)، هو من يطرق الباب، كان مدعوًا إلى المائدة، ولكنه أخبر الجميع أن المحافظ استدعى السيد رامون سيجوبيا للتحقيق. مرت ساعات طويلة دون أن يعود إلى المنزل، فقامت عائلته بمخاطبة قسم البوليس، لم يستقبلوهم بالداخل، ولكن أخبروهم بأنه بصدد الخروج. خرج ديوينيسيو روخاس ورايموندو فلوريس وزعماء آخرون من التعاونيات على عجل نحو القرية.

ظهر المحافظ فى مكتبه بعد انتظار مجموعة من المزارعين قرابة ساعة فى الصالة الخارجية. فمنذ اعتقال أحد زملائهم، تغلغل القلق فى بيوتهم جميعًا.

– قال ساليناس: ليس الأمر بذى أهمية سيعود إلى منزله بعد قليل. تُرهات.

– سأله ديوينيسيو دون أن يخفى نفاد صبره: أى نوع من الترهات؟

– لقد أخبرتكم، سيعود إلى منزله بعد قليل.

– حسنًا، سننتظره.

– لا داعى لذلك، يستطيع أن يصل بمفرده.

تتوقف سيارة شرطة أمام مقر المحافظ. يترجل منها أربعة أشخاص فى زى مدنى، يسارعون إلى المكتب. يتبعهم ساليناس ويطلب منهم أن يغادروا على الفور. غرق ساليناس

فى أفكاره خلال الطريق الطويل الذى قطعه من مكتب التحقيقات وحتى وصوله إلى سانتا روسا متذكرًا تحذيرات صديقه. إذا كان هناك ما يحدث فى المنطقة، فلا شك أنه مرتبط بالتقارير عن المنشورات التى وُجدت أمام الكنيسة. ولكنه يستبق الأحداث لضمان احتجاز أحد الأشخاص الموجودين على قائمة المشتبه بهم. هذا الشخص الذى أخبره أن الرجل سيعود إلى منزله بعد قليل - باستور كورونيل - أيقظ حماسه فى هذا الموقف على المستويين المهنى وأيضًا المواطنة. وإذا كان الشخص الذى تم اعتقاله ليس المرتكب الأساسى لتوزيع المنشورات فإنه على أقل تقدير سوف يقودهم إلى الفاعل المنفذ، وقال لنفسه: "الرفقاء يعرفون بعضهم البعض جيدًا، لا يوجد مثير شغب بصورة منفردة". هذه هى الفكرة التى سمعها عدة مرات فى دورات الإعداد التى حضرها كأمين عام والتى دعمت قناعته بأن الحكومة غير قادرة على أداء دورها ما دام وجد هؤلاء الذين يعرقلون خطاها. وجعل ألبينو ساليناس يفكر أن اعتقال رامون سيجوبيا "ليس مثلما يقول المعارضون" مجرد استغلال بل هو العدالة بعينها. فمنذ أكثر من عام واسم رامون سيجوبيا يتصدر سجلات المحافظة. بصفته "مناوئا للنظام". تسلم تقارير عديدة عن معارضته للحكومة، وسمعه بنفسه وهو يقول إن البلاد تعانى من صعوبات كثيرة وإن المزارعين يعيشون فى عزلة "بسبب الدكتاتورية". كما أن جمل المنشورات متشابهة وتتماثل مع التى ينطق بها. وفكر المحافظ أن وجود عناصر شرطة من قسم التحقيقات سوف يساعد فى كشف هوية من يصيغون المنشورات. وشعر برضا لإبلاغه باستور كورونيل بالأمر، وبرد الفعل السريع الذى اتخذه استجابة لمخاوفه. عُلقت على حائط حجرة المحافظ الضيقة صورة ضخمة للدكتاتور، وصور بحجم أصغر لوزير الداخلية، ورئيس التحقيقات، وعشرات الشهادات لحضور ما يسمونه "دورات رفع كفاءة الشرطة". يأمر السيد سابريسا رئيس جهاز التحقيقات بمجرد دخوله مكتبه ساليناس أن يدعو زعماء قطاع كولورادا لعقد اجتماع طارئ. من جانبه يرسل المحافظ اثنين من الضباط لتنفيذ المهمة، يتجول سابريسا فى مقر المحافظة، ويتألف من مكتب وحجرتين ينام بها العاملون وحجرة صغيرة هى الزنزانة.

- قال سابريسا: هذا المكان غير لائق. الأفضل أن ننتقل إلى سان خوان باوتيستا. يحدث ألبينو ألونسو نفسه: "غير ملائم لماذا؟"، من المنطقى أن يستدعى الزعماء الحزبيين،

لاشك أنه يريد إعلامهم بالإجراءات الواجب اتخاذها تجاه من يلصقون المنشورات، ولكن الانتقال إلى سان خوان باوتيستا فى العاصمة الإدارية لا معنى له "لماذا؟"، "هل هناك ما هو أهم من الرد على التقارير المرسلة؟"، "شىء ما لايعرفه ولا يخبره به الآخرون؟"، "لماذا، هل فقد الثقة؟" هذا الاحتمال الأخير يقلق للغاية. "ما الذى جرى؟ هل هى وشاية؟"، "ومن قادر أن يفعل ذلك"، فعلاقته طيبة بالرئيس وأبدى استعدادًا دائمًا للمساعدة. "وإن لم تكن وشاية، فلماذا يريد سابريسا أن يقصيه عن هذه المهمة بالغة الخطورة؟"، إلا أنه ليس بقادر على توجيه السؤال له. يراه فى الوقت نفسه: على جانب موفور من النشاط وتنفيذ الخطط، فهو دائم الحركة يقوم ويجلس ويفرض الأوامر ويراجع الأسماء فى أجندته. فى ذاك الوقت، فهم منوطون "بأعمال خاصة". ويدرك المحافظ فى تلك اللحظة أن ما أخبره به زميله بأن رئيس التحقيقات مشغول فى "قضية كبيرة"، لم يكن لذلك علاقة بتقريره عن المنشورات. يحادث سابيناس نفسه: "لابد أن الأمر بالغ الخطورة، ولذلك استدعى وجود هؤلاء الأشخاص الأربعة معًا"، هم الأكثر وحشية فى التعذيب، مخصصون للحالات التى يعتبرها باستور كورونيل "خاصة".

وبعد التأكد من أن المنشورات ليست السبب فى حضور عناصر مكتب التحقيقات العليا، أمر ألبيو سالبناس بإطلاق سراح المشتبه به. غادر جميع زعماء المزارعين إلى منازلهم بعد ذلك، فيما بقى عدة أفراد على رأسهم، ديوينيسيو روخاس، رامون سيجوبيا، رايموندو فلوريس وكان عليهم إنهاء مهمات فى الكنيسة بصفتهم "راعين" وفى الطريق سألوا رامون سيجوبيا عن سبب اعتقاله؟

فأجاب: لم يتم توجيه الاتهام لى على أنى المذنب، ولكنه حدثنى عن مجموعة منشورات.

وصلوا إلى الكنيسة حيث يجب عليهم تغطية الجمجمة بأوراق شجر الموز واللورى، كما مدوا بساطًا أبيض بنقوشات بنفسجية، وهو الذى يستخدمونه اليوم التالى ليحجب الشمس عن تمثال السيد المسيح على الصليب. أما داخل الكنيسة فقد توافد الزائرون أثناء تزيين الصليب. ومثلما هو معتاد فى أيام الآحاد والجمعة المقدس، ظلت الأجراس تدق بصوتها العميق، القوى البهيج. وستعاود الأجراس الرنين معلنة

حدث الميلاد السعيد للمسيح. ينهون عملهم باستثناء تفاصيل بسيطة فى الكنيسة ثم يعود "الراعون" إلى منازلهم.

يراجع ديوينيسيو خطبة "الكلمات السبع" وهو فى طريقه إلى المنزل. أثناء ذلك يحضر الكاهن بحثًا عنه ليتشاورر معه بشأن أمر ما بأسقفية سان خوان باوتيستا. يجلس فى سريره ويقرأ بصوت مرتفع : حبيبنا عيسى، من أجلنا تحملت عذابات الصلب، لتدفع بآلامك دين خطايانا، وتفتح ثغرك المقدس لتمنحنى المغفرة للعدالة الخالدة. امنح الغفران للمخلصين التائبين وامنحه لى فى الساعة الآخرة. وبفضل دمائك الغالية المنسكبة كن لنا الخلاص، امنحنا ألما يطهرنا ويطهر ذنوبنا واجعلنا نموت فى رحابة الرحمة".

– تسأله زوجته التى كانت تنصت إليه: ما الأخبار؟

– جيد جدًا، ولكن فى القراءة عليك احترام علامات الترقيم. لإنه إذا...

– نعم أعرف، سأكرر ما تقول.

وحينها تسمع صوت سيارة الكاهن من طراز فورد القديمة.

– سأواصل حين عودتى، لا أعتقد أننا سنتأخر.

ودع زوجته وجلس إلى جوار الكاهن فى سيارته. فى طريقهم مرا بمبنى المحافظة ورأيا مجموعة من الأشخاص وسيارة شرطة متوقفة، عرجا من طريق آخر ليقطعا مسافة ٤٠ كيلو مترًا حتى سان خوان باوتيستا. الأشخاص الذين شاهدوا الكاهن وديوينيسيو هم أنفسهم الذين استدعاهم ساربيسا، وبعد أن قال ألبينو ساليناس إن جميعهم كانوا حاضرين، جعلهم فى الفناء ينتظرون تحت ظل الأشجار. تحدث رئيس الشرطة إلى رجاله، فيما بدا بمثابة إلقاء التحية، وهو على دراية تامة بسلطانه..

– سأتحدث باختصار. نحن موجودون هنا بناء على أوامر من القيادة العليا لننفذ مهمة تتطلب التعاون من كل فرد منكم. لقد أعلمنى سيادة المحافظ ساليناس بالواجب الذى يجب تأديته هنا، هذا الواجب الشريف الذى جاء وقته الآن كأفضل ما يكون والذى سيثبت مدى ولائكم للحكومة الوطنية العليا.

واصل سابريسا حديثه بشأن الموضوعات التى كان يحفظها الحضور عن ظهر قلب : السلام المبارك الذى يمتد فى البلاد بأسرها. التقدم والرفاهية... انتقل ألبينوساليناس بخياله قليلاً بعيدًا عن الخطاب فى هذا المشهد الغريب الذى يحيا فيه. على مدار ساعتين وأكثر، ولم يفهم سبب وجوده فى هذا المكان. يشعر بداخله بالإهانة فيما يمس منصبه. يمثل السلطة الأعلى فى المحافظة، الأكثر هيبة واحترامًا، والكفاءة والإخلاص، وعلى الرغم من ذلك يتم تجاهل هذه الأمور فيتم إقصاؤه دون معرفة الســبب. ما هو الــسبب الذى جاء بسابريسا بنفسه إلى هنا؟ ألم يحن الوقت بعد لإطلاع المحافظ على الحقيقة، وهو بمثابة رب المنزل؟ وحين يستعيد يقظته يسمع سابريسا يوجه أوامر باسم باستور كورونيل أن يكون الجميع على أهبة الاستعداد من أجل نداء جديد. وأن يقوموا جميعًا باستدعاء جميع أعداء الحكومة. ثم يختتم سابريسا حديثه بالكلمات التالية: لا يجب أن يتفوه أحدكم بكلمة عما دار فى هذا الاجتماع. ولا حتى إلى زوجاتكم."

ويرد الجميع : تحت أمرك.

حتى إن السياسيين المحليين الستة المختارين من قبل ألبينو ساليناس بصفتهم الأكثر ولاء للدكتاتور خرجوا جميعًا من الاجتماع يتساءلون ما الأسرار التى يجب أن يحفظوها على هذا النحو المتشدد. لكنهم فضلوا عدم السؤال لأن جميعهم شعروا بالرهبة من رئيس التحقيقات. ولكن الجميع سيمتثل للأوامر حين تصدر إليهم من المحافظ أو أى سلطة عليا أخرى. وبينما يعودون إلى منازلهم أو أماكن عملهم منتظرين أن يخبرهم سابريسا أية معلومات، ذهب كل من راهب باروكيه سانتا روسا وديوينيسيو روخاس إلى الأسقفية. انتظر الأسقف برهةً لإجرائه لقاءً إذاعيًا، كان الهدف من الزيارة هو التأكيد، ذلك أنه تم الإعلان ولكن لم يتم التأكيد المباشر على الفاعليات المقرر إجراؤها، يوم الخميس أو الجمعة، إضافة إلى تبادل الأفكار بشأن الخطبة والمهام التى سيتولاها كلٌ منهم. بعد تبادل كلمات الترحيب فى المكتب طرح الأسقف ضرورة الحديث عن الموضوع الأكثر أهمية وهو العنف المتنامى تجاه تعاونيات المزارعين المسيحيين من قبل السلطات القومية والسياسيين الرسميين فى المنطقة.

أضاف ديوينيسيو: بعض الرفقاء يشعرون بالخوف. فالسيد المحافظ ساليناس يقول دون مواربة : إننا أعداء الحكومة. وتعلم سيدى الأسقف أن الأمر ليس كذلك!

– أعرف تمامًا. فأنا أحد المؤسسين، سأكون مبكرًا فى سانتا نيرينسا يوم الأحد. وسيكون عيد الفصح مناسبة طيبة لمناقشة الموضوع والمشكلات المحيطة به.

تبادلوا التحية بحرارة. وركب الكاهن وديوينيسيو السيارة مرة ثانية أطلقت صريرًا لحظة انطلاقها مثلما هو معتاد. وبينما يعبران الطريق لقيا فى طريقهما سيارة الشرطة فى سانتا روسا، وبها المحافظ ألبينو ساليناس. أوقف الكاهن السيارة، فتح غطاء السيارة ليكتشف سبب الصوت. ثم اتجه إلى السجن المحلى المعروف باسم "أبراهام كوى".

وبالوصول فيما بعد إلى الباروكيه، ينكّر الكاهن بعض الرجال "الرعاة" بينما يضعون اللمسات الأخيرة على الجمجمة بوجود عناصر من شرطة التحقيقات فى سانتا روسا وسان خوان باوتيستا فى الوقت الحالى، ويوجه بصره إلى ديوينيسيو. ويتابع الكاهن : القوات المنتشرة لا تدخر جهدًا فى توقيف أى شخص ذى صلة بالمنشورات.

– قاطعه رامون سيجوبيا معذرة يا أبى لا أعتقد أنهم سوف يقومون بشىء فى هذه الأيام للاحتفالات الدينية لأسبوع الآلام المقدسة.

– فليقدر الرب أن يكون الأمر على هذا النحو. ولكن يوجد بيننا فى الوقت الحالى رجال من الشرطة تحت إمرة المحافظ ساليناس على ما يبدو.

– قال أحد الرجال : حسنًا انتهينا من عملنا.

فى بعض اللحظات وأثناء استدعاء مشاهد تليفزيونية لحقبة الدكتاتورية وقمع تعاونيات المزارعين المسيحيين خلال أسبوع الآلام المقدس خلال عام ١٩٧٦. وديوينيسيو وإلى جواره خمسة من الرجال الضحايا الذين تشتعل مخيلتهم بنيران الذكرى. ينظرون إلى التليفزيون فيما عقولهم مذهولة فى مشاهد أخرى، يرغبون فى إبعادها عن خيالاتهم. تلتصق هذه الأخيلة فى ذاكراتهم بعنف، لا يخفف وطأتها سوى الأمل فى حقبة سياسية جديدة تفتح باب التفاؤل. يفتشون فى أسباب معاناتهم السابقة، ولا يجدون إجابة سوى فى إنجيل أمريكا اللاتينية الذى شرحه لهم الأساقفة.

وبوصول الجيران شيئًا فشيئًا، نقل ديوينيسيو التليفزيون تحت ظل شجرة فى الفناء حيث المقاعد والدكة الخشبية. يتبادلون الحديث وقت الإعلانات ويتنبأون بالأخبار. أما أعضاء الحكومة الجدد فهم تقريبًا نفس الأعضاء السابقين، لا يؤمنون بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية التى توفرها.

وبهبوط الغروب واشتداد الحرارة والرطوبة، طلب ديوينيسيو من أحدهم التوجه إلى الأسقف ودعوته إلى عشاء جماعى يشارك به الجميع.

– وإذا لم يأت. أعتقد سنأكل شيئًا ما معًا.

واستحسن الجميع الفكرة. ذهب أحد الجيران على دراجته البخارية إلى القرية، وفور انطلاقه سمع ديوينيسيو يصيح : إذا قبل الأسقف الحضور، فلندعو السيد رامون سيجوبيا.

– أنا أستطيع إحضاره.

– سيكون من الصعب أن يحضر مع الأسقف.

توجه الجميع إلى منازلهم ليحضر كل منهم شيئًا للعشاء. كانت هذه عادة يومية يقوم بها الناس، إلا أنها انقرضت مع اختفاء التعاونيات الزراعية وشكوك الشرطة. وبعد وقت قصير يعود الجميع ومع كل منهم شيء صغير.

نهضت زوجة ديوينيسيو وامرأتان أخريان لإعداد الطعام فيما التف الآخرون أمام التليفزيون. وبعد الأفلام الوثائقية يليها فيلم أمريكى، وإعلان عن برنامج يناقش حقبة الدكتاتورية.

يسأل أحد الأفراد الذين كانوا يدرسون بمدرسة التعاونيات الزراعية المسيحية : هل يعقل أن يكون هناك زراعة بدون مزارعين؟

– يجيب رب البيت : لا أفهم.

– هل من الممكن أن يكون هناك ديمقراطية دون مواطنين ديمقراطيين.

– آه.

– هذا هو ما تقصده.

قال آخر : أعتقد أن الأوضاع ستتحسن. على الأقل لأنها من غير الممكن أن تكون أسوأ مما هى عليه.

سأل المدرس : هل لاحظوا ما تقول؟ نسمع أن الديمقراطية موجودة الآن. ولكن هؤلاء الأشخاص أنفسهم أخبرونا قبلاً أننا نحيا فى ديمقراطية أثناء عهد إستروسنر. فماذا سيخبروننا الآن؟

– سنعرف عما قريب. هذا ما قاله ديوينيسيو قبل أن ينهض ليستقبل الأسقف الذى وصل بسيارته القديمة من طراز فورد، يتبعه الذين ذهبوا لدعوته. عمر الأسقف قرابة ستين عامًا، نحيف وطويل وبعينين ملونتين تشعان حيوية مع قسمات وجهه البشوش. هو شخصية محبوبة للغاية فى مجتمعه لحسن خصاله وتواضعه والمهام التى يقوم بها فى التعاونيات الزراعية والتى انضم إليها بحماس شديد. كان يتألق فى المؤتمرات والاجتماعات بآرائه المحددة واستعداده الدائم للحوار، ورأيه السديد وخصوصًا فى مواجهاته مع السلطات المحلية أو المركزية. وهو معروف باسم "بابا خوان"، أما الدكتاتور فأطلق عليه "الكاهن الأحمر". يحضر برفقة السيد رامون سيجوبيا الذى يساعده وهو ينزل من سيارته، بينما ديوينيسيو يساعده ليجلس على المقعد المتحرك.

– يقول الأسقف بمجرد جلوسه فى مقعده: أستطيع أن أتكهن لماذا دعوتمونى. هل تفكرون فى إحياء التعاونيات الزراعية؟

أجاب ديوينيسيو: لم نناقش ذلك، ولكن سيكون من الجيد مناقشة الأمر مجددًا. لقد كان الأمر مفيدًا للغاية للجميع.

– أضاف المدرس: أعتقد أن الأمر ما زال مبكرًا للحديث عن ذلك. إلى الآن لا نعرف أى نوع من الديمقراطية سنحظى به.

– أجاب الأسقف: سنحظى بنوع الديمقراطية الذى نرغب به. وبالأشخاص الذين اخترناهم.

– علق المدرس : إذا أتيحت لنا هذه الفرصة.

– فأضاف الأسقف : ولكن الفرصة فى أيدينا، فإذا ما شبكنا أيدينا معًا...

– أجاب أحد الجيران : لا أعرف، فبالرغم من كل ما فعله بنا ألبينوساليناس فلا يزال حرًا. لم يعد المحافظ لأنهم طردوه...

– ديوينيسيو : هناك شائعات بأنهم سيعتقلونه، وإن لم يحدث ذلك فلنا الحق فى مقاضاته.

– السلطة الجديدة ضده وضد كل من كانوا على شاكلته.

– سأل الرجل الذى ذهب لإحضار الأسقف : ولماذا تشعر بهذه الثقة نيافة الأسقف؟

– لأنهم هم من يجب عليهم دفع الثمن، وفقًا للعدالة يدفعون الثمن كاملاً. والآخرون الذين أعطوا الأوامر...

– على أى حال، فليس من العدل أن ساليناس...

– بلا أدنى شك، يجب أن يدفع ثمن الآلام التى تسبب بها.

– آلام ! يا لها من كلمة طيبة مقارنة بما حدث سيدى الأسقف.

– تحدث السيد رامون سيجوبيا بصعوبة وقال : اسمح لى سيدى الأسقف، لقد سمعت خطبتك عن مبادرة الشكر، جيدة جدًا، ولكن شيئًا ما لم يعجبنى.

– أى جزء هو سيد رامون.

– إنها عبارة موجودة فى الإنجيل ولكنها غير عادلة من وجهة نظرى، "اغفروا لهم، لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون" ، كان هذا ما قلته بعد تحدثى إلى من قاموا بأعمال التعذيب، هؤلاء كانوا يعرفون جيدًا ما يفعلون. مسألة أنهم لم يعرفوا ما الذى يفعلونه خطأ كبير، أو أن نياتهم لم تكن إلحاق الضرر، لذلك يجب مسامحتهم ! أن تعرف أنهم فعلوا كل ذلك بوعى كامل منهم، هل يبرر ذلك مسامحتهم؟ هل أستطيع أنا نفسى أن أسامحهم؟

– تدخل المدرس السابق : ليس أنت ولا غيرك.

– أجاب الأسقف : لديك الحق، ربما لم تتوافق هذه الإشارة من الإنجيل مع سياق الخطبة ومسألة رجال التعذيب.

فى الاجتماع يتذكرون جميع المشاهد المحببة، والمقبولة والعنيفة وجميعها على هامش أداء الحكومة : فى المجمعات الاستهلاكية وفى المناقشات التى تسمح لهم بالتعبير عن رأيهم، والقرارات التى يتم اتخاذها بشكل جماعى. ويذكر الأسقف فى هذه المناسبة معارضته حين قررت التعاونيات الزراعية التخلص من حماية الكنيسة. فذكر أن هذا التصرف اعتبر خطأ عظيمًا مثلما ثبت بعد ذلك. وبالمثل النيل من ممتلكات الكنيسة لإثبات استقلالية رأيهم. لم يتعلق الأمر بملكية الأراضى وحسب، بل بالتأثير الأخلاقى والسلطة الممنوحة من الحكومة والمجتمع المسيحى فى ذاك الوقت...

– المدرس السابق فى المدرسة : لقد كنت واحدًا ممن أيدوا الاستيلاء على أراضى الكنيسة. الفكرة استندت إلى إثبات رؤية الأساقفة والعمل على تحقيق العقيدة التى يدعو إليها رجال الدين بالفعل.

– تدخل الأسقف : ليس الأمر بذى شأن، مجرد أراض.

– واصل المدرس : اسمح لى، كانت أراضى مهجورة...

– لكنها حوالى مائتى هكتار.

– نعم سيدى الأسقف ولكنها بلا قيمة، الأمر لا يُقاس بمساحتها. أردنا أن تفهم الكنيسة والحكومة أن مُزارعا بلا أرض يملكها مثل جسد بلا ذراعين أو ساقين.

– تحدث ديوينيسيو روخاس : ومن ناحيتى فقد ناصرت الأقلية. إننى رجل أؤمن بدور الكنيسة واعتقدت أن احتلال أراضى الكنيسة سيسبب الكثير من المشاكل. وبالمثل كان بمثابة نكران جميل للأساقفة والكهنة الذين بذلوا جهدًا ودعمونا لنتمكن من تغيير مصيرنا. كان تصرفًا مناهضًا للكنيسة، ومنذ تلك اللحظة أسىء فهمنا تمامًا، وأعطى الجميع الحق للحكومة والكنيسة لأن الأمر بدا وكأن أهدافنا لم تكن مسيحية مثلما حسبوا أننا ندعى. وقالوا إننا رغبنا فى الاستيلاء على ثروات الكنيسة.

– أشار المدرس : أصر على رأيي، إن الهدف كان إعطاء السلطة للتعاونيات الزراعية، ذلك أن الدكتاتورية اعتبرتنا مجرد أدوات للكنيسة، يتحكم بنا القساوسة وأن مقاليد الأمور فى أيديهم. توجب علينا إفهام الدكتاتورية أن التعاونيات الزراعية بلغت من العمر مبلغًا وأنها قادرة على اتخاذ قراراتها بنفسها. وهناك ما هو أكثر من ذلك. علينا إقصاء الكنيسة عن كل ما نفعله أو نقوله. فبعد هذه القوة التى بلغناها عقب سنوات طويلة، زاد حماسنا لنطرح فى اجتماعاتنا المحلية والوطنية تعسف الدكتاتورية الذى لم يكتف بالسياسيين وحسب بل تخطاهم إلى الطلاب والعمال والفلاحين، إضافة إلى استفحال الفساد. من هذين الشرين تضخم إحساسنا كضحايا ولم نعد قادرين على الصمت أو السكوت مقيدى الأيدى. وشعرنا بالمسئولية أكثر من أى طرف آخر، لأن تفسير الواقع هو واجب علينا، ولنتمكن من ذلك تعلمنا حقوقنا الدستورية، وناقشناها كأفضل ما يكون فيما بيننا، وأجمعنا أننا لا نستحق هذه الحياة البائسة التى نحياها، فالدكتاتورية هى المسئولة عنها، لقد أساءت معاملتنا، ومنعت تقدمنا من الناحية الإنسانية.

قال ديوينيسيو روخاس : هذا صحيح، فمنذ إدراكنا لحقوقنا فهمنا الاستغلال الذى خضعنا له، وسعينا إلى نيل العدالة. ولكننا اليوم نشعر أن الأمور قد فلتت من بين أيدينا،

وذلك ليس لاختراق ملكيات الكنيسة وحسب، بل أيضًا للشراكة المشئومة بين بعض الرفاق مع منظمة "أول مارس"[1]، من هنا وجدت الدكتاتورية لتضربنا بقوة وتسحق بوحشية منظمتنا من خلال حوادث الاغتيال والاختفاء القسرى، والتعذيب والسجن للعديد من رفقائنا، وإلى الآن لم ننج من التعذيب والاعتقال.

أجاب المدرس : كان وضعًا مأساويًا، لأن منظمة أول مارس تم التعامل معها كعصابة، مثلما أكدت الدكتاتورية. كنت على قناعة وما زلت حتى الآن، أن الوسيلة الوحيدة فى ذاك الوقت للتخلص من الحكومة الاستبدادية هى استخدام نفس سلاح القوة المسلحة. تشكلت منظمة "أول مارس" بوعى طلاب الجامعات والفلاحين، إلا أننا كنا لا نزال بعيدين عن النيل من الدكتاتورية. لقد اجتاحونا فى أفضل أوقات تنظيمنا.

تساءل الأب خوان : هل كنتم تظنون أنكم ستسقطون الحكومة واضعين أيديكم فوق قلوبكم؟ أن تطيحوا بحكومة قوية كجبل راسخ؟

أجاب المدرس : أدركنا تمامًا عجزنا عن الإطاحة بها بسهولة. كنا على وعى بأن تحقيق ذلك يتطلب جهدًا لا ينقطع. وحين ساد القهر كنًا قريبين من تحقيق باكورة أهدافنا، وهو تكدير الدكتاتورية بسلسلة من الاحتجاجات المتواصلة فى جميع أنحاء البلاد. وانتظرنا أن يتم قمع هذه المبادرات بقبضة حديدية، وكان أن أدت ممارسات الدكتاتورية نحو "وجودنا الممثل فى المجتمع" إلى التعريف بنا فى الداخل والخارج. وحين ذاعت الأخبار بأن منظمة ما تعمل ضد الحكومة فى جبهات متعددة، ارتفع عدد مؤيدينا واكتسبنا تعاطفًا دوليًا. وتعرض كبرياء الدكتاتور الوحشى إلى الإهانة، وأصبح ممكنا إثارة غضبه.

– أضاف الشخص الذى أحضر الكاهن : ثم طالنا نحن الذلُ بعد ذلك، والعذاب الجسدى بأنواعه.

---

(١) يقصد بها الحركة السرية التى تأسست فى باراجواى فى السبعينيات ضد دكتاتورية الرئيس آلفريد و إستروسنر.

واستطرد : احتفل الآخرون بما فعلنا ولكن دون المشاركة الفعلية. لقد أبديت اعتراضًا على بعض الخطط، وكان مرجوعها واضحًا. أيدت الخروج من وقت لآخر للتظاهر، إلا أن فكرة تكوين جيش مسلح ضد الدكتاتورية بدت لى مبالغًا فيها. لم ألتحق بـ "منظمة أول مارس"، إلا أن الشرطة أدرجتنى ضمن أعضائها مثلما حدث لبعضكم.

– قال الكاهن : تعرفت الشرطة بعد ذلك على أعضاء "منظمة أول مارس"، ولكن القليل منهم كانوا أعضاء أيضًا فى تعاونيات المزارعين، وانتهزوا الفرصة لإجهاض مشروع عجزت الدكتاتورية عن تججيمه.

– أشار ديونيسيو روخاس : هذا ما أردت قوله قدمنا "رأس" التعاونيات الزراعية على طبق من ذهب.

– اعترض المدرس مجددًا: لا أتفق مع هذا الرأى. أعين السلطة كانت مصلتة على التعاونيات الزراعية، وذلك قبل أن تتشكل "منظمة أول مارس".

هل نسيتم اعتقالات زملائنا المتكررة وهجمات الجهات الرسمية على منظمتنا؟ كان ذلك قبل وقت طويل من تأسيس المنظمة، وتم تصنيفنا على أننا من الشيوعيين. وسواء كانت هناك منظمة أول مارس من عدمه، كانت التعاونيات الزراعية ستتعرض للقمع فى كل الأحوال.

– قال ديونيسيو : ولكن جميع رفقائنا كانوا من جامعى المحاصيل، وعمَّال المخازن، والكوادر الحزبية...

قاطعه المدرس : لقد خدعت نفسك، وما زلت تفعل ذلك. فخلف كل هؤلاء كانت تقف وزارة الداخلية، أى القوة القمعية للدكتاتورية.

أعلنت إيسابل زوجة ديونيسيو : الطعام جاهز.

كانت لا تزال تعد المائدة، إلا أنها أرادت أن تضع حدًا للمناقشة المتكررة التى غالبًا ما تنتهى بصراخ الجميع. وفيما يجلسون بأماكنهم اقترح رامون سيجوبيا على الكاهن إقامة صلاة فى اليوم التالى فى ذكرى أرواح "هؤلاء" الذين ضحوا بأنفسهم من أجل حلمنا جميعًا. وأظهر الجميع موافقتهم، وأيدهم الأب خوان.

لاحظ ديوينيسيو أن عدد المدعوين على مائدة الطعام اثنا عشر، وهو نفس العدد على مائدة الغداء يوم الخميس الحزين الذى بدأت فيه سلسلة متاعب رفاقه فى التعاونيات. وفيما يتحدث الجميع، غرق هو فى خيالاته يستجمع تذكر بعض الأحداث التى غيرت مصيره ومصير المنظمة، والتى تأسست على قواعد، اعتقدوا هم أنها متينة وراسخة.

وصل إلى الكنيسة ليلحق بالجميع بعد أن تأكد من قراءته السليمة لخطبة " الكلمات السبع"، ليلحق برفقائه الذين سيصفون معه تمثال السيد المسيح المصلوب وسط المذبح. وبينما ينشد الجميع الترانيم باللغتين الإسبانية والجورانية، برزت كلمات بدت من لغة أخرى. حدثت تغيرات فى حركة التراث الشفهى أفرغت بعض الكلمات من محتواها، لكنها ظلت على نفس التأثير الدينى الحماسى.

واصطف العديد من الأشخاص المنتمين لشركات متعددة أمام تمثال السيد المسيح المصلوب. شرعوا ينشدون أغانيهم التى قد تبدو غريبة على أذن كاهن كاثوليكى بسبب رتابة اللحن المتكرر. ويرصع المنشدون كل بيت وكل حرف بنطق عذب ينبض من قلب مسيحى مخلص. لذلك يتحملون التردد المستمر على الكنيسة يوميًا بهدف التدريب، أو فى ملحق الكنيسة أو حتى فى بيوتهم أمام تماثيلهم الدينية. يبدو المنشدون الرعاة فى صف إلى جوار الراعى الأكبر، ويجلسون فى مجموعتين من ستة أفراد على جانبى التمثال. يرتدون جميعًا بناطيل داكنة وقمصانا بيضاء، وقلنسوة على أكتافهم وتبدو وجوههم متجهمة. ويتجمع فى الميدان الصغير حشد ضخم أمام الكنيسة، يتأمل الجميع المشهد

من عربته أو جلوسًا على جذوع الأشجار الضخمة. وغطت أغلب النساء رؤوسهن بوشاح أسود أمسكن به تحت ذقونهن.

ظهر القسيس يتبعه خادمان مكرسان وسط الصفوف، يشير إلى ديونيسيو روخاس، يترك قلنسونه فوق مقعده ويسير إلى المذبح متبوعًا برياح سوداء مصحوبة بسحابة غبار. يفرد بوقار خبير الصفحات الخمسة ليلقى خطبته ثم يلقى نظرة على الجمهور قبل أن يبدأ موعظة "الكلمات السبع"، وبينما يقرأ فى الورقة الرابعة وتحديدًا عند عبارة :

"يا إلهى، يا إلهى، لماذا هجرتنى؟" يرى سيارة الشرطة تتوقف على جانب المبنى. وبنظرة سريعة يلمح سالييناس وبرفقته ثلاثة من الحرس يرتدون زيًا مدنيًا يدخلون إلى القاعة. وبانتهاء قراءة الصفحة الرابعة انطلقت الحافلة دون ركابها. شعر بساليناس يتطلع إليه دون أن ينظر إليه مباشرة. يشرع فى قراءة الصفحة الخامسة: "أشعر بالظمأ"، وانتباهه موزع ما بين النص وحركات ساليناس. ينظر إلى المحافظ بشكل متقطع، فى البداية شعر بالفضول ثم بالقلق والتوتر. لاحظ أنه وقف مع رجاله أمام تمثال السيد المسيح المصلوب، وأمام الكاهن ومن إلى جواره. وعند إلقائه للكلمة السادسة : "وتم الوفاء بكل شىء"، أخذ يُطيل فى نطق مقاطع الكلمات فيما ينظر بطرف عينه إلى حركات ساليناس ورفاقه. بدا له أن المحافظ يعطى إشارات ما صوب بعض الشماسين، وتحديدًا إلى رامون سيجوبيا ورايموندو فلوريس. وبدت قراءته للخطبة بلا نهاية.

يصل إلى الكلمة الأخيرة: "أبى، أستودع نفسى بين يديك"، ثم ينظر إلى المشهد فيفاجأ بغياب ساليناس ورجاله.

ذهبوا فى الشاحنة التى أقلتهم. وبانتهاء الخطبة، صعد الكاهن إلى المنبر ليواصل الشعائر. أخذ يشرح فى كلمات مؤثرة آلام ومعاناة السيد المسيح ووفاته، وحينها دقت الأجراس ثلاثة.

ارتفع صوت نحيب السيدات العجائز. وعلى العكس من المناسبات الماضية، بدت خطبة الكاهن أقصر كثيرًا مما كانت عليه فى السابق، وقام الشّماسون وحملوا التمثال

بكل خشوع ووضعوه فى النعش المزين بالزهور وقماش الدانتيل الأبيض. وأخذوا يتساءلون بنظرات مترددة لملاحظة وجود المحافظ ورجاله. تنتهى الشعائر حول الكنيسة بأغان ينشدها المتحلقون حولها، ويدعو الكاهن المنشدين إلى غرفة المقدسات، فيما يعود المؤمنون إلى ديارهم. وتغرب الشمس وتختفى أشعتها.

– قال الكاهن بعد أن تنفس بعمق: المحافظ ورجال الشرطة جعلونى أفكر فى قتلة المسيح. كان سلوكهم فظًا وبدوا وكأنهم يتحدوننا. لاشك أنهم يمهدون لشيء ما يخفى علينا.

– قاطعه رامون سيجوبيا : سيتكشف الأمر. على ما يبدو أنها حيلة جديدة للمحافظ. وليتعرف على من يقوم بتوزيع المنشورات.

– ديوينسيو روخاس : أعتقد أن الأمر أكبر من ذلك، فالمنشورات لن تقلق الحكومة إلى هذا الحد.

ودع أحدهم الآخر بعد انتهاء الاجتماع الطويل على وعد اللقاء فى اليوم الثانى للترتيب ليوم السبت المقدس. وجد ديوينيسيو زوجته بانتظاره عند باب المنزل. أخبرته وقد بدا عليها الانزعاج أن ألبينو ساليناس غادر المنزل. جذبته من ذراعه ولم تدع له فرصة ليداعب كلبه رومبى الذى انتظر التحية بعينين متشوقتين.

– أراد أن يعرف إن كنت هناك.

– ولكن لقد رأنى فى الكنيسة. هل كان بمفرده؟

– لا، كان بصحبته ثلاثة رجال.

سمعا صوت الباب الخارجى يفتح لحظة جلوسهما. أشارت إيسابل إلى ديوينيسيو ليلزم مكانه. تفتح الباب لتدخل العمة مارتينا على عجل تسأل متلهفة : أين رايموندو؟

أجاب ديونبسيو : لقد بقي فى منزل رامون. أخبرنى أنهما لن يتأخرا، هل هناك شيء ما؟

– سأل عنه ألبينو أحد رجال الشرطة ورجال آخرون.

– سألوا عنى أيضًا.

– تساءلت إيسابل بجزع : ما الذى يحدث؟

– أجابت مارتينا : سأعود إلى المنزل، فربما يقوم رايموندو بـ...

– قال لـ يونيسيو مستعدًا للخروج : سأصحبك.

– قالت إيسابل بتصميم : سوف أحضر معكما. وقف رومبى ينظر إليهم جميعًا. ثم سار ملتصقًا بساق صاحبه. لم يشرع فى اللهو مثلما اعتاد، يستشعر رياحًا سوداء تقترب من المنزل.

كما هو معتادًا فى أسبوع الآلام، خصصت جريدة "باتريا". الحكومية العناوين الرئيسية للإيمان المسيحى العميق الذى يدفع ويدعم أداء الجنرال ألفريدو إستروسنر. كما نشرت العديد من الأخبار عن الأعمال التخريبية من قبل المعارضة. وتندد الصحيفة – على غير عادتها فى أيام الخميس المقدس – وبلغة حادة تدين من يهدفون لعرقلة السلام والأمن بالبلاد وتتسم هذه القطاعات بـ " الابتعاد عن اللعبة الديمقراطية". واصل الجنرال تعليقاته فى الصحيفة مشيرًا : "ليست هذه دولة بوليسية، أو حكم طاغية، أو دكتاتورية، بل هى دولة قانون، فحين يُقال إن القانون هو ما يحكم، فهو أقصى ما يمكن أن يُقال لنظام ديمقراطى. الجميع يخضعون لسلطة القانون، ومن يتهرب تقع عليه عقوبة أكيدة. كان هذا هو فحوى رسالة الرئيس إستروسنر حين أكد على ما يلى :

"لن يتخاذل حزمنا الأمنى فى التصدى للأفكار الأجنبية، وهو نفس الحزم الذى يحمى حقوق الإنسان ". وختمت الصحيفة المقال بالفقرة الأخيرة : " أما مواطنو باراجواى المتورطون فى أعمال التمرد الدنيئة والتخريب الذى يتسببون فيه، فهم

يمثلون الشريحة الأكثر انحطاطًا التى قد يمثلها شخص ما ومن يلتفون حوله". ويوجه مديحًا فى الصفحة نفسها إلى رئيس جهاز التحقيقات فى شرطة العاصمة، المدعو باستور كورونيل، لجهوده الحثيثة لكى يستقر الأمن والنظام، والمتمثلة فى تطبيق القانون بحزم بحق أعداء الوطن. اختتم الحديث بالكلمات التالية : "ما دامت كانت هناك مراقبة الرئيس الدقيقة لكل شيء، فلن يسمح بمجرد هفوة قادرة على زعزعة السلام وخرق حقوق الإنسان. شعب باراجوى قادر هذا العام، مثل الأعوام السابقة والقادمة، على التعبير عن إيمانه العميق فى التقاليد الدينية المعتادة فى أسبوع الآلام".

من ناحية أخرى نشرت مقالة أخرى فى جريدة "باتريا" لأحد أبرز المحللين السياسيين يكرر فيها انتقاده للمعارضة التى تدعو لأعمال التخريب وتجنيد العمال والطلبة والفلاحين فى المشروع الإجرامى المناهض للسلام. ووجه مديحه هذه المرة إلى رئيس المخابرات العسكرية الكولونيل رامون جوانيس وبالمثل إلى باستور كورونيل. واستشهد بعبارة لأحد الطلاب يقول فيها "نحن جيل السلام"، كما دعا شباب الجامعات للدفاع عن السلام إذا واجهت البلاد خطرًا.

وفهم المحللون السياسيون فى هذه المقالات الإشارات الدالة على تدخل وشيك من قبل الشرطة والقوات المسلحة إذا ما ظهر ما يثير القلق حتى هذه اللحظة، ولكن لم يكن هناك أى شك فى أن الأجهزة القمعية كانت على أهبة الاستعداد للبدء فى الأداء. لم تتنبأ الصحافة بـ مؤامرات حتى اللحظة. غير أنه فيما بعد تم الانتهاء من التعليمات السرية التى يُبلغ بها من قسم التحقيقات لتهيئة الرأى العام لتقبل المزيد من إجراءات الأمن المشددة ودحض الاحتجاجات التى تطلقها المعارضة وبمعاونة من الخارج.

وصل رايموندو إلى المنزل ومعه أحدث الأخبار، بأن بعض أعضاء التعاونيات تم القبض عليهم لحيازتهم سلاح.

– تحدث رايموندو محاولاً أن يُكسب الواقع مسحة درامية: ليست هذه المرة الأولى.

– أجابت إيسابل : هيا بنا ثم جذبت زوجها من ذراعه. واقترب رومبى ليلتصق بساق سيده. أغلق ديوينيسيو الباب بقفل حديدى. ليتأكد من إحكام غلقه، ثم وضع الفرش الذى يرقد عليه الكلب فى الممر. وجد العشاء مجهزًا ولكن بحالته لم يقترب منه أحد. جلسوا فى الصالة الصغيرة بآذان صاغية وعيونهم مصوبة على الباب فى انتظار أى حركة.

غابت الشمس وأصبح بالإمكان رؤية بصيص النجوم فى السماء. يتبادلون النظرات كلما سُمع صوت بالخارج لأى خطوات أو ضجيج. وفجأة ينطلق فى الصمت صوت طلقات رصاص. أعتقد ديوينيسيو أنها بندقية. قفزت إيسابل وأغلقت النافذة. سمعوا صوت سيارة مسرعة. بدأ الكلب فى النباح كعادته حين يلمح شخصًا غريبًا يقترب من المنزل. ظهر وسط النباح صوت ينادى ديوينيسيو عند الباب. أشارت إليه إيسابل بإيماءة كيلا يجيب. ارتفع الصياح إزاء عدم الرد. ثم اقتحم خمسة رجال البوابة وأوشكوا أن يفعلوا نفس الشىء بباب المسكن إلا أن ديوينيسيو خرج ووجد قبالته ألبينو ساليناس، وأحد رؤساء الشرطة وثلاثة رجال فى زى مدنى، من الإدارة المحلية. ارتمى أحدهم فوق ديوينيسيو وأسقطه على الأرض بكعب مسدسه. هاجم رومبى الرجل فى نفس اللحظة التى أخرج فيها ساليناس مسدسه وصوبه ناحية الكلب.

– صاح ديوينيسيو وهو منبطح على الأرض : اقتلنى أنا إلا أن رصاصة المحافظ أسقطت الحيوان قتيلاً !

يقع سجن "سان خوان باوتيستا" فى منطقة كانت ملكًا لعائلة من أصل سورى لقبها "عبد الرحمن". وكانت محط طمع من الدكتاتورية دائمًا فأبعادها مائة متر مربع وقريبة من المدينة.

واضطر أصحابها إلى مغادرتها بعد أن طردوا منها عنوة بحجة قانون "المصلحة العامة"، كما أنهم لم يتلقوا التعويض الذى نص عليه القانون. حاولوا فى البداية مقاضاة الحكومة، إلا أنهم أحجموا بعد التهديدات المتكررة التى تلقوها من القضاة أنفسهم. وكانوا قد خسروا أملاكهم بالفعل ولم يرغبوا فى فقد حريتهم أيضًا. إلا أن أهل القرية ثأروا لهم بالفعل بأن ظلوا يطلقون اسم العائلة الأصلى على المكان "أبراهام كوى".

واليوم هو يوم الجمعة المقدسة، اقترب حلول الليل، وطافت بالمدينة رياح نارية، بينما يعود المؤمنون إلى منازلهم بالغى التأثر بصلب السيد المسيح، ووشاية يهوذا وألم العذراء، وخطبة الكلمات السبع، ألفاظ القسيس الملتهبة والترانيم وأشجانها. تجمع أهالى "أبراهام كوى" حول منازلهم متأثرين بحركة السيارات والأشخاص الذين يدخلون إلى مقر الحكومة أو يخرجون منها.

وفجأة اتضحت الرؤية بمشاهدة حافلات تنقل رجالاً ونساءً مكبلى الأيدى تحت مراقبة حرس مدنى مسلح. وظهر على وجوده ورؤوس بعض المعتقلين آثار ضربات واضحة.

هرع الجيران مسرعين حتى يدخلوا منازلهم ويغلقوها على أنفسهم. ولاحظ بعضهم وجود العديد من رجال التعاونيات الزراعية الذين كانوا فى احتفالية الكنيسة يؤدون دور "المنشدين". تحدث أهل البيت المجاور لمقر الحكومة بصوت خفيض خشية أن يسمعهم شخص ما، متذكرين أنه منذ عدة أسابيع تم القبض على بعض الأشخاص المنتمين إلى التعاونيات الزراعية، دون أى تهمة محددة، غير تلك "تهمة التخريب". بينما أحد أعضاء لجنة "المبشرين" يتحرك قلقًا فى منزله، دون أية رغبة فى الطعام أو الحديث، بينما يتطلع إلى بوابة المنزل دون أن يحول بصره عنها. ينتظر حضورهم ليعتقلوه، ولكنه ينطق فجأة ويخبر أبناءه وزوجته أنه ليس بأبله لكى ينتظر اعتقالهم له وهو مكتوف اليدين، وأن بإمكانه الهروب عبر فناء المنزل.

أجابه أحد أبنائه : ستكون فكرة سيئة لأن عناصر المراقبة انتشرت فى المكان بأكمله وسيكونون قادرين على الإمساك بك. وفى منزل آخر ركع أهله أمام تمثال السيدة مريم. فأحد أبنائهم من قادة التعاونيات الزراعية لم يعد إلى منزله منذ أن صرَّح فى الكنيسة بأنه سيواصل الطريق. لا أحد يعرف ما الذى يحدث بالخارج، فقط صوت السيارات وأصوات تصدر الأوامر أو توجه الاتهامات فى صراخ متوالٍ. فيلمحون السيارات فى حركة دائمة.

– تحدث ابن الرجل الذى راودته فكرة الهرب: يبدو أنهم أحضروا الجميع.

ينظر إلى الشارع ويتحدث بصوت منخفض مشيرًا أن الأمور قد هدأت، يواصل حديثه : والآن خرج مجندان مسلحان فى زى مدنى من مقر الحكومة.

– قال الأب : يعرف أننى من التعاونيات الزراعية، على الأرجح سيأتى أحدهم بحثًا عنى.

– الابن : لا، لقد ابتعدوا.

ساد المنزل الخوف والظلام والصمت. بالمثل الصمت المطبق فى الشوارع.

بالرغم من ذلك فإن جميع الجيران يتوقعون بحدسهم عقوبات وحشية خلف الأسوار. توقف الصخب الذى ساد المكان منذ دقائق. سُمع صوت صفير الرياح يصطك بالأبواب والنوافذ، فيما يبعث السكون فى نفوس أهل المكان توجسًا مرتعدًا.

لايعرفون مبعثه على وجه التحديد، ولكنهم يدركون أن هناك شيئًا ما. يجذعون من الهدوء بالخارج، فينقطع تنفسهم المتهدج وهمساتهم الخفيضة فى مخادعهم أو المطابخ.

يستنتجون أن هجمات الشرطة موجهة إلى التعاونيات الزراعية، بناء على الأشخاص المعتقلين. يتذكرون أن هذه الأوضاع المشددة واستخدام القوة المفرطة لم تحدث فى مناسبات سابقة. والآن هم على يقين أن وجود الشرطة فى الكنيسة امتد إلى أماكن أخرى، ومنها سان خوان باوتيستا وبقية أماكن التبشير، وصل القمع منتهاه. شعروا بالقلق أن يكون الأسقف والكاهن قد تم اعتقالهما، فمنذ وقت طويل لم يسلم خادمو الرب من الاضطهاد.

اخترق صمت هذه التكهنات صراخ حاد يعكس ألمًا مبرحًا ممتدًا. فكر بعضهم فى الفرار من المكان تجنبًا لسماع آلام أحد أفراد عائلته أو أصدقائه أو جيرانه. قالت أم "حتى وإن كان غريبًا" ، همست بصوت خفيض وخيالها مع ابنها الذى لم يصل بعد. تخيل الأهالى أن أصوات الصراخ توقفت قبل منتصف الليل. رغم ذلك لم يتحمسوا للنهوض وإيقاد الضوء والنظر إلى الساعة.

وبعد صمت طويل، سمعوا صوت عربة البوليس تخرج مسرعة من مقرها الحكومى تعج بالرجال والنساء. ينصتون تحسبًا لمرور أخرى تتبعها، غير أن الوقت يمر دون جديد حتى بزوغ الفجر، ولا يعرف الأهالى تفاصيل ما حدث. فى تلك الأثناء يتبادلون الحديث بشأن الكابوس الذى مروا به، فيناقشون تفاصيله وإمكانية أن يقع مجددًا. أشرق الصباح وتواصل النشاط اليومى كعادته، بل ربما أكثر شىء ما، إذ تحلقت مجموعات صغيرة من الأفراد أمام مقر الشرطة. بدا أنهم بانتظار من يلتفت إليهم، ارتفع صوت من إحدى النوافذ المفتوحة فتحة صغيرة : "يبدو أنهم أقارب هؤلاء الذين بالأمس..."، ولم يتم جملته خوفًا من الوقوع فى محنة. وخرج آخرون من بيوتهم بعد نفاد صبر واختلطوا بالواقفين من الرجال والنساء فامتلأت بهم الساحة أمام المبنى، رغبة فى الوقوف على التفاصيل. أرادوا أن يعرفوا مصير هؤلاء الذين اعتقلوا بوحشية من منازلهم فى أماكن متفرقة من مقاطعة "ميسونيس"، وانطلقت الشائعات بين الجماهير تشير إلى ذبح أحد قيادات التعاونيات الزراعية المعروفين، فيما أطلق الرصاص على آخرين، كما تمت مداهمة المنازل من قبل رجال شرطة ومسلحين ومعهم مدنيون، وأن نساء المعتقلين وبناتهم تعرضن للاغتصاب، فيما قام بعضهم بسرقة الأغراض الثمينة وحسب.

زاد عدد المحتشدين بالساحة شيئًا فشيئًا، قادمين من قرى مجاورة تعرضت لمداهمات الشرطة أو الفرق العسكرية، بحثًا عن أخبار لذويهم، حيث ذكروا لهم أنهم ربما يكونوا فى "سان خوان باوتيستا". فى الوقت نفسه لا يتمكنون من الظفر بإجابة، فالرد الوحيد الذى ينطقه الحراس هو : لا نعرف. يعاودون السؤال مجددًا، فيهددهم هؤلاء بالسلاح. تجاوزت الساعة الثامنة صباحًا، والمقر لا يزال مغلقًا رغم أنه يفتح أبوابه فى تمام السابعة حتى فى أيام السبت. أقبلت عربة من عربات الجيش نزل منها خمسون جنديًا أجبروا الأهالى على الابتعاد والوقوف على مسافة مائة متر من المبنى. اقترح أحدهم تنظيم مسيرة إلى مقر الكنيسة لحثها على التدخل. وافق البعض، وأصر آخرون على البقاء فى أماكنهم انتظارًا – مثلما أفادوا – لأية معلومات تصل إليهم فى أى لحظة.

فى نفس الوقت توجهت جماعات إلى مقر الكنيسة، فيما يحيط بهم عناصر من الجنود والشرطة المدنية المسلحين جميعهم. اجتمع فى ذلك الوقت رجال الدين من الإبراشيات المختلفة فى مقر الكنيسة ليتباحثوا فى الأمر. واقترح البعض "إصدار بيان" يدعم

"المخلصين" فيكون أحد القرارات وتتم قراءته فى جميع الإبراشيات فى "ميسونيس". وانقسم الأساقفة بشأن مسودة البيان. البعض يؤيد إصدار بيان يدين تجاوزات السلطة، فيما رجح آخرون الانتظار إلى حين الوقوف على بيانات دقيقة، فالسلطات تشيع أن لديها معلومات أكيدة عن ضلوع قيادات التعاونيات الزراعية فى أعمال تخريبية، وأنهم على علاقة وحيدة بحلفاء لهم فى منظمة مسلحة أنشئت حديثًا فى العاصمة. قال أحدهم : "فى هذه الحالة نستطيع إلزام الكنيسة". فيقول آخر : "الكنيسة ملتزمة فى كل حال". أجاب آخرون : نعم، ولكن الالتزام بتعاليم المسيح، الحب والسلام. "ولا يوجد أى حب أو سلام فى تعقب واعتقال الأبرياء" صاح صوت من الحضور. ساد الاجتماع الفوضى لرغبة كل فصيل فى فرض وجهة نظره. من جانبه أصدر الأسقف إشارة بيده ليهدأ الجميع، بعد أن التزم الصمت ليسمع الجميع. توجه إلى الكهنة يطلب منهم الهدوء والتصالح، مؤيدًا آراء الجميع، وأكد أن الكنيسة لا يجب أن تظل ساكنة إزاء الأحداث التى تستدعى اتخاذ إجراءات فعلية. أشار إلى إمكانية تحسين المسودة، بحذف الاتهامات المباشرة ضد السلطات، على الأقل لحين التوصل إلى وثائق والاستماع إلى الشهود.

صاح أحد الرهبان : ها هم الشهود حاضرون، وذلك حين لمح المتظاهرين مقبلين نحوهم. وبعد اجتماع الأسقف بهم وسماعهم قرر لقاء مسئول الحكومة للتحقق من مصير المعتقلين. صعد الأسقف إلى السيارة بصحبة سكرتيره ووصل إلى المقر بعد ربع ساعة. بوصوله عند الباب الرئيسى - الذى ظل مغلقًا - استوقفه شرطيان بزيهما الرسمى، ومنعاه من الدخول. أخبراه قبل أن يبدأ الحديث أن رئيس المكان غير موجود فى مكتبه.

كذب الأسقف وقال : ولكن سيادته طلبنى لأقابله بمكتبه الآن.

- أجاب أحدهما : لا شك فى ذلك، ولكنه الآن فى مكان آخر.

- هل لك أن تخبرنى أين أجده؟

- لا أعرف.

- هل يستطيع أحد أن يخبرنى عن... ؟

- لا، فقط سيادته.

لم يلق الأسقف التحية، وغادر إلى العربة وبها السكرتير بانتظاره. استوقفه أشخاص على بعد بنايتين، وما لبث أن تحلّق حوله كثيرون يشتكون رجال البوليس والمدنيين الذين اعتدوا بعنف على أعضاء التعاونيات الزراعية.

واحتفاءً بذكرى ديونيسيو روخاس، أصبح بمفرده مع زوجته بعد العشاء، استدعيا مشاهد ليلة الجمعة المقدسة، وفجر السبت، وما تبع ذلك فى الأيام والشهور التالية.

يتذكر أنه حين أقبل أبراهام كوى مع المعتقلين الآخرين، شاهد رفقاء كثيرين ملقين على الأرض وملابسهم ممزقة. كان يتم اعتقال الكثيرين أكثر من مرة، لكنها المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك. يأمرهم رجل بزى مدنى أن يصطفوا فى صف واحد وينظروا إلى الأمام. يستمعون إلى صرخات الألم الصادرة عن القبو الموجود فى رواق شُيد فى إحدى النواحى وتقريبًا على بعد ٥٠ مترًا من المبنى الرئيسى، وتتخلل الفناء الضوء المنعكس من جهة السور المحيط، وهو ما يكفى لكى يحسب ديونيسيو أن هناك قرابة خمسة وأربعين إلى خمسين شخصًا فى الصف، يرتعشون من الخوف مثله. تمكن من الوقوف خلف رامون سيجوبيا "كطريقة ما لأحمى نفسى وأحميه".

جاهد رامون سيجوبيا – الشيخ المريض – ليبدو أكثر صلابة وتماسكًا أمام رفقائه، فهو الذى ضمهم للتعاونيات الزراعية ورسَّخ وجودهم بها. بالرغم من ذلك، إذا دقق أحدهم البصر يلمح خلف قناع القوة الذى يرسمه على وجهه شحوبًا يبرهن على الرعب الذى يشعر به. فمنذ عامين وقف الموقف نفسه وكان بين يدى "سابريسا"، الموجود الآن أمام رجال شرطة لهم نفس الطبيعة.

الطابور المتوجه إلى القبو ينتهى بـ ديونيسيو روخاس، ورامون سيجوبيا، وخلف ظهورهم أشخاص جدد. يجهلون المنفذ الذى دخل منه الآخرون، ولكنهم يتنبأون بالمكان بناءً على تأوهات الألم الصادرة من ناحية الرواق.

وقف عند مدخل القبو شرطيان إلى جوار طاولة مطبخ، يسجلان فى دفتر البيانات الشخصية لمن يدخلون. يظهرون بمظهر من لا يعرفون أحدًا، برغم أن الشخص قد يكون صديقًا أو من العائلة. بقاء كل من ديونيسيو روخاس ورامون سيجوبيا أمام الباب المفضى إلى القبو بمثابة نهاية لانتظار كئيب وقاس يطول بطول وجودهما.

قال رامون لصديقه : "تنفس بعمق" بينما يتلقيان الأمر بالمضى قُدمًا. لا يترددان فى تنفيذ الأمر، إلا أن ساقيهما تخونهما. مرَّ رامون سيجوبيا بتجربة التعذيب، أما ديوينيسيو روخاس فلم يتعرض لها قبلاً. يعرف الأول الأهوال التى تنتظره، إذا كانت هى نفسها ما تعرض له قبلاً. بالمثل يتعذب ديوينيسيو روخاس من خيالاته بشأن التعذيب الوحشى خلال التحقيق. تم اعتقاله وبقى فى الزنزانة عدة أيام تخللتها أعمال شاقة فى فناء المقر. وقفا أمام الطاولة لتسجيل البيانات التى سيقع أصحابها تحت تعذيب مهول. وحين ينطق رامون سيجوبيا باسمه ومن بعده ديوينيسيو روخاس، يقارن الشرطى الواقف الأسماء مع تلك الموجودة بالقائمة فى يده. يستمعان إليه يشير إليهما فيما يملأهما الرعب "هنا"، حيث مجموعة أخرى من المعتقلين. نظر كل منهما إلى الآخر بتشكك وأمل فى نفس الوقت، فيما يستمعان إلى أصوات الصراخ صادرة من القبو. يتم دفعهما نحو بوابة دخول وخروج السيارات. حيث سيارة الشرطة التى ألقيا بها وهما مقيدان بحضور المحافظ ألبينو ساليناس. وفتحت البوابة مرة أخرى لتتوجه الشاحنة نحو الطريق متجهة إلى العاصمة. وفى الصباح الباكر، مثل كلاهما فى قسم التحقيقات ولمحا رئيس الاستخبارات العسكرية الجنرال "جوانيس"، تم ضمهما إلى مجموعة كبيرة من الذكور والإناث صعدوا جميعًا إلى سيارة نقل. واجهوا أحد رجال الشرطة مجددًا ليسجل بياناتهم الشخصية، ثم تم إجبارهم على توقيع ورقة بيضاء. وبانتهاء الإجراء الأخير تم دفعهم إلى الفناء دفعًا غليظًا وبالهراوات. أُصيب رامون سيجوبيا بالهلع حين استيقظ واصطدم بـ "بيلوتو" وهيئته الصلبة. استمعوا إلى أصداء جرس الكاتدرائية مرات ثلاث، وتختلط بدورها أصوات موسيقى مرتفعة لم يدرك رامون سيجوبيا سببها ومصدرها. تدق الساعة الثالثة والنصف، فيعود "بيلوتو" متجهم الوجه يأمرهم بالدخول إلى زنزانة تكتظ بالمساجين ومُعتمة.

حيث اعتادت عيونهم الظلام تعرف بعضهم إلى بعض، فهم رفقاء التعاونيات الزراعية من مناطق أخرى، بيريبوى وكاجواثو، وألتوبارانا، وسان بدرو. يتسمعون لصوت منخفض كأنه صادر من الأرض. صوت أحدهم الذى أخبرهم أنه خرج لتوه من غرفة التعذيب. صاحب الصوت استلقى عند أقدام رامون سيجوبيا وديوينيسيو روخاس، فأفسحا له مكانًا وجعلا يتفقدان إذا ما كان يحتضر. مدَّ رامون سيجوبيا ذراعه ليسند صاحب الصوت رأسه عليه فيتمكن من التنفس بشكل أفضل. حكى لهما أنه يدرس فى "لابلاتا" وأنهم اعتقلوه فى "إنكارناثيون". وحين حاول مساعدته شعر كأن رأسه ينهار.

انطلق من الكاتدرائية دوى أجراس الكنيسة الأربعة، فى نفس الوقت الذى كان "بيلوتو" وبصحبته أحد الأطباء، يدون مذكرة لوفاة "بلاس أرثامنديا"، وسيدون فى شهادة الوفاة أن السبب التهاب رئوى.

شقشق الفجر ولم تغفل عين أحدهم. ظلوا مستيقظين فى انتظار أن يسأل عنهم شخص ما.

برغم أنهم سمعوا أن بعضهم قد فعل ذلك. انطلقت صرخات تمزق السكون امتزجت بأنين متواصل. كما أن الزنزانة المقابلة لهم اكتظت أيضًا بالمعتقلين، بعضهم ملقىً على الأرض محطمة أجسادهم. أخبرهم هؤلاء الذين تواجدوا فى الزنزانة قبلهم أنهم وصلوا فى اليوم السابق، واتهمتهم الشرطة بالانتماء إلى منظمة إرهابية تُعرف بـ التنظيم السياسى العسكري. وبالمثل تم التحقيق مع بعض من كانوا فى "بعثات خاصة" مع أبراهام كوى، عن هذه المنظمة. وقد عرفها الجميع، إما لأنه عُرض عليهم الانتماء إليها أو أنهم انتموا إليها بالفعل. ورفض ديوينيسيو روخاس افتراض عمه رايموندو فلوريس. لم يعتقد أن هذا هو الطريق الصحيح لتحقيق التغيير السياسي، على الرغم من الرغبة القوية فى ذلك. وكان السبب فى رفض ذاك الخلل البارز ما بين قوات الحكومة والمعارضة، وكان يقول : "ستأتى اللحظة التى تسقط فيها الدكتاتورية من تلقاء نفسها"، ويكون رد الآخر: "اللحظة تأتى لمن يبحث عنها".

فى الصباح ألقيا فى وجهه وعاء به طعام محفوظ أسود اللون، ليتم استخدامه بعد ذلك للتبول. علق رامون سيجوبيا : "إن ما أتبوله أفضل من هذا الخراء"، ارتفع صوت خفيض : "انتظر ثلاثة أيام".

وحين بزغ فجر اليوم الثالث، مع لسعة البرد والغيام، كانوا لايزالون فى الزنزانة، يشعرون بالرعب أن يأتوا بحثًا عنهم ليفعلوا بهم ما فعلوه بأجساد الخمسة عشرة أو العشرين شخصًا، الذين ألقوا بهم على الأرض فى الفناء، محطمة أجسادهم بعد بقائهم فى زنزانة الرعب. فى الزنزانة المقابلة، سجناء جدد يعرفهم ديوينيسيو، كانوا من قيادات التعاونيات الزراعية فى "بيريبوى".

أدرك سجناء "البعثات"، أنه ما من أحد يسأل عنهم بعد انقضاء ثلاثة أيام. آلمهم هذا الصمت. أدركوا أن ذلك جزء من التعذيب، هذا الانتظار الذى يبدو بلا نهاية، بانتظار سماع أسمائهم ليُزج بهم فى حجرة التعذيب. صرخ صوت خشن باسم ديوينيسيو روخاس والأشخاص الأربعة الآخرين. شحب وجهه وارتعش ثم عانق رامون سيجوبيا. علم أنه سيتبوأ مكانه صباحًا فى الفناء ليئن أنين الآخرين. تابع رامون سيجوبيا زميله إلى أن اختفى فى نهاية الممر. تذكر كريستينا. تمنى ألا يتعرض لأى خطر، "إن لم يكن ألقى القبض عليها، لاشك أنها تواصل البحث عنى فى كل مراكز الشرطة، بعد أن أبلغوها أننى لست هنا".

يخترق صياح المعذبين الحاد الزنزانة. تترقرق الدموع فى عينى رامون سيجوبيا كسحابة ضباب. شعر ديوينيسيو ببرودة الأرض المبللة التى طرحوه فوقها. الشىء الوحيد الذى يتذكره صوت الطبيب وهو يقوم بحقنه وكلمة "كفى". سيتذكر بعد ذلك بوقت طويل، بينما يسير فى بهو منزله لحظات الرعب التى مرَّ بها والضربة الأولى التى استقرت على صدره. منبطحًا على الأرض، وعلى يقين أنه لن يخرج حيًا، يسألونه عن الأنشطة التخريبية لـ التعاونيات الزراعية، ولا يسمحون له بالحديث. يصفعونه بضربات قاسية على أذنه، طريقة فى التعذيب تُعرف بـ"التليفون".

والآن يرغبون فى معرفة المنتمين إلى التنظيم السياسى العسكري، وإلى أى مدى وصلوا فى خططهم التخريبية. نطق ديوينيسيو روخاس باسم عمه "رايموندو فلوريس" إلا أنه لم يُصر عليه ورفض الدعوة. فقاطعه كانتيرو صارخًا: "كيف يظهر اسمك فى هذه القائمة"، وحين أجاب: "لا أعرف" غمر أحد زبانية التعذيب رأسه فى دلو الماء فيما قام بيلوتو بجلده بعنف على بطن قدميه. قال بوهن: "لا أنتمى للتنظيم السياسى العسكرى". حين فقد الوعى كلية أخرجوا رأسه من حوض الماء ونادوا الطبيب فى الحجرة المجاورة، والذى نصحهم أن يعطوه برهة للراحة. نقلوا ديوينيسيو روخاس إلى حجرة التعذيب أربع مرات خلال أسبوع ثم تركوه فى الزنزانة منفردًا لمدة شهرين، بعد ذلك أودعوه بمركز الشرطة بمنطقة شاكاريتا، مع أربعة عشر سجينًا جميعهم من التعاونيات الزراعية من مناطق مختلفة.

فى اليوم التالى لانتقاله، ترك ديوينيسيو روخاس الزنزانة وتبع أحد الضباط إلى حجرة صغيرة بها دكة خشبية ومقعدان. اخترق شعاع شمس الظهيرة الحجرة عبر النافذة. وبعد دقائق، فُتح الباب وظهرت إيسابل. تعانقا فى صمت وانسابت دموعها يبكيان فى ضعف. استعادا هدوءهما ثم جلسا على مقعد خشبى ينتقضان إثر اللقاء الذى طال انتظاره. أدركت إيسابل من خلال الأسئلة التى وجهها إليها أن زوجها يجهل جميع الوقائع التى جرت فى أعقاب اعتقاله، منذ أكثر من شهرين. فقررت أن تسرد عليه ما حدث فى وقت لاحق. بالمثل أخفى ديوينيسيو آلامه. رغب كل منهما فى النظر إلى الآخر دونما حديث. شعرا بأن اللقاء لم يتعد عشرة دقائق حين فاجأهما صوت الضابط معلنًا انتهاء الزيارة. سلمته إيسابل حقيبة بها بعض الملابس. وقفت عقب خروجها فى الحديقة المقابلة وصورة زوجها ثابتة فى ذهنها.

لم ترغب أن تعترف بالأمر، ولكن كما تخيلته فقد عدة كيلو جرامات من وزنه، وألم عميق خفى يطل فى نظرته، ومن يدرى كم عدد الكدمات بجسده، ظهر فى بنطال قصير واسع، أحكمه بشريط، وقميصًا ضيقًا بخطوط مطبوعة. حدثت نفسها : "لقد ضربه أحدهم، ولكنه على قيد الحياة وكفى". منذ لحظات كانت مرتعبة من شائعة وفاته. شائعات متوقعة ومرجعها ممارسات الشرطة التى رفضت قبل أيام أن تخبرها بأى معلومات عنه. كما أن العديد مما تداوله الآخرون كان حقيقيًا. رغبت أن تصرخ : لكنه حى. تساءلت وهى فى طريقها إلى محطة الأتوبيسات عم إذا كان زوجها قد عرف نبأ وفاة عمه رايموندو فلوريس الذى كان يعتبر كأبيه.

فكر ديوينيسيو روخاس فى إيسابل فيما يقبع فى زنزانته المكتظة بالمعتقلين. رآها هو أيضًا أكثر نحافة، وشعيرات بيضاء مبكرة فى رأسها. تخيل لحظات الألم التى مرت بها غير مدركة إن كان على قيد الحياة أم لا، ويشاطرها نفس الإحساس والدتها وشقيقتها والعمة مارتينا. خاطب نفسه قائلاً: إنه قد حان الوقت لنحكى تاريخ معاناتنا. أخذ يفكر فى رامون سيجوبيا الذى يجهل مكانه. ثم الإفراج عنه بعد أسبوع من احتجازه والتحقيق معه. رآه بينما لم يشف بعد من التعذيب الذى جعله قعيدًا. تذكر أيضًا عمه رايموندو فلوريس الذى لم يره فى "أبراهام كو" وبالمثل فى التحقيقات. تمنى لو تجلب له زيارات إيسابل المقبلة أنباء تهدئ لوعته. يرغب ألا يعكر شىء – كائنا ما كان – صفو اللقاء بينهما.

ارتفعت معنوياته شيء ما، اعتقد أنه تجاوز السيناريو الأسود - جلسات التعذيب - وهو الآن في طريقه صوب الحرية. أدرك ذلك من خلال رفقاء كانوا معتقلين وتم الإفراج عنهم بعد التحقيقات. التمس لنفسه الرثاء : "ربما أصبح في الموقف ذاته".

وفي اليوم التالي، في ساعة الظهيرة، وجد أن سانورنينا ألمادوا (تينا) تفكر مثله تمامًا، وكان قد استمع إليها خلال التحقيقات وفي إدارة الشرطة الآن، قصة طويلة من التعقب والمعاناة. تم عزلها في زنزانة غير أنه يُسمح لها بالخروج ساعة أيام الثلاثاء. منذ ثمان سنوات وهي تتنقل بين أقسام الشرطة، مثلها مثل زوجها ألفونسو سيلفا، الزعيم الشيوعي. أصبحت نقابية منذ اليوم الأول الذي اشتركت فيه منذ ثمانية عشر عامًا في إضراب مصنع النسيج الذي كانت تعمل به.

وأخيرًا يأتي يوم الزيارة. انتظر ديوينيسيو روخاس مثل المرة السابقة عدة دقائق جالسًا على المقعد الخشبي، ثم انفتح الباب ورأى زوجته. لم ينطقا بتحية وتعانقا عناقًا طويلاً. رأت زوجها في ملابس أفضل، اغتسل وحالته المعنوية مرتفعة. تأخر حديثهما. تبادلا النظر، ثم تعانقا من جديد مبتسمين. تشابكت يداهما وأخذت تجيب عن أسئلته عن المنزل والعائلة وأنشطتها بالمدرسة وأشياء كثيرة أخرى يصعب سردها في نصف ساعة. سيعلم بعد عدة أشهر بنبأ وفاة عمه رايموندو فلوريس، بالحريق الذي شبَّ في المدرسة وتركها رمادًا، بسرقة منزله في نفس اليوم الذي اعتقل فيه، عن الجيران الذين تجنبوا إيسابل في الطريق، تحاشيًا للحديث معها، عن تبعات إضراب رامون سيجوبيا عن الطعام في مقر اعتقاله بإدارة سكسيونال تيرسيرا الذي نقلوه إليه، عن اغتيال واختفاء العشرات من قادة التعاونيات الزراعية.

وبعد انقضاء ستة أسابيع في محبسه، قاد ضابط ديوينيسيو روخاس إلى صالة الانتظار لمكتب رئيس الإدارة. أخذ يفكر خلال انتظاره أنه ربما لديه زيارة من إيسابل أو والدته، ووصل خياله أنه ربما قد يتم الإفراج عنه. وأشعره ذلك الخاطر بالبهجة.

ثم يتأمل مسيرة حياته ويفكر في الوقائع التي مر بها ويصعب أن يفهمها أو يفسرها. بعد دقائق، فتح رئيس الإدارة الباب بنفسه ودعاه إلى الدخول وجعله يجلس إلى مكتبه، وفيما يرد على الهاتف، على الأرجح يخاطب رئيسه، أخذ ديوينيسيو روخاس يتأمل المعاملة

الإنسانية العطوفة التى يتلقاها من نفس الشخص الذى أساء معاملته عند دخوله هذا المكان. لم يعد لديه شك أنه بانتظار أنباء سعيدة.

نسى العقاب الذى حل به مقابل أن يقضى اليوم فى منزله لدى باريريتو وأن يشرق الصباح وهو فى بيته ويواصل حياته العادية. يدرك تمامًا أنه سيتوجب عليه أن يواجه متغيرات وأحداثًا ويصبح مجبرًا على تقبلها، خاطب نفسه "أى شىء، عدا أن أظل سجينًا".

ابتهج ديوينيسيو حين وضع الضابط سماعة الهاتف واعتدل فى مقعده، ونظر إليه باهتمام وثقة وأطلق عبارته التى انتظرها طويلاً سأله: هل ترغب فى نيل حريتك؟

– ليس لى أى هدف آخر، سيدى الضابط.

– إن ذلك يعتمد عليك.

– وماذا يجب علىَّ؟

وقف الضابط وأخذ يبحث عن أوراق بحافظته، ثم أخرج ملفًا، قرأه بعناية ثم جلس مجددًا. ركز بصره على ديوينيسيو الذى شعر بعدم ارتياح.

قال الضابط أخيرًا محاولاً أن يخفف من حدة صوته : لدينا مشكلة صغيرة. لقد فكرنا بك من أجل أن تقوم بتمثيل صغير –شعر بارتباك ديوينيسيو – اسمعنى جيدًا لنتفاهم. من وقت لآخر يحضر إلينا ممثل من الصليب الأحمر الدولى، و يتدخل فى شئوننا الداخلية، بمعنى آخر، فى القضايا التى تهم مواطنى باراجواى وحسب. غير أننى لا أعلم تفاصيل الاتفاقية التى يستندون إليها، وبالمثل لا يعنينى فهمها، فإنه علينا السماح له بتفتيش مقار الشرطة والسجون ليرى كيف تعامل السلطات الحكومية المساجين. ويأتى هؤلاء بقائمة أسماء تمدها بهم المعارضة بهدف هدم البلاد. وأحد هؤلاء المبعوثين مهتم برؤية واحد من قيادات التعاونيات الزراعية فى ميسونيس. إلا أنه لن يتمكن من الحديث فى الوقت الحالى لأن قدمه انزلقت أثناء استحمامه بالصابون فى حمام مقر التحقيقات. وإذا قدمنا إليه هذا القيادى، ورأسه مربوط بضمادات، فلا شك أن التقرير الذى سيكتبه سيتضمن مبالغات كبيرة، وبالمثل لا يمكننا منعه من الظهور، وإلا سيعتقدون أنه قُتل، أو على وشك الموت، ولا

أعرف ما قد يقولون. فهؤلاء الأشخاص يتصرفون دائمًا بسوء نية. ولا يتبق لنا سوى أن نجعله يقابل شخصًا ما لنفى بمتطلبات حقوق الإنسان، وليجروا معه حديثًا. الأمر أنهم لن يقابلوا الشخص ذاته، ولكنهم سيقابلون أحد قيادات التعاونيات الزراعية بـ ميسيونيس. أى إنه ليس هناك فرق. ووقع اختيارنا عليك لأنك بمثل سنه، وكى تتمكن من نيل حريتك فى أقرب وقت، ربما هذا الأسبوع، ما رأيك؟

– يبدو الأمر جيدًا فقط أن...

– لا تقلق من أى شىء. الأمر هين، وأحد الضباط سيعطيك التعليمات هذا المساء.

– ومتى...

– غدًا فى العاشرة صباحًا. يمكنك الخروج الآن، وتذكر أن نيل حريتك يعتمد على أدائك.

– نعم يا سيدى.

– لستُ بحاجة لإخبارك بألا تتفوه بشىء مما دار بيننا ولو فى الحلم. إذا عدت إلى التحقيقات، فأنت تعرف جيدًا ما ينتظرك.

– نعم يا سيدى.

عاد ديونيسيو إلى زنزانته بمشاعر متضاربة. يشعر بالحماس لفكرة خروجه المحتمل وحريته المرتقبة، لكنه يشعر بالقلق من أن يحل محل شخص آخر. ندم أنه لم يسأل عن اسم الشخص الآخر، فى كل الأحوال سيكون أحد أصدقائه. وماذا إذا كان قد عُذب أو قُتل؟

عرف فى مقر التحقيقات الدور الإنسانى الذى يلعبه الصليب الأحمر الدولى، وأن المعتقلين السياسيين يتمكنون من خلاله من تحسين أوضاعهم، حتى إنهم يحصلون على حريتهم أو يجدون بلادًا يطلبون حق اللجوء إليها. عندما يتذكر ما حدثه به الضابط عن حريته والتزامه بالتعليمات، تتداعى فى ذاكرته القراءات الجماعية للدستور الوطنى، وأنجيل أمريكا اللاتينية، ووثائق أخرى اعتادوا قراءتها فى لقاءاتهم الأسبوعية ليدركوا حقوقهم وواجباتهم المدنية. انتزعه من تأملاته صوت ضابط طلب إليه أن يتبعه. قاده إلى مكتب صغير محدود الإضاءة، يحتوى على مكتب ومقعدين فقط. اعتقد ديونيسيو أنه

مكان للتحقيق مع المعتقلين. ظل صامتًا إلى أن دخل رجل عسكرى وبيده ملف. يقدم نفسه أنه الماجور كينيونيث، شعر ديونيسيو بالخوف، ربما صوته أو هيئته أو تعبيراته، وتلقى الأمر بالجلوس أمام مكتبه. خاطبه القائد العسكرى : تعلم أنك بعد دقائق ستمثل أمام من حدثناك عنهم، وستكون أنت بدرو أرثا، هل تعرفه؟

– نعم سيدى، هو من قيادات التعاونيات الزراعية المسيحية فى سانتا ماريا، ميسونيس.

– لم يعد قياديًا، لأن التعاونيات الزراعية الشيوعية لم يعد لها وجود. وهذه قضية أخرى. سيجتمع بك اليوم الشخص الذى أبلغناك بأمره.

وفى هذا الملف توجد المعلومات التى يجب عليك معرفتها عن ظهر قلب. وهى ليست كثيرة أو معقدة. وإذا سألوك ما إذا كان وضعك كما هو من ناحية التدخل القانونى، أخبرهم أنه تم توكيل محام لك يوم الاثنين الماضى، وأنه تحدد موعد مثولك أمام القضاء. وهنا أسماء المحامى والقاضى، والبيانات الأخرى. وسيسألونك عما إذا كنت تعرف سبب اعتقالك، وستجيب بالإثبات. والسبب مجموعة من الأشخاص، أسماؤهم فى هذا الملف، وأنت، بدرو أرثا، اشتركت فى التواطؤ الذى قام به التنظيم السياسى العسكرى. اجلس هنا لتقرأ وتراجع ما قرأته إلى أن أعود.

أغلق الباب بالمفتاح إثر خروجه.

ديونيسيو روخاس صديق لـ بدرو أرثا، أحد قيادات التعاونيات الزراعية بـ سانتا ماريا، ولاية مجاورة لـ سانتا روسا. تعززت صداقتهما فى اللقاءات الإقليمية والمحلية، والتى توافقت على مبادئ واحدة مع العقيدة المسيحية واتصلت اتصالاً وثيقًا بالكنيسة. وعارضا معًا فكرة الابتعاد عن الكهنة الذين كانوا على صلة وثيقة بهم فى أمور الزراعة والتعليم وغيرها، وكانت فكرة تتنامى يومًا بعد يوم. ولم يعتقدوا بأن هذا الوجود من شأنه أن يتسبب فى الخضوع للتراتبية الكاثوليكية، أو فقد الهوية والاستقلالية. وبدرو أرثا، مثله مثل آخرين، كان يتم اعتقاله فى مقر الشرطة، ومرة إلى السجن الإقليمى لـ أبراهام

كو، بتهمة التمرد على السلطات، ومطالبته بعدم حضور أو تنظيم أى اجتماعات أخرى. وزاد تمرده وعصيانه لقناعته بأن ممارساته تحترم تعاليم المسيحية والدستور الوطني.

ونظرًا لخبرة ديوينيسيو روخاس الواسعة، فقد أثار نبأ "الحادثة" التى تعرض لها بدرو أرثا قلقه. شعر بالخوف أن يكون صديقه فى خطر أو قُتل. ولكنه فى كل الأحوال سوف يمثل أمام الصليب الأحمر الدولى، فى تمام الصحة وفى حماية محام. شعر بالغضب من هذه المهزلة، خاصة وأنها تتعلق بشخص محبوب يحظى بالاحترام مثل بدرو أرثا، فضلاً عن أنه أب لـ خمسة أبناء. يتألم لأنه سيلعب دورًا يجعله يشعر بالذنب لعاره، سيخدع صديقه ونفسه، وتعليمه الدينى، وقناعاته المدنية والإنسانية. لقد حطموا جسده من قبل، والآن يحطمون نفسه. يشعر بالألم لأنه استشعر قدرًا من السعادة أظهرها أمام القائد العسكرى. فهو لم يفكر سوى فى حريته، وفى العودة إلى مسكنه، وعمله، وحياته. ولكن بعد أن عرف من هو الشخص الذى سيحل محله، أصابه الشك فى قدرته على تنفيذ الأمر. أولاً: سيغسل عن الشرطة عارًا، وهم لا يتوقفون عن استخدام آليات التعذيب وأقصى درجات العنف فى أدائهم. وثانيًا: سيخدع جهازا دوليًا مثل الصليب الأحمر، وهو مؤسسة ذات ثقة وتأثير، سيمنعها من تنفيذ رسالتها لمساعدة المعذبين، وثالثًا: لأن شخصًا تعرض للتعذيب ولا يعرف أحد مدى خطورة حالته لن يتم إنقاذه. ولا شك أن الصليب الأحمر يعمل من أجل أسماءً أخرى غير بدرو أرثا. فما هى المعلومات التى يعرفونها عنه؟ ولماذا يرغب المسئول فى رؤيته؟ وهل سيمنع بنفسه "ديوينيسيو روخاس"، وهو صديق لـ أرثا أن تُكشف الحقيقة؟ هل سيأخذ جانب الجلادين الطغاة؟ هل سيتعاون مع زبانية التعذيب، الذين عذبوه وكان على وشك الموت بسببهم؟ رغب ألا يلعب الدور وأن يدمر الملف بيده، قبض على الملف بعنف ليلقى به فوق المكتب، توقف عندما سمع الباب يُفتح. دخل الرجل نفسه ليسأله ما إذا كان قد استذكر الملف وبياناته ؟

– إننى أقرأه.

– أحسنت صنعًا. لو تم الأمر كما يجب، أعتقد أنك ستنال حريتك غدًا.

أصبح ديوينيسيو وحيدًا مرة أخرى، وعادت إليه خواطره، التى تتنامى شيئًا فشيئًا. تساءل ما الذى قد يحدث إذا رفض التنفيذ أو قصَّ على مسئول الصليب الأحمر الحقيقة؟

لن يشى به، فقط سيتظاهر بأنه بدرو أرثا. ستعتقد الشرطة أنه كذب على الصليب الأحمر الدولى، وسيخرج هو – ديوينيسيو روخاس – وينال حريته وضميره مستريح بهذا الشكل لن يشى بصديقه ويكشف جريمة الشرطة. نعم، هذا البديل أفضل من النفى. فالكذبة سوف تحميه من زبانية التعذيب، وفى المقابل إذا رفض التعاون... عكف على قراءة الملف، ليس ليكذب على الصليب الأحمر، بل ليواجه الاختبار الذى سيواجهه به القيادى العسكرى الذى هدده. لم يشعر بصوت المفتاح فى المزلاج وفاجأه ظهور الرجل أمامه يسأله كيف تسير المهمة.

كذب عليه : جيدًا.

– الأفضل أن يكون الأمر كذلك، فسيادته على وشك الوصول.

– أشعر بظمأ، هل ممكن أن أخرج قليلاً...

أجاب بحزم : لا، سيأتون لك بدورق مياه.

عاود ديوينيسيو استذكار الملف والأسئلة المحتملة وإجاباتها. بدت له سهلة. فهو يعرف جيدًا بدرو أرثا، وأنشطته، وعائلته، سجنه، قيادته، التزامه بمبادئ التعاونيات الزراعية المسيحية والكنيسة، وانتقاداته للحكومة بسبب القمع. أما اسم محاميه فيسهل تذكره "مانويل كابريرا"، وأيضًا اسم القاضى "كلاوديو بينيتث". أصبح قادرًا على اجتياز الاختبار بمجرد أن يبدأ. سيظهر لـ الماجور "كينيونيث" أنه بدرو أرثا بالفعل، لكنه سيظهر أمام ممثل الصليب الأحمر باسمه الحقيقى ديوينيسيو روخاس، قيادى لجنة باريريتوس بـ سانتا روسا. ولاشك أن ممثل الصليب الأحمر سوف يتفاجئ، لكنه سيفهم الموضوع على الفور.

وحين يخرج سيتظاهر أنه لعب دور بدرو أرثا. حتى إنه سيتعمد الظهور أنه بصحة جيدة لمن اعتقد أنه فى وضع سيىء أو أنه مات. حتى أنه تخيل نفسه وهو يودع رئيس إدارة الشرطة، وهكذا ينفتح أمامه طريق الحرية. ويعلم ديوينيسيو من رفقائه فى التحقيقات أن الصليب الأحمر الدولى يحافظ على البيانات التى يصل إليها فى أعلى درجات الحيطة والسرية. وأقصى ما يمكن أن يحدث، أخذ يفكر، أنه بعد ذلك فى مناسبة أخرى، قد يضحك كثيرًا، حين يكون هناك صور لمن ستتم مقابلتهم بعد ذلك. شعر بالسعادة أن يصنع شيئًا ذا

فائدة. فموقفه لن ينقذ أرواحًا، ولكن على أقل تقدير ستضطر الشرطة إلى أن تعمل بشافية ولو بقدر ضئيل. هذا هو ما ينتظره عقب القرار الذى اتخذه.

استمع هذه المرة إلى صوت المفتاح، وها هو القائد كينيونيث يدخل ويسأله : جاهز؟

– نعم سيدى، أجاب ديوينيسيو بثقة.

– جلس ورفع ساقيه على المقعد المقابل وقال : اسمع، إننى ممثل الصليب الأحمر، وأنت بدرو أرثا.

– أرثا؟

– أرثا، نعم. ابدأ بالتعريف ببياناتك الشخصية، وأنشطتك فى التعاونيات الزراعية، والكنيسة واللجنة الـ...

– جاهز.

– وأيضًا...

– المدرسة.

– هذا هو، أخبرهم أن التعاونيات تحظر على الأطفال الدراسة بالمدارس الحكومية وتجبرهم على تعليم لا مستقبل له، ليعرف الصليب الأحمر أن التعاونيات الزراعية تخترق مواثيق حقوق الأطفال. تابع ديوينيسيو روخاس تلاوة البيانات عن الشخص الذى سينتحل شخصيته. وبدا على وجه الميجور كينيونيث الرضا والهدوء.

وأخبره فجأة أنهم قد وضعوا صباح ذاك اليوم عدد اثنين من الميكروفونات الخفية مشيرًا "وفى أماكن لن تتخيلها بأى حال من الأحوال"، وذلك حتى يتمكنوا من السيطرة عليه، ويتأكدوا من أنه "لست بأبله تضحى بحريتك لتعود مجددًا إلى غرفة التحقيقات تحت سيطرة الصبية"، بحسب ما أخبروه.

– هل الكلام واضح.

– نعم يا سيدى.

– سنسمع كل ما تقوله. انتظر فى الفناء.

جلس على مقعد خشبى تحت ظل شجرة، وقدم له الغداء، إلا أنه فقد شهيته. إن هذا التنصت قد ضرب بخططه عرض الحائط. فاجأه صوت الضابط أن يتبعه. وصلا إلى حجرة مكتب رئيس الإدارة وبرفقته رجل فى منتصف العمر، يرتدى بلوفر، ولا يرتدى رابطة عنق، يضع نظارة داكنة وبيده دفتر تدوين. بدا أنهما يتبادلان الحديث بود، ثم نُعى ديوينيسيو للدخول.

قال رئيس الإدارة مخاطبًا ممثل الصليب الأحمر : بإمكانك البقاء بمكتبى، ستكونان مستريحان هنا.

شعر ديوينيسيو بسعادة غامرة من رأسه إلى إخمص قدميه. فسماعتا التنصت موجودتان فى الحجرة المجاورة. فى هذا المكتب يصبح بإمكانه تنفيذ خططه دون الخوف من الرجوع إلى "التحقيقات".

أجاب ممثل الصليب الأحمر وهو يعتدل فى مقعده : فى المكان الذى تختاره.

أضاف رئيس إدارة الشرطة : أعتقد سيكون أكثر راحة، البقاء فى الحجرة المجاورة، لأن التليفون هنا...

– حسنًا إلى الحجرة الثانية.

– هيا بنا.

استلقى الميجور كينتانا بمجرد أن غادر المكتب ليسمع المحادثة من خلال جهاز صغير أخرجه من دولابه. استمع إلى صوت عجل المقاعد والسؤال التالى : هل حضرتك...؟

ساد صمت طويل. جعل كل من رجال الشرطة والعسكرى يتبادلان النظر وتساءلا ما الذى يجرى. فحص الميجور جهاز الاستقبال، فيما قطع رئيس إدارة الشرطة مكالمة هاتفية وهو عصبى للغاية. وأخيرًا سمعا.

– اسمى بدرو أرثا.

اجتمع أهل القرية فى الميدان المقابل للكنيسة وأخذوا يتناقلون بين الدهشة والفرحة والألم أخبار العاصمة. يحللون ويعلقون ويتأملون العهد الجديد المنتظر أن يعيشوه، كيف سيتعايشون مع حاضر أصبح ماضيًا، غير أنه مليء بأحداث يستحيل نسيانها. أحداث محفورة فى العظام والذاكرة، المعاناة. عن سكان باريريتو، عن هؤلاء الذين أداروا ظهورهم وتكيفوا مع القمع، كيف يتم التعامل معهم منذ الآن وصاعدًا؟ هل هم على دراية أنه لابد من الصفح، لأن هذا هو ما تعلموه من الدين. تدخل فى الحديث أحد المدرسين بمدرسة القرية : ولكن غالبًا من يصفح هو ذاك الذى لم يفعل شيئا سيئًا يتطلب الصفح عنه".

قال ديوينيسيو روخاس : على الرغم من كل شيء، فاليوم جميعنا سعداء. أنا أيضًا لدى العديد من الذكريات التى أكرهها، ولكننى أرغب أن أستمتع اليوم بغياب الدكتاتور، ذاك الذى لم نر الهزيمة فى وجهه قط. هل رأيتم جميعًا كيف صعد إلى الطائرة. مهزومًا، ويختلف تمامًا عمًا رأيته عليه حين كنت طفلاً فى أحد العروض يتقدمه بحر من الأعلام الحمراء. بينما هو فى منصته العليا، يستمتع بما بدا له وكأنها عظمة لانهاية لها. والآن، انظروا إلام صار...

– نعم ديونيسيو، تدخل المدرس، ولكن ذلك ليس بعقاب. هو تغير فى الموقف وحسب. هو تغير فى الموقف ليس إلا. سيعيش فى البرازيل مثل الملك، ملك فى رفاهية وهدوء تمنحها له الثروة الطائلة. وكأنه فى إجازة بعد انتهاء خدمته والتخلى عن متاعب السلطة. لقد تعقد كل شيء بالنسبة إليه، كما أن الدكتاتوريات المجاورة قد قُضى عليها، فأصبحت من التاريخ البائد. إننى أعتقد أن الضربة التى أطاحت به جاءت من صنيعة يده، أو بمعنى آخر سمحت للتواطؤ أن يؤتى ثماره. تصنع أنه لا يدرك شيئًا. إنه عجوز مرهق ومنهك وجد الشكل المناسب ليتخلى عن السلطة.

– أضاف أحد الحضور : ضربة ذاتية أو غيرها، المهم أنه الآن لا وجود له، وباختفاء الدكتاتور يصبح لدينا الأمل فى الحياة بشكل أفضل.

– أضاف المدرس : سنبقى على هذا الأمل، ولكن على كل حال...

أنهى كلمته بهذه الإشارة الغامضة، وتابع : ذكر ديوينيسيو روخاس أنه شاهد أثناء فعاليات إلقاء القسم للرئيس الجديد فى قصر الحكومة، وزراء وأشخاصا من المدنيين البارزين والعسكريين والميجور كينتانا. الذى كان مسئولاً عن إدارة الشرطة بـ نوفينا. كان هو الشخص الذى وعده بالإفراج الفورى عنه، ولكنه بقى لمدة خمسة أسابيع أخرى. ما الذى يفعله الميجور كينتانا فى القصر الجمهورى؟ لم يبق غير استدعاء المشهد حين حل محل بدرو أرثا أمام مسئول الصليب الأحمر، وحين عرف أنه قُتل فى "التحقيقات"، وكيف تمكن المسئول على الفور من إدراك أن الشخص الذى أمامه ليس بدرو أرثا، وذلك من خلال حركات وجهه ويده. فأخبره أن الحكومة أرادت أن تكسب وقتًا ما دام مفوضية حقوق الإنسان بالأمم المتحدة فى جينيف، حيث تفاقمت الإدانات الخاصة بحالات التعذيب وعجز السجناء. وقالت الحكومة فى دفاعها إن بدرو أرثا قد غادر إلى الأرجنتين فى نفس اليوم الذى تم الإفراج عنه، وفقًا لما هو مقيد بمكتب الهجرة.

حين عاد كل من ديوينيسيو روخاس وزوجته إلى المنزل، تأملا ما استمعا إليه، واستنتجا أن التعاونيات الزراعية المسيحية، وعلى الرغم من المدافعين عنها، وهما من هؤلاء، يستحيل أن تستأنف نشاطها وتعود لما كانت عليه. لقد فقدت جذورها إثر لطمات الخوف والإحباط واليأس المتوالية. ذهبا إلى فراشهما وهما على يقين راسخ أن غدًا سيكون يومًا آخر.

رامون سيجوبيا

أيقظتها من نومها إثر ضربات تدق الباب. صار الأمر على هذا النحو منذ أن حطموا الباب فجر ذاك اليوم البعيد متسببين فى ذعر لا حد له. مرتعدة من الخوف انتظرت الضربة التالية إلا أنها تتراجع حين تنصت لصوت ابن شقيقها. أخبرها أن الجنرال إستروسنر حبيس فى مقر سلاح الفروسية إثر انقلاب عسكرى. تفتح كريستينا الباب وتعانق سباستيان عناقًا طويلاً. يطلب منها بدوره تشغيل المذياع لتسمع العم رامون سيجوبيا، طال مرضه على مدار ثلاثة عشر عامًا إثر إضراب عن الطعام امتد طويلاً، فتأثرت صحته ولم تعد كالسابق أبدًا. يتمكن بالكاد من السير والتحدث. فى فراشه، ينصت رامون إلى ابن الأخ وينتظر أن تُشغِّل زوجته المذياع، فى اللحظة نفسها يواصل المذياع إلقاء البيان والمعلومات الخاصة بالساعات الأخيرة. يطلب منهم المريض مساعدته على النهوض. ويبعث النشاط الذى دبَّ فيه الدهشة. أسندوه ليصل إلى المقعد ويجلس عليه. ليستمع بانتباه بالغ إلى الأنباء. يعود ابن الأخ بعد برهة إلى المنزل، ويبقى الزوجان مستيقظان طيلة الليل يتناولان "الماتى". بالكاد يتبادلان الحديث، منشغلين بأفكارهما الشاردة. وتخطر ببالهما من وقت لآخر مثل بريق الرعد مشاهد من الدكتاتورية تستدعيها الذاكرة بصرامة.

وبمجرد أن أشرق الصباح استقبلا الأصدقاء والجيران فى ضجيج محبب، رفقاءهم فى التعاونيات الزراعية يسبقهم ديوينيسيو روخاس وزوجته إيسابل. يتناقشان بشأن أخبار الوطن الأخيرة، وإخلاء مقر الحكومة منذ أعلن الدكتاتور تنازله عن السلطة. لا يعرف أحد شيئًا عن ألبينو ساليناس، أو أى من الآخرين.

– ديوينيسيو روخاس : ستعلن أخبارهم.

– كريستينا : لا أعلم، مشيئة الرب ألا نعلم عنهم شيئًا.

جاء الآخرون لتحية رامون سيجوبيا، فيما ودعه ديوينيسيو وزوجته لزيارة بيت عمته السيدة مارتينا أرملة فلوريس.

حين أصبح رامون وكريستينا بمفردهما، جعل كل منهما يستدعى ذكرياته. فى الوقت نفسه أذاع الراديو تفاصيل السلطة الوطنية الجديدة وفعاليات الأحداث، وردود الفعل من جميع أنحاء العالم، وبهجة آلاف المحتشدين أمام القصر الجمهورى. يخبر رامون زوجته بصعوبة سعادته البالغة. لم تكن هناك حاجة ليخبرها بذلك، فنظرته مترعة بالسعادة، بالرغم من سحابة كدر تغلبه من وقت لآخر. إنها ذكرى آلامه التى لن تختفى أبدًا. وفى منتصف النهار يعود ديوينيسيو روخاس وإيسابل من الميدان بعد مشاهدة مظاهر البهجة وفرقة الفولكلور والألعاب النارية وجميع مشاهد الفرحة بسقوط الدكتاتور. أدرك أهل باريريتو قدرتهم من الآن فصاعدًا على التظاهر دون خوف. بالرغم من ذلك، بقى البعض فى منازلهم، غير مصدقين لما جرى، يراهنون على بعض الشائعات بأن الدكتاتور سيعود فى أية لحظة بعد أن ينقذه أتباعه فيعيدونه إلى القصر الجمهورى. وأشيع أيضًا أن ألبينو ساليناس لا يزال يشغل منصب حاكم الولاية وأنه قابع فى أحد المنازل، وغير مختبئ، بل على وشك استرداد منصبه فى الساعات القليلة المقبلة.

وأكد ديوينيسيو لـ رامون من خلال معلومات الراديو والتليفزيون أن الانقلاب نجح نجاحًا كاملاً. وأضاف : ذكروا أنهم فى أسونثيون، لقد استقرت بالفعل السلطات الجديدة فى أماكنها، ولا يوجد ما يستدعى الخوف. أما ألبينو ساليناس فقد هرب من القرية بلا رجعة.

سكنت بيريريتو أربعون أسرة من السكان الأصليين الهنود، الذين اضطروا إلى التخلى عن مواطنهم حين حل اليسوعيون فى سانتا روسا - مثلهم مثل الشعوب الأخرى تحت السيطرة - تنفيذًا لقرار الطرد بحقهم الذى أصدره كارلوس الثالث عام ١٧٦٧.

وواصلوا فى باريريتو عادات العمل الجماعى والتضامن فيما بينهم. واصلوا نشاطهم الزراعى والرعى والحرف الفنية وكل ما تعلموه من الإرساليات. فضلاً عن الموسيقى والرقص. ولأسباب لم يقدر المؤرخون على فهمها، ترك هؤلاء المكان بعد قرابة ثمانين عامًا. ولم ينقلوا جميعًا فى الوقت نفسه. فمنذ عدة سنوات يهجر أهالى باريريتو المكان،

إلى أن اقتصر على ثلاث عائلات، وباختفاء هؤلاء مع بدايات حرب "الحلف الثلاثى"[1]، اختفى تمامًا أليسوعيون إلى غير رجعة. وبعد أعوام طويلة على انقضاء الحرب الكبرى، استقبلت باريريتو مجددًا السكان الذين أتوا من أماكن متفرقة فى البلاد، بل ومن خارجها أيضًا، مثل العائلات القادمة من مقاطعة كورينتس الأرجنتينية. لم تصل لأن تكون مجتمعًا قويًا،ولكنها بالمثل لم تعان الفقر. أراضيها الزراعية محدودة، غير أن بقية الأرض ملائمة للرعى، وهكذا عاش كل أهالى البلدة فى بيوت ريفية متواضعة، وهكذا توسع هذا النشاط الرعوى بها وتربية الماشية. حين وصل رامون سيجوبيا إلى "باريريتو"، كانت مجتمعًا مؤلفًا من ٣٥ بيتًا قوام جدرانه تعريشات بدائية ومن الطوب اللبن، والأسقف مكسوة بـ الأغصان الجافة، بينما البيوت المبنية من الطوب وذات الأسقف المغطاة بحجر القرميد قليلة للغاية. وانتصبت أشجار الجوانسيانا بزهورها الوردية والشيباتو الصفراء على جانبى طريق الحى القديم. ولفت انتباهه الزهور اليانعة التى تزين المساحات الأمامية للبيوت فى كل مكان. وقال لزوجته : "سأشعر بالراحة فى هذا المكان، فحيثما وُجدت الأزهار، وُجد الأناس الطيبون". وقضى رامون سيجوبيا أيامه الأولى فى إعداد منزله، والتجول فى وسط المدينة والنواحى المجاورة، وتبادل الحديث مع الأشخاص الجالسين فى الطرق وأمام المساكن، أو فى الحانة الوحيدة الموجودة. وفى أيام الآحاد الصاخبة يحتشد مشجعو كرة القدم فى ملعب وحيد، يقام به أحيانًا دورى ما بين الأندية وبعضها، وبين فرق الإرساليات، وحينها يطلقون عليه "رياضة باريريتو"، ويقع المركز المدنى والاجتماعى والدينى إلى جوار الكنيسة الرئيسية إحياء لذكرى القديسة سانتا روسا، ويحتفل الأهالى فى الساحة المقابلة بصلاة الآحاد وطقوس المناولة والزواج، وجميع المناسبات ذات الطابع الاجتماعى والفنى، ولا علاقة لها بالمؤسسات الرسمية. وتم بناء مبنى للمحافظة، ولكن أسس إلى جواره إدارة "كولورادو"، وهى كيان سياسى تتركز فيه الإدارات الحكومية وخاصة ما يتعلق بالأمن العام، كما أنها الجهة المنفذة لكل ما يصدر عن الأجهزة الحكومية الرئيسة والممثلة للحزب الحاكم. عاد رامون سيجوبيا إلى منزله بعدما استمع إلى آراء

---

(١) حرب الحلف الثلاثى (١٨٦٤-١٨٧٠) بين باراجواى وحلف مؤلف من أورجواى والأرجنتين والبرازيل انتهت بهزيمة باراجواى ومقتل معظم الذكور فى البلاد (المترجمة)

الأهالى فى لقاءاته معهم، وأدرك أن "باريريتو" مكان هادئ بكل المقاييس. أخبره أحد أعمام كريستينا : لا تزج بنفسك فى السياسة وبهذا الشكل لن تتعرض لأية مشاكل.

يدرك رامون سيجوبيا جيدًا الصعوبات التى يتعرض لها من يرفضون الانصياع للقواعد التى تمليها عليهم السلطات. ذهب ليعيش فى بلدة زوجته ورغبته صادقة فى الاستقرار هناك.

حين طلب الرفاق من رامون سيجوبيا تفقد مخزن التعاونيات الزراعية، كان قد مضى عليه خمس سنوات فى "باريريتو" ، و حين جاء ديوينيسيو روخاس إلى المنزل، كان رامون فى أسونثيون فى تلك الأمسية. جاء إليه يطلب هذه المهمة، بناء على قرار من الجمعية العمومية.

– ولم هو؟

– لأنه أحد أنشط الأعضاء وأكثرهم مصداقية فى التعاونيات.

– أليست مهمة ثقيلة على زوجى؟

– بالطبع إنها كذلك، ولنفس هذا السبب فكرنا به.

استقر كوكو، كلب العائلة العجوز، عند قدمى. غربت الشمس، وتلألأت نجمات بعيدة فى السماء.

– ولماذا فكروا فى رامون سيجوبيا يا ديوينيسيو؟

– إنه يفتقر إلى الخبرة. أو بمعنى أدق، لديه الخبرة ولكنه لا يعرض مهاراته بشكل جيد فى التجارة.

– حاول ذات مرة أن يفعل ذلك ولكنه لم يوفق، وجاءت النتيجة عكسية.

– نعم، لقد أخفق مرة يا كريستينا، وليس معنى ذلك أنه سيخفق كل مرة.

– الحقيقة أنه لم يكن مسئولاً عن ذلك. لقد تورط ذات مرة مع مجموعة من المافيا أراد أن يستغل إجازته خلال عمله فى مبردات "سان أنطونيو"، تلك القرية التى عشنا

بها وعملنا فيها. حاول أن يمارس حركة البيع والشراء فى منتجات وطنية. وزار أسواق العاصمة ليطلع على الأسعار. وزار العديد من الشركات فى القرى المجاورة بحثًا عن وسيلة نقل. فى النهاية، عثر على بغل عند أحد العَّرابين، الذى نصحه أن يتوخى الحرص لعدم استواء الأرض. أخبره رامون أن الطريق طويل، ولن تتحمله سوى بغل دءوب، ثم أعطاه لجامًا لبغلين.

اكتنفت سماء تلك الأمسية سحب كثيفة، يلمع خلالها ضوء البرق بين لحظة وأخرى. خلد رامون إلى النوم مبكرًا بعد أن أكمل جدولاً بعمليات حسابية من الجمع والطرح والضرب، اعتاد ألا يقوم بعملية القسمة وكان يقول دائمًا "الطرح كاف جدًا بالنسبة إلى". استيقظ على صوت صفير حاد للثلاجة قرابة الثالثة صباحًا، بينما ينهمر المطر بغزارة ويضرب زجاج النافذة. سمعته يتجه إلى المطبخ ليسخن الماء ويوقد الموقد، عاد بفنجان شاى الماتى وجلس فى سريره.

– لن تذهب فى هذا الجو الممطر.

– وكيف سنمضى قدمًا إذا ما أقعدنا المطر عن مغادرة الفراش.

استيقظت أنا أيضًا قلقة على الدجاج، ففى هذا المطر الغزير قد يتعرض للغرق، نظرتُ من النافذة فرأيت الطيور خرجت من عشة الدجاج إلى ممر المنزل.

– لا تذهب فى هذا الجو.

– إنهم ينتظروننى فى أماكن متفرقة، سأنطلق مع شروق الشمس. هكذا هو شهر يونيو.

– نحن فى أبريل.

– هذا شهر يونيو، ليس هذا مناخ أبريل.

– ولكن اليوم ١١ أبريل، مثلما فى النتيجة المعلقة.

– هناك خطأ ما، فاليوم يتألف من ٢٤ ساعة كاملة، هناك وحدات أصغر من الثوانى تفيض، وتؤثر فى الأيام والسنين، وهكذا تتبقى هذه الثوانى سنويًا وتتراكم على مدار القرون وتتحول بدورها إلى أشهر.

– إذن فهو ليس يوم الأحد، ولا الساعة الثالثة، ولا السماء ساطعة؟

– لن تفهمى شيئًا أبدًا.

ترك شاى الماتى وارتدى قميصه القطن وبنطلونًا من الكتان. انتعل حذاءه المطاطى وارتدى قبعة من القش. ووضع ملابسه فى حقيبة.

– لا أدرى متى سأعود.

– لا تُغرق نفسك، لا تفعل.

خرج عبر الممر دون أن ينظر إلىَّ. انتظر فترة طويلة يراقب هطول المطر. عاد ومنحنى قبلة، وضع معطفه الخشن وأدى بعض المهام البسيطة فى المنزل. وبالرغم من السحب الكثيفة، شقَّ الأفق بصيص واضح من النور جعلنا نلمح قطرات المطر الغليظة. وبعد لحظة، أصبح بالإمكان رؤية رامون على الدابة بعد أن أضاء المشهد ضوء البرق، إلى أن غاب عن بصرى واغرورقت دموعى فأماطت عنى الرؤية. عاد بعد ثلاثة أيام، رث الهيئة منهك، بدون قبعة وشاحبًا كالموتى. استطاع بالكاد الصمود على ظهر دابته التى بدا عليها الإنهاك مثل فارسها.

راعنى مظهره وهو يبدو كجثة على ظهر البغل، وبالكاد يحرك ساقيه، وعيناه زائغتان تتضرعان. ساعدته على النزول وشعرت بحرارة الحمى تلتهم جسده. سندت جسده وذهبت أحضر بطانية لأدثره بها، وهو يبدو كسيجار ووضعته فى الفراش. تمكنتُ بصعوبة من إنزاله عن الدابة التى انهارت على الأرض. بدا لى أنها انتظرت أن تتحرر من ثقلها لتحط على الأرض فى سلام. جعلته يتعَّرق باستخدام وصفات منزلية، وفيما كنت أغير له ملابسه مرات عديدة ذاك اليوم أخذ يخبرنى بتفاصيل متفرقة عن سفره. كنت أقاطع حديثه من حين لآخر لأستفسر منه عن حالة الدابة، التى على ما يبدو تناولت حشائش سامة أصابت أحشاءها بالجفاف، أما هو فقد أرقدته الحمى فى منزل واحدة من العائلات الصديقة.

زار بعد ذلك المزارعين المنتجين. وبعد أن شُفى بالكامل قام بمجموعة من الحسابات جعلته يقرر أن السلعة الأكثر ربحًا فى عملية البيع والشراء هى البصل. ابتاع ألف كيلو، وأخبرنى أنه سوف يضاعف الكمية المرة المقبلة فيحقق ضعف المكسب. انطلقت شاحنة.

بالكمية فى اليوم التالى. لم يتمكن من العشاء ذاك اليوم، شعر بالإثارة والحماس، ثم قام بإجراء عدة عمليات حسابية بينما أقدمُ له شاى الماتى دون انقطاع. بقيت بوادر التعب على وجهه عدة أيام، غير أن بريق عينيه عكس قوته الداخلية المعتادة. ظهرت فجأة الشاحنة وبدأوا فى تفريغها. جعل رامون يتحرك من جانب إلى آخر دون أن يفعل شيئًا. وحين حانت اللحظة صعد إلى جوار السائق، وألقى المساعدين بأنفسهم فوق حمولة البصل. انطلقت الشاحنة وأشار إلى بيده، مظهر جعلنى أتذكر مشهد محارب ينطلق ويودع أمه فى طريقه إلى الحرب. تسمرت قدماى عند البوابة أراقب السيارة إلى أن اختفت عن ناظرى. أعلن مظهر السماء عن يوم بديع. ذهبت إلى الفراش ولكن لم أتمكن من النوم. أعددت شاى الماتى عند الظهيرة، معتقدة أنه لن يتأخر فى العودة، لكن مرت ساعات قبل أن أسمع ضجيج المحرك، فهرعت مسرعة نحو الباب. انتظرت أن يلوح إلى بيده من مكانه، ولكننى اعتقدت أنه لم يرنى حتى اللحظة. لمحته، بدا لى ساقطًا على مقعده، وليس جالسًا فى الوضع المفروض إلى جوار السائق. لم أتمكن أن أزيح عن صدرى التنبؤات المشئومة. ترجَّل من السيارة مقطب الجبين، وتوجه إلى المنزل بانتظار أن أتبعه. وضع ملفه على المائدة وجلس يفك رباط حذائه ببطء. بعد أن نزع حذاءه وفك حزامه طلب منى الذهاب إلى منزل أحد أقاربه لأقترض مالاً وأدفعه إلى سائق الشاحنة. تركت أمامه شاى الماتى وخرجت دون أن أوجه إليه أسئلة. حين عودتى ارتعبت من رؤيته نائمًا فى الفراش ونظرته موجهة إلى السقف. أردت التحقق من قدرته على الكلام فأخبرته أننى سددت الحساب.

– حسنًا.

– هل ستشرب شاى الماتى أم أعد لك القهوة؟

– أرغب أن أرتاح قليلاً.

– لاشك أنك تعب للغاية.

– لأقصى حد.

– كيف سار كل شىء؟

– كأسوأ ما يكون.

لم بصيص النجمات من زجاج النافذة، وبدأت الدواجن فى الصياح، ارتفع ضجيج المصنع كحافلة خربة. بدا أنهم يفعلون شيئًا فى تلك اللحظة فى السخان الرئيسى.

– ما الذى ترغب أن تخبرنى به؟

– البلاد مملوءة بـ اللصوص الدنيئة.

– هل سرقوك؟

– وبأسوأ شكل، باسم القانون والمصلحة المدنية.

استراح فى فراشه وانطلق يتحدث وكأنه يقص علىَّ فيلمًا أو حكاية. حين وصل إلى العاصمة بشحنته اكتشف أن السوق غارق بالبصل المستورد من الأرجنتين، وبسعر زهيد للمستهلك أقل بكثير من السعر الذى دفعه للتجار. أوضحوا له أن التهريب كان على أشده الأسبوع الماضى.

– لم أبع جرامًا واحدًا.

– ولكنك بالمثل لم تحضر شيئًا معك، تُرى هل...

– لا، لم أتخلص منها.

– إذًا؟

– هذه قصة أخرى.

برد الماء وذهبت إلى المطبخ. قدمتُ إليه الماتى، ولكنه لم يرغب فى احتسائه. وحكى لى دون أن أصر على دفعه لإخبارى أنه رفض بيع البصل بالسعر الذى عرضوه عليه، وذلك ليتمكن على الأقل من تحمل الخسارة، وحينئذ اقترب منه شخصان ليعرضا عليه علب الزيت الأرجنتينى فئة خمسة لترات، وبسعر بدا له جيدًا.

– لا أملك نقدًا.

– ممكن أن نقوم بمقايضة، الزيت مقابل البصل، وسنقدم لك زيادة فى السعر عمًا يعرضه الآخرون.

أجرى بعض الحسابات وأدرك أنه لن يسدد فقط، بل ربما يكسب أكثر مما لو باع شحنة البصل بالسعر الذى رغب فيه.

بيع الزيت أكثر سهولة فى القرية، وبالمثل لا يوجد احتمال لأن يتلف مثل السلع الأخرى. فقبل الصفقة. قاموا بتفريغ حمولة البصل ورفعوا علب الزيت. بدأوا رحلة العودة بعد تناول إفطار شهى، معتقدين أنهم تجنبوا جزءًا من الفشل الذى كان وشيكًا. وبينما يتضاحكون، تم توقيفهم فجأة من قبل سيارة دورية حكومية نزل منها رجلان بزى مدنى وشرطيان مسلحان بالكامل تقدموا بصفتهم من إدارة مكافحة التهريب.

طلبوا تصاريح الجمارك بطريقة فظة للغاية، شرح لهم رامون بالضبط ما جرى، إلا أن المفتشين لم يرغبوا فى تفهم الأمر، إما الأوراق القانونية أو المصادرة أو اللجوء إلى قسم الشرطة حال الاعتراض. وبينما تظاهر أحدهم بتسجيل الواقعة، قام الآخرون بتفريغ حمولة الزيت من الشاحنة بمعاونة رجال الشرطة. غادروا المكان، غير أن رامون شاهدهم يضحكون فيما ينقلون البضاعة إلى نفس المكان الذى أجريت فيه المقايضة. حل الظلام فأنرت المصباح. راحت عن وجهه علامات الإنهاك التى كدرتنى وأشعرتنى بالقلق عليه. أغلق عينيه والتزم الصمت.

شعرت أنه يرغب فى الموت، خرجت لأعد طعام العشاء. حين رجعتُ نبهنى صوت إلى بكائه فيما يحلم.

بعد أيام قليلة من غلق المبرد، انتقل رامون سيجوبيا وزوجته كريستينا إلى "باريريتو"، إلى منزل تحيط به ثمانية هكتارات من أشجار الفواكه. وفى خلال عام ترعرعت أشجار المانديوكا والذرة والقطن وغيرها، فضلاً عن ثلاث بقرات حلوب وستة خنازير، وعشرات من الدجاج. لا تكلفهم تغذية الدجاج إلا زراعة ما هو ضرورى ويساعدهم فى كل شىء مانويلا شقيقة كريستينا وسباستيان أحد أبناء عمومة لهما، ورافقاهما خلال الانتقال. يتألف المنزل من أربع حجرات وفناء كبير يستخدمونه فى تخزين المحصول وتجفيفه فى الشمس. اليوم الذى قرر فيه رامون ألدينا بيع أرضه فى سان أنطونيو مضطرًا للحاجة وللضغط السياسى، تملكته مشاعر الحزن والاضطراب. كان الأمر بمثابة ترك قطعة من حياته التى ضربت بجذورها فى هذه القرية التى استقر بها فى شبابه ليصنع مستقبلاً

له. والمبرد التجارى كان فرصة طيبة ليحقق هدفه. عاش مع عائلته فى "كاتابا" وكله أمل فى مغامرتها لكنه كثيرًا ما أخفق. ظل فى المدرسة إلى المرحلة الثالثة دون أى نشاط سوى زراعة الأرض العصيَّة، وفى النهاية يحصد الفائدة تجار الجملة، ترك قريته وودع أبويه وأشقاءه. استضافه أحد الأقارب فى منزله فى العاصمة أسونثيون إلى أن عثر على عمل يقتات منه. لم يهدر الوقت والتحق بإحدى المدارس الليلية للكبار فى الحى. بلغ من العمر وقتها ١٧ عامًا. اجتهد فى الحصول على عمل إلى أن التحق بشركة لتصدير الجلود، وأدى العديد من المهام بها. وحين أنهى المدرسة التحق بالمعهد الوطنى بالعاصمة فأنهى المرحلة الثانوية. وعلى الفور التحق بفصول دراسية فى المحاسبة. وفى العام التالى أخبره صديقه عن فرصة للعمل بالمبرد فى سان أنطونيو، منطقة قريبة من العاصمة، ومفترض أنهم سيدفعون له راتبًا جيدًا. وذهب إلى هناك. كان الراتب بنفس قيمة شركة التصدير، لكنه اعتقد أنه ربما يجد فرصا أفضل للترقى بناء على رأى رئيس العمَّال. وأتاحت له معارفه البسيطة أن يعمل فى المجزر كمساعد حسابات. وكان عمره فى ذاك الحين ٢٧ عامًا. ولم يلبث أن تعرف على كريستينا.

كان ذاك خلال إحدى الحفلات الراقصة التى تُنظم فى الشركة مرتين فى الشهر وبالتزامن مع القبض. كانت فى الثانية والعشرين من عمرها، تعمل فى نفس الشركة، فى ذلك الوقت شعرت أن فراشات زرقاء تطير من قلبى ناحيتها. تنهدات وزفرات ترحل نحو هذه الشابة السمراء دقيقة الحجم، وبخدها الأيسر غمازة تتألق حين تبتسم، وبالمثل عيناها عميقتا السواد المتلئتان بالحيوية. رافقها خطيبها خلال الحفلة وأحاط بها كحلقة من الأشواك تحول دون أن يقترب منها أى شخص. قلت لنفسى: لا شك أنها له، له فى الحياة والموت، أما الرجال الآخرون فلن يسعدوا سوى بالنظر إليها عن بعد.

كان يُدعى رينالدو بينيتث. تصرف بشكل لائق تمامًا أمام خطيبته وجمالها الآخاذ. كيف لرجل قبيح مثله أن يحظى بمثل تلك الفتاة الحسناء. كان قصير القامة، وصاحب بطن ضخم، وشعر أشعث، وعيناه بارزتان، شفتاه رفيعتان كأنهما غير موجودتين. على الرغم من ذلك فإن ضحكته بدت عذبة وجذابة ودلت على نبل نفسه وثباتها. كان يقطن أسونثيون ويزور خطيبته يوم الثلاثاء والسبت والخميس من كل أسبوع من السابعة والنصف إلى العاشرة.

لكنه لم يظهر يوم الثلاثاء أو الخميس كما جرت العادة. أما كريستينا التى اعتادت أن تراه وتبادله الضحك، فقد شعرت بالقلق وقررت المغادرة إلى أسونثيون للبحث عنه. فى تلك اللحظة ظهر شقيقه معلنًا نبأ اعتقاله المفاجئ من منزله من قبل الشرطة ليخضع للتحقيق. أعادوه بعد ثلاثة أيام جثة إلى أهله، وعلى جسده آثار تعذيب. وجهوا إليه تهمة الانتماء إلى جماعة مسلحة منشأها العاصمة، مثلما أفاد البيان الذى أصدرته وزارة الداخلية ونقله عنها مقر الشرطة. أما سبب الوفاة الرسمية فكان "قصور فى وظائف الرئة". بلغ الحزن مبلغه من كريستينا. اعتدت رؤيتها فى مكتب العمل، أخبارى كانت تسليها، سواء تلك فى العمل أم المنزل، اعتدنا الحديث لساعات طويلة، مديرها الجرينجو – وكان طويلاً نحيفًا– اعتاد أن يعاملها بلطف كنت أشعر بالقلق حين أراقب نظراته وهو ينظر إليها. لكننى بعد ذلك شعرت بالارتياح حين أخبرتنى كريستينا أنها لا تتحمل الطريقة التى يعطس بها مديرها بصوت عال وبشكل متكرر، فضلاً عن أنه يبصق فى سلة المهملات ويضع أصابعه فى منخاره. فى ذلك الحين داهمنى حبها مثل طوفان هائج يجرى فى شرايينى. آمالى كانت تتبلور أحيانًا فى نظرتى إليها، أو ابتسامتى أو حتى سكونى. ولكن جال بخاطرى فجأة موقفها منى وما يشعر به قلبها تجاهى. انتابنى هلع شديد من ذلك، لكننى عجزت عن مواجهة نفسى، اعتدت رؤيتها كثيرًا خارج المكتب، كنا نتحدث طويلاً عن موضوعات مشتركة بيننا، ولكن لم تتح الفرصة – أو هكذا تخيلت أنا – لنتحدث عما رغبتُ فيه بشدة أوشكت فى أكثر من مرة أن أحدثها عمًا يختلج فى صدرى، لكننى كنت أتراجع فى آخر لحظة خوفًا من شبح الفشل. لاشك أن الإجابة كانت ستشفى ظمأى، ولكن الرفض للأمل الذى تعلقت به سيكون قادرًا على تدمير روحى. كنت على وشك أن أتم ثلاثين عامًا، العمر المثالى للتفكير فى الزواج وإنجاب الأطفال، ومنذ اليوم الأول للعمل فى المبرد، قررت الادخار وشراء أرض أبنيها وأعيش عليها وأدفن فيها. وحتى إن أغلقت الشركة وتخليت عنى، فسأبحث عن فرصة عمل فى العاصمة، وأواصل إقامتى فى سان أنطونيو. لم أفكر فى العودة إلى كاثابا، لن ينتظرنى هناك سوى العمل فى أرض لن تطرح إلا أقل القليل اللازم للطعام. لن يشق الأمر علىَّ، لأننى اعتدت على ذلك منذ الصغر. والآن أعمل فى شركة ولدى زميلة تثلج صدرى وتُدخل على قلبى السرور فى ذاك الوقت. وهكذا سأبقى فى سان أنطونيو إلى أن توافينى المنية.

أعيش فى شقة صغيرة تؤجرها الشركة إلى العاملين بها، فى مجمع سكنى يطلق عليه "لا أثيرا"، لاصطفاف وحداته فى صف واحد، على مقربة من مكان المصنع. وهو جزء من مستويات ثلاثة تنقسم وفقًا لشرائح الموظفين. ففى القمة الشاليهات الأنيقة، وتقع فى منطقة بعيدة عن مكان العمل، ويقطنها الموظفون المهمون وأغلبهم من الأجانب، وملحق بها حمام سباحة، وملعب تنس وكرة قدم فضلاً عن فندق وقاعة خاصة للاجتماعات الفنية والاجتماعية، أما فى المناطق الأكثر وعورة فتأسست بيوت من الخشب بدون كهرباء أو مياه. وإذا ما استقرت نيتى على الزواج من كريستينا – فإلى الآن الأمر مجرد نية – فلن أتمكن من جعلها تعيش فى هذه الشاليهات. أما المنزل الذى يعيش فيه أعمام كريستينا فيقع وسط أرض شاسعة مزروعة بالأشجار. ولاشك أن كريستينا سترغب أن تعيش فى مكان مماثل، حتى لا تتجاوز آمالى الخيال. وبعد بحث وجهد حثيث وقع اختيارى على قطعة أرض من أربعة قراريط بمكان مرتفع، يمكن من خلاله الاستمتاع بمشهد النهر. بلغت مدخراتى سبعين فى المائة من القيمة المطلوبة، واتفقت مع المالك على تقسيط ما تبقى فى دفعات متساوية على مدار ثلاث سنوات.

بعد مضى وقت على وفاة خطيب كريستينا، اعتاد رامون زيارتها يومين فى الأسبوع. حاول دون فائدة إخفاء خفقات قلبه. تسربت فى إيماءاته وابتساماته دون التعبير بالكلمات. بحث رامون فى عينيها عن إجابة، لكنه لم يجدها. لم يجد برودة فى نظراتها، ولكن أحيانًا يظهر بريق، لكنه سريعًا ما يختفى. كانت كريستينا على معرفة بما يشعر به تجاهها، لكن لم يكن باستطاعتها سوى لقاء رامون وتبادل الحديث معه لساعتين فى أجواء صداقة وود.

حين اشترى الأرض ذهب باكرًا إلى بيت كريستينا عما اعتاد من قبل. قال بمجرد إلقاء التحية : أحضرت اليوم شيئًا خاصًا. أجابته كريستينا وقد بدا عليها الاهتمام : اجلس وأخبرنى به. مسح على رأسه واعتدل فى جلسته فى المقعد وقال : وجدتُ اليوم الأرض التى كثيرا ما بحثتُ عنها.

– أخيرًا. أجابته وقد ارتسمت على وجهها هذه الابتسامة التى تسحر قلب رامون.

– أرض كافية لزراعة جنة النباتات الصغيرة والأزهار و...

– و؟

– ووجودك. أجابها وقد أفضى بمكنون قلبه بالكامل.

– وكيف لا، أحبّ أن أراها.

– ولكنها لك، لتبقى بها.

– لاشك، سأبقى الوقت اللازم لرؤيتها.

– لا، ليس مجرد وقت قصير، بل إلى الأبد.

ساد صمت مفاجئ أخرس الأصوات ولكنه أشعل الأمل والشك والترقب. بحثت عينا رامون عن عيني كريستينا اللتين رشقتا البصر في النجمات العالية عند مرمى الأفق. ثم خففت ناظريها إلى محيا رامون نافذ البصر. تسمع أعمامها يتناقشون بشأن الشقيق الذي يعيش منفيًا في الأرجنتين. عمتها متضايقة لأنه يرسل خطابات إلى زوجها. وهي من جانبها تعتقد أنه يفعل ذلك "ليتواصل وحسب"، ولكن ذلك يسبب الخوف، تخبره : ربما لا تعرف أن الخطابات تمر أولاً على الشرطة وقد ترسل أو لا ترسل بعد ذلك إلى أصحابها. لقد حاول الشاب المنفي أن يعود أربع مرات قبل ذلك. وفي كل مرة نجحت الشرطة في الإمساك به وترحيله بعد التعرض للتعذيب في مقر التحقيقات. إنه متهم بالانتماء إلى الحزب الشيوعي، وهذا غير صحيح، إنه منتمٍ إلى حركة فبراير.

– طلب منها رامون في نبرة بدت كالآمرة : تزوجيني. مدفوعًا بخليط من مشاعر الشك والقلق وأمسيات السهاد.

– اعتدت أن أستمتع بقصصك المسلية ومشروعاتك المستقبلية أما ما تقوله هذا فقد فاق كل شيء.

– أجابها في نبرة غلبت عليها مشاعر كالغضب وجرح الكرامة :

– هل يبدو ما أقوله هذيانا؟

– لا يا رامون، أرجوك لا تصور الأمر على هذا النحو. من ناحية أخرى، كنت أستشعر ما صرحت به. الأمر أننا لم نتحدث أبدًا...

– نعم، أفهم ذلك. التعبير عن الحب وهذه الأشياء. ربما لم تر فى كل من خلجاتى...؟

كف عن الكلام حين سمع عم كريستينا يغلق الباب. وكما هو اعتاد أن يفعل فى مثل تلك الحالة، ذهب إلى البار ليلعب الورق. خطر بباله العودة مرة أخرى ليفتح الموضوعًا مجددًا أو يعتذر. يتفهم أن تشعر زوجة عم كريستينا بالخوف. ويعلم أن الشرطة تتعقب عائلة من تصنفه من المعارضة. وفى مرات عديدة تصل خطابات شقيقه وعليها آثار الفتح، "ولكن عليها أن تفهم أنه صديقى" هكذا فكر رامون، وهو ما يخبرُ به كريستينا حين تضطرب أفكارها.

– كيف أكتب لأخى ألا يكتب إلىَّ؟

– يمكن أن تفعل ذلك، بأن تطلب إليه توجيه الخطابات إلى صديق.

– هل تعتقدين أن الشرطة سوف تجهل هذه الحيلة. جميع المراسلات تحت المراقبة وخاصة الآتية من الأرجنتين. ربما أنك لا تعرفين ذلك؟

– طبعًا أعلم ذلك، ولهذا أشعر بالخوف.

دفع رامون مقعده ليقترب من كريستينا ونظر إليها فى عينيها بعمق : أعتقد أنك على وشك أن تقولى لى شيئًا؟

تحاول كريستينا أن تكسب وقتًا للمراوغة : عن أى شىء؟

– عمَّا كنا نتحدث عنه؟

– ولكن هكذا فجأة...

– منذ عامين.

حاولت كريستينا بسكونها وهدوئها أن تخفف توتر رامون، الذى يفهم محاولتها.

قال بعذوبة : أتحدث عن زواجنا.

– فلتتحدث أنت.

– كيف ذلك؟ ألم تسمعيني؟ ألم تعيرى ما قلته اهتمامًا؟

– نعم، لقد سمعت.

– حسنًا فلنتحدث. أنا بالكلمات وأنت بالصمت. هل ستواصلين هكذا؟ إلى متى؟ حسنًا. حين يحضر عمك سوف أخبره عن نيتي وسبب حضورى إلى المنزل.

– إنه يعرف منذ زمن.

– كيف ذلك؟ منذ متى؟

– منذ عامين تقريبًا.

– إذن أحدثه اليوم.

– اليوم! من جانب آخر، فهو قرارى أنا.

– بالطبع. ولكن يجب أن تعرف عائلتك، الذى جاء بى إلى هنا. إلى الآن لا يتعدى كونه افتراضات.

– رامون، أدركت زوجة عمى الأمر منذ اليوم الأول، وبعدها عمى، لفتا انتباهى أنك ستطلب الزواج منى.

– نعم، لكن...

– وهل أخطئا؟

– منذ عامين.

وجد عم كريستينا طاولة اللعب مشغولة، فجلس إلى البار وطلب البيرة. راقب اللعب عن قرب ثم ما لبث أن تلهى عنه. دعاه أحدهم ليجلس إلى طاولة قريبة، لكنه فضل أن يبقى بمفرده. أو بمعنى أفضل مع أخيه.

لم أراه منذ ثمان سنوات. أعرف أخباره من الخطابات التى يرسلها، ولكننى أشك. فى الأخبار الطيبة التى يطمئننى بها بشأن صحته وعمله ووضعه الاقتصادى. لديه قوة وعزيمة ولكن فى المنفى تضعف الصحة والهمة.

بسبب الحنين للبلاد، لقد تحدى الدكتاتورية فى ثلاث مناسبات وحين يخبرنى فى خطاباته أنه سيسافر إلى "كلورنيدا" لأغراض سياسية، أعتقد أنه يفعل ذلك ليشاهد أسونثيون، ليرى المبانى على ضوء القمر فى الضفة الأخرى للنهر، قريبة وبعيدة. فالمسافة مقدرة بناء على هوى الدكتاتور الذى لا يدرك حتى وجوده، وأبعد من ذلك العقوبات الواقعة عليه. كان قرارًا بوليسيًا متعسفًا، من قبل نموذج سياسى يواجه بصمت.

يتراهن من يلعبون الورق ويبدأون دورًا جديدًا. طلب خوليو برلاتا – عم كريستينا – شرابًا آخر. يبلغ من العمر ٦٤ عامًا، متوسط القامة ويبدو أقصر مما هو عليه لبدانته ورأسه الأصلع. يتحرك ويتحدث ببطء. بدا وكأن كل كلمة تخرج منه تخضع لحساب دقيق، وخاصة حين يكون غاضبًا، ومع زوجته دون أى شخص آخر. فى هذه اللحظة تنطلق الكلمات دون توقف ويجرح الضحية التى تتلقى عباراته. ولا يرجع إلى هدوئه إلا بعد فعل ذلك، وهو ما تستغله الزوجة لتندفع على النحو نفسه بأسلوب مشابه، حينئذ يدفع برلاتا الباب ويذهب إلى البار. وفى هذه اللحظة تلح عليه ذكرى أخيه المنفى رافائيل برلاتار الذى يصغره بثلاث سنوات. بعد خمس سنوات عمل كان فيها رئيس عمَّال فى المبرد رأى المدير يخرج من مكتبه ومعه علم باراجواى. ألقى به فى القمامة بين أشياء أخرى. استطاع رئيس العمال أن يطفئ النيران بدلو مياه وينقذ العلم، ولكن دون الجزء العلوى أحمر اللون، وجزء من الوسط واللون الأبيض. شعر بالحنق وجمع العمَّال البالغ عددهم مائة وعشرين فردًا، وأخبرهم بالإهانة التى لحقت بوطنهم، وعمل على إثارة غضبهم. اتفق معه بعضهم، ولكن البقية تراجعت إثر ظهور المدير العام الذى ظهر شابكًا ذراعيه إلى جانب الخطيب المفوه بعباراته النارية، والذى لم يفقد ثقته بنفسه، على العكس وجه له الا تهامات صارخًا بأنه قد أهان بلاده بقيامه بحرق العلم.

أجاب المدير العام الأجنبى، محاولاً ضبط لكنته فى الإسبانية : أى علم؟

– حرك العلم أمامه وأجاب : هذا؟

– ألوان علم باراجواى ثلاثة، وهنا اثنان فقط.

– لأنك حرقت الجزء الثالث.

– لا، أنت لا تقول الحقيقة. لم يكن هذا علمًا، بل مجرد خرقة.

– أيها الرفاق، هذا الجرينجو الأجنبى يكذب. لقد كان علم باراجواى.

– لقد كانت خرقة، عودوا إلى أشغالكم، ولن تكون هناك مشكلة.

عاد الجمع لأداء عمله. وبعد نصف ساعة، تم استدعاء رئيس العمال برلاتا من قبل مدير إدارة العاملين، وتم الاستغناء عنه. وأثناء ذلك، زار المدير العام رئيس الشرطة ليخبره عن طرد أحد مثيرى الشغب.

– اقترب رامون بمقعده شيئًا فشيئًا، وقال : لقد أتيت اليوم وأنا مصمم على الحصول على إجابة، ولا يهمك إذا ما كانت الرفض، على أن قلبى متعلق بأمل الموافقة.

– لن أقول لا يا رامون (تنهد رامون) غير أننى لن أوافق أيضًا. دعنا اليوم نتحدث بشأن مستقبلنا، والأهم بالنسبة إليك ولى، كنت أعلم أننا فى لحظة ما سنناقش هذا الأمر.

– حسنًا، لا شك أنك فكرت فى الإجابة.

– ربما تكون محض خيال. لابد أن أواجه الخيال بالواقع.

إننى أرى الموقف من وجهة نظر مختلفة. على الأقل اتركنى أسبوعًا لأفكر مليًا فى هذا المشروع.

– حسنًا، ومتى تبدأين فى التفكير.

– منذ الآن.

يلتزم رامون الصمت. يبحث عن شىء يقوله، لكن عقله لا يستجيب.

شعر بفراغ داخلي. وفجأة يخطر شيء بباله.

– وماذا عن عمك المقيم بـ بوينوس أيرس...

– نعم.

– هل تذكرينه؟

– أذكره بالكامل، وجميع عائلتنا تحبه جدًا.

– هل هو شيوعي؟ لا يهمني إذا ما كان كذلك. فهو إنسان يعاني قبل أي شيء.

– إنه من المنتمين لحركة فبراير. بعد أن طردوه من العمل كرس وقته في الكفاح السري. وذات يوم اقتحموا المنزل الذي كان فيه مع رفقائه في أسونثيون وألقوا القبض عليه مع الآخرين.

وبعد شهر قضاه في أهوال تعذيب التحقيقات ألقوا به في مدينة كلوريندا وهددوه ألا يعود أبدًا. أما في الشرطة، فقد سجلوه بصفته شيوعيًا، بناء على أقوال مدير المصنع.

رأوا عم كريستينا يقترب بخطوات مترددة. فتح الباب وأغلقه بعنف، استند بظهره على السور ليلتقط أنفاسه ويقدر على الدخول. اعتدل مرة أخرى ناحية الباب. وفيما يمسك بالمقبض بيده اليمنى رأى رامون.

– كيف حالك يا رامون.

– بخير سيد خوليو، وحضرتك.

– ماذا ترى! لأحيا في هدوء لابد لي أن أخرج من المنزل .. يمسك بالمقبض ويقف مترددًا لا يعرف ماذا يفعل، ينظر يمينًا ويسارًا إلى أن تظهر زوجته وتساعده على الدخول.

كان زفافنا بسيطًا. انتقلنا إلى العيش في "لا أسيرا"، المكان الذي عاش هو فيه. رغب أن يستأجر منزلاً مرتفع السعر، في حين كنا نقدر أن ندخر وننجز منزلنا. لم يكن الأمر سهل التحقيق في البداية، ولكن أمكن توفيقه بصبر. وفي الكنيسة كان بانتظارنا مفاجأة سعيدة جعلتنا ننهمر في البكاء. فيما كنا نسير ناحية المذبح وقف خلف أحد العواميد العم

رافائيل يلوح إلينا بيده وابتسامة واسعة على وجهه. لم نتخيل أنه سيجرؤ على ذلك مع كم الحضور من القرية الذين يعرفونه تمام المعرفة. بالكاد انتهت كلمات الكاهن فيما كنت أفكر كيف جاء ودخل إلى الكنيسة وأشعر بالقلق عليه.

وفى جلبة التهنئة اقترب منا العم رافائيل. عانقنى بشدة عناقًا طويلاً، وعانق بالمثل رامون "ابن شقيقه الجديد" كما قال له. أردنا سؤاله عن أشياء كثيرة ولكنه أخبرنا أنه اضطر إلى العودة. حذره البحَّار الذى أقله على قاربه أنه لن يتمكن من انتظاره، ودعه وسار فى طريق العودة. وبعد أن عانق شقيقه وابنته رأيناه يغادر من باب جانبى وهو يرسل لنا قبلة بيده. استيقظنا مثلما يستيقظ من قضى ليلة مفعمة بعاطفة لا تنتهى. بينما كنا نتناول طعام الفطور ونتأمل المطر فاجأتنا الزيارة غير المتوقعة للعم خوليو. وبدون أن يلقى التحية أخبرنا أنه قد تم اعتقال العم رافائيل حين عاد إلى القارب،وسلمه البحارة إلى الشرطة مقيد اليدين، وذهبوا به إلى إدارة التحقيقات. قال رامون إن بحَّار المركب هو من سلمه.

– ربما أن سائقى التاكسى ومصففى الشعر والعاملين فى البارات وفنيى الكهرباء جميعهم وشاة، فليس من الغريب أن يكون البحارة أيضًا نفس الشىء. يا له من افتقار للحكمة، تصرف يفتقر للحكمة. لم يجد العم خوليو أى كلمات أخرى ليعبر عن ألمه، وفزعه وخوفه. من جانبنا لم نهتم أن شهر عسلنا قد تأثر بهذه الفجيعة. ستكون لنا مستقبلاً أوقاتًا أكثر سعادة. كل ما يهمنا هو معرفة مصير العم رافائيل. لم نكتف بمعرفة ترحيله إلى إدارة التحقيقات. استقلينا حافلة العصر، بدافع من رامون، مدفوعين بالرغبة فى معرفة أى شىء عنه. لم تصل إلينا أخبار عنه إلا بعد ثلاثة أسابيع وتأكد أنه بالتحقيقات. لا أكثر ولا أقل. عبثًا ضاعت كل جهودنا لمعرفة حالته الصحية، أو تهمته أو الوقت الذى سيمكث فيه هناك، إلخ. أردنا أن نتكلم مع رئيس التحقيقات، ولكن مساعده كان يصرفنا دائمًا بقوله: "إنه مشغول". أما رئيس القسم السياسى فأخبرنا ألا نصُر على السؤال لأن شيئًا لن يتغير. وهكذا على مدار أسبوعين متتاليين إلى أن شاهدنا صورته فى الجريدة بصفته من الإرهابيين الخطرين. وأفاد التقرير الصادر عن شرطة العاصمة أنه "المسئول" عن تفجير القنبلة التى انفجرت فى مقر وزارة الداخلية. كنا على يقين من براءته لأن التفجير تم بعد ثلاثة أيام من تاريخ تسليمه من قبل البحارة إلى السلطات. وبعد مرور ستة أشهر، وهو

الوقت اللازم لالتئام جراح تعذيبه، نقلوه إلى مركز شرطة آخر استطعنا أن نزوره فيه مرة أسبوعيًا. شعر رامون بعد الزيارة أن إحساسه بالإهانة يتفاقم بعنف. لم يمنعهم شيء من الانتقام منه بأن ينسبوا إليه التهمة التى تروق لهم.

حلّت فترة زاد فيها الطلب على منتجات البراد والمصنع من الخارج، فزاد دخل الموظفين خاصة مع الساعات الإضافية. عجّل رامون وكريستينا من إنهاء منزلهما ليتمكنا من الانتقال إليه متى أصبح قابلاً للسكن. حانت هذه اللحظة على الرغم من أنه لم يكتمل نهائيًا. أصبح له سقف، أمّا كسوة السقف والانتهاء من بقية الأعمدة وكل ذلك فسيستلزم وقتًا أطول نظرًا لارتفاع التكلفة. اضطر إلى إكمال التسقيف بفروع الأشجار الجافة حتى يتمكنا من الانتقال إليه مدفوعين بحماس زائد.

– قال رامون : سوف تحمينا من الشمس والمطر، كما أنها ستمنحنا طراوة فى الصيف، ودفئا فى الشتاء.

– ليست هناك حاجة لإقناعى، أنا أيضًا مصممة على الانتقال. كما أن هذا سيسمح لنا برعاية النباتات وتحسين ظروف المنزل.

وصل إليهما خبر انتقال العم رافائيل إلى المستشفى من خلال الشرطة المحلية، بعد شهرين من انتقالهما لمنزلهما الجديد، وكانت الشرطة قد قررت إخلاء سبيله. كانا يعرفان أنه دخل فى إضراب عن الطعام فى زنزانته. حجبوا عنه الزيارة بعد ستة أيام، وهو ما أكد لهم تراجع حالته الصحية، ولكن ملأهما الأمل ألا يفقد حياته. وانتشر الخبر فى البلاد. صعد خوليو برلاتا صاحب متجر النجارة والأرضيات الخشبية إلى شاحنته. ومر على رامون واصطحبه معه فى طريقه وهو خارج من المصنع. كان سعيدًا بحرية أخيه يُشعر بالقلق على صحته. تمكن خوليو من توقيف السيارة، وقفز رامون منها واقترب من الحارس الذى نادى بدوره على المريض المنوط بحراسته، أراد رامون الحديث مع الطبيب لكنهم أخبروه أنه لن يعود قبل اليوم التالى.

– أمره الممرض : ساعدنى، سوف نحضره على تروللى المرضى.

– لا يستطيع السير؟

– حاليًا لا، ولكن ربما فى المستقبل يستطيع السير اتبعنى؟

تمكنا من إدخاله السيارة بصعوبة، بعدها شعر رافائيل برلاتا بقليل من الحماس خلال الطريق. يرغب فى الحديث ولكنه لا يقدر، تخرج الكلمات وكأنها عناكب تجرح حلقه. يطلب منه رفيقاه ألا يرهق نفسه بالحديث، وأن الوقت متاح ليتحدث بعد ذلك كما يريد. إلا أن المريض يصر على الكلام، روى لهما كيف رحلوه إلى المستشفى منذ خمسة عشر يومًا، وسط تهديدات عنيفة لكى يتخلى عن الإضراب عن الطعام. "أخبرتهم أننى سأفعل ذلك حين يطلقون سراحى".

– يقول رامون لمجرد أن يبادله الحديث : حسنًا، والآن أنت حر.

– نعم حر، ولكننى لم أدخل مقر الشرطة وأنا بحالتى هذه.

تمكن رافائيل برلاتا من طلب اللجوء إلى السويد بمساعدة الصليب الأحمر، وذلك ليتولى رعايته ولكى تبرأ جراحه العضوية والنفسية. بعد وقت قصير لحقت به زوجته وابنه الأصغر الذى كان مقيمًا فى بوينوس أيرس. أما الابن الأكبر فتولى مخبز العائلة.

تأثر رامون بشدة مما وقع لعمى. فمنذ أن عانقه بحرارة يوم الزفاف ارتبط به بشدة. شعر بقلق شديد على المعتقل السياسى المضرب عن الطعام الذى يعانى معاناة لا آخر لها. منذ تلك اللحظة تولد بداخله إحساس جديد، اهتمَّ بالمعتقلين والملاحقين من قبل الشرطة والقضاء بتهمة التخريب. بدا وكأنه عثر على مواقف لم يرها أبدًا من قبل. الحقيقة أننا لم نكن نهتم بالشأن السياسى، أو بمعنى آخر، لم نكن نعى الأمور فى نطاقها الصحيح إلا بعد أن شاهدناها رؤى العين. حين كان أحدهم يقص علينا نبأ اعتقال شخص فى إدارة التحقيقات كنا غالبًا ما نعتقد أنه قد فعل شيئًا ما. وهكذا كنا نبرر الاعتقال والقمع. ولكن حينها أدرك رامون أن لا مبالاته كانت تؤجج تجاوزات الحكومة. لم يلتحق بالمعارضة النشطة أو حزب بعينه أو حركة معارضة، ولكنه تحول إلى النقد اللاذع والتعليق الساخر شديد اللهجة لكل ما يجرى يوميًا. حذرته مرات عديدة من الحديث أمام أشخاص قد يبلغون عنه، الحق أنهم قاموا بذلك بالفعل. استدعاه رئيس الشرطة أكثر من مرة ليحذره أنه بصدد الانجراف إلى طريق خاطئ، لكنه لم يحتاط لنفسه. أصبح يتأمل ما حوله بنظرة جديدة، وتساءل كيف عاش كل هذا الوقت معصوب العينين؟ اعتاد القول : لقد كنت أعمى، بل أسوأ من ذلك، لم

يكن لدى حتى بصر المتعصب. الذى يرغب فى معرفة نصف الحقيقة، لم أنظر ولو إلى نصف الحقيقة، كنت السلبية بعينها، حدثت حولى فظائع، وستواصل الوقوع، ولكننى هذه المرة سوف أسجل ما يحدث. راقب رامون نقده اللاذع للسلطة بضغط من مراقبتى المستمرة له، واعتاد فعل ذلك أمام مؤيدى الدكتاتورية القادرين على تسميم حياته، ولكن من وقت لآخر كان يطلق نقدًا شديد اللهجة ليخفف غضبه. وهكذا نظر متأملاً التجاوزات التى تقع فى المصنع على يد هؤلاء الأجانب الجرينجوز – كما كان يطلق عليهم – الذين لا يلتفتون لقانون العمل. اعتادوا التجاوز فى حقوق العمَّال. وتسبب تعرض عاملة لانتهاك جنسى من قبل أحد الرؤساء إلى أن تتمخض لديه هذه الفكرة، أو ربما أنها اختمرت قبلاً بناء على حوادث سابقة، فكرة تأسيس نقابة للعمَّال تمثلنا وتدافع عن حقوقنا. حدثنى عن الفكرة كأنها رؤية سحرية. اكتملت بخياله فكرة تكوين قوة ضاربة للعمَّال، قادرة على إرعاب الجرينجوس الأجانب، وبعد ذلك تضم كل العاملين فى البلاد فى كيان واحد لهدم الدكتاتورية وتجاوزاتها. وأخذ يردد "سترين، سترين" ، حاولتُ جاهدة إلهاءه عن الفكرة بأى شكل، واستقرعزمى على استكمال كساء السقف بحجر القرميد. قال لى : سوف أهتم بذلك. وأدركت من نبرة صوته غير المهتمة، أن الموضوع سوف يتأخر، ففروع الأشجار تجعل الهواء منعشًا داخل البيت، لكنها لا تزال مصدرًا للخطر. ذهب ذاك اليوم إلى منزل العم خوليو ليخبره بفكرة النقابة عاد محبطًا بعدما سمع التعليقات التى بدت حكيمة وتصر على عدم تأييد الفكرة. إلا أن هبوط الهمة لم يلازمه سوى وقت قصير. أحضر فى اليوم التالى بمساعدة صديق له فى أسونثيون "قانون العمل" و "الدستور الوطنى" ، و "الميثاق العالمى لحقوق الإنسان" ، ولا أذكر بقية الوثائق، لكنه عكف بعد ذلك على استذكارها بعناية. وحين أدرك أنه أصبح على دراية وثقة بأنه لن تكون أية معارضة لخططه التى ستسير وفقًا للقانون، نادى رفقاءه فى العمل الأكثر ثقة. كان على يقين من أهمية تأسيس النقابة، لكنهم لم يرغبوا فى المخاطرة بتكدير القيادات فى ذاك الحين. أخبروا رامون :

"ولماذا ألا ننتظر فترة أخرى، قد لا يكون من الحصافة أن نخرج هكذا على هذا النحو، يجب أن نمهد الطريق بحكمة وذكاء" . كنتُ أتفق معهم فى الرأى، إلا أن الفكرة إذا عنَّت لرامون فلا أحد بقادر على زحزحتها.

ظل يواصل حديثه مع الرفاق من أقسام أخرى، إلى أن استغنوا عن خدماته ذات يوم، وهو ما كان متوقعًا. أجبروه على توقيع تخليه عن العمل فى مكتب رئيس العمَّال. جاء الأمر من مكتب التحقيقات بشرطة العاصمة. ومما يثير الدهشة أنه وصل إلى المنزل وكأن شيئًا لم يحدث. بل أكثر من ذلك، بدا متحمسًا لإنجاز ما عزم عليه. ثم قال : الشدة هى أفضل الطرق للمضى قدمًا.

ساءت الأوضاع بعد أن أغلقت الشركة المصنع "لأجل غير مسمى". وروَّج بعض العمَّال بشكل غير رسمى، أن المصنع لن يفتح مجددًا، وفقًا للتعليمات التى أقرتها المكاتب المركزية فى الولايات المتحدة.

قال رامون : هذا أفضل، فى نهاية الأمر وبعد ستين عامًا ظلت أبواب المصنع مواربة. دائمًا ما بدا مصنع متوسط القيمة والأداء. وفى أفضل الأحوال فإن موسم زراعة القصب لا يتجاوز ستة أشهر.

– قاطعته كريستينا : رامون، فلنذهب إلى سانتا روسا.

– متى؟

– لنستقر هناك. تعرف أن هذا هو الحلم الوحيد لأبى وأمى. لم يعد لنا هنا أى شىء.

– تحدث رايموند فلوريس –الموتور المحرك فى باريريتو– إلى جيرانه عن ضرورة الحاجة إلى العمل الجماعى. أخبرهم أن العمل الفردى "يحبط الهمم، ويجعلنا عاجزين عن حماية أنفسنا إزاء استغلال السلطات، والسياسيين وتجار الجملة". أصبحت الفرصة متاحة للعمَّال ليتحدوا بعد أن قامت الحكومة بقمع احتجاجات الفلاحين بوحشية لاعتراضهم على فقد أرض ذات ملكية عامة، تمكنت السلطات منها بجشع فانتزعتها وانتفعت بها. والتجأ بعض المتضررين – ما بين التشكك والخوف – إلى رايموند وفلوريس فى منزله لكى "يتدارسوا الأمر". كان الاجتماع قصيرًا بسبب توتر المجتمعين، لكنهم خرجوا بنظرة مختلفة، برغم أنها بعيدة عن الواقع. حاول رايموندو فلوريس ألا يستغل موقفهم، وأدرك أن بذرة الحماس تتولد لدى الجيران. وحين تنامى إليه أن البعض قرر أن ينفذ "وقت الفجر" بعض أعمال التخريب مثل قطع الأسلاك وحرق الأعمدة، توسل إليهم ألا يفعلوا ذلك. ونصحهم "سوف نخسر خسارة كبيرة بهذا التصرف، فنحن قلة مستضعفة".

وناقشوا فى الاجتماع الآخر مشاكل أخرى، ولم يقتصر الأمر على انتزاع الأرض وحسب، واقترح أحدهم ضرورة استمرارية هذه الاجتماعات، مضيفًا : "على أن تكون فى الكنيسة وبحضور الكاهن" . جاء هذا الاقتراح على خلفية الأخبار التى تم تداولها بشأن حظر الشرطة للاجتماعات، فحتى هذه اللحظة لم يتم الحظر فى أماكن العبادة تحت حماية السماء. كانوا على يقين أن الكاهن سيقبل، لأنهم بالمثل يناقشون نفس الأحداث التى تقلقهم أيضًا. يأتى الكاهن "باى آيالا" أيام السبت من القرية ليجتمع بهم ويقدم الموعظة للشباب. قبل بترحاب لقاء المزارعين لمدة ساعتين لكى يناقش معهم القضايا التى تقلقهم. وأخبرهم : "إن قلقكم هو نفس قلق الكنيسة التى تهتم لأمركم، فالكنيسة اليوم تتولى بإنجيلها قضايا حقوق الإنسان" . تمت الاجتماعات فى الكنيسة وكانت تبدأ بالصلاة وتنتهى بابتهالات وترانيم تؤدى بصوت مرتفع يسمعه الجيران. بعد ذلك يناقشون بصوت خفيض القضايا اليومية وشئونهم. وصل االكاهن باى آيالا فى السبت الرابع وبرفقته أسقف مؤسسة التبشير وكان يسوعيا إسبانيًا يُدعى فرانسيسكو. وفى لقاء آخر، ناقشوا اسم المنظمة، وبين أسماء عديدة، وقع اختيارهم على "رابطة التعاونيات الزراعية المسيحية" . ومنذ ذاك الحين نشطت اللقاءات لمناقشة قضايا الاقتصاد والسياسة. فى الوقت نفسه كفَّ بعض الأشخاص عن الحضور دون تقديم تفسيرات. وعلَّق رايموندو : "هذا لا يهم، فالبعض يرتعد خوفًا حين يسمع كلمة سياسة" . بقى من الاثنين وثلاثين شخصًا الذين بدأوا حضور الاجتماعات خمسة وعشرون فقط. قال رايموندو : "إنه أمر متوقع، لكننى على يقين أن هناك آخرين سيقبلون على حضور الاجتماعات من أجل حياة أفضل" .

فى الوقت نفسه حثهم الكاهن على دعوة الرجال والنساء ممن لديهم الحماس للمشاركة فى المشروع. وبعد أسبوعين، زاد عدد الحضور المشاركين إلى أربعين شخصًا. واقترح أحد المزارعين زيادة عدد المشاركين من خلال إجراء زيارات منزلية.

فأجابه رايموندو : لا يسمح الوضع الراهن بذلك، لأن كثرة العدد قد تؤثر سلبًا على أدائنا.

تم الاتفاق فى لقاءات تالية على تجزئة أعضاء التعاونيات إلى لجان تتألف كل منها من عشرة أشخاص كحد أقصى، وذلك لضمان أداء منسق وفعَّال. وجاء رايموندو فلوريس على قائمة المجموعة الأولى. وينسق المجموعات الأخرى قادة آخرون مثل رامون سيجوبيا

الذى استقبل بحفاوة بالغة. وتوصلوا خلال اجتماعاتهم غير الرسمية إلى أنهم قادرون على تكوين عشر لجان أو ربما أكثر فى باريريتو. على كل الأحوال لم يرغبوا فى زيادة سريعة فى العدد، بل فى تكوين شركاء أقوياء مقتنعين بالفكرة وبالفوائد الشخصية والعامة لهذا المشروع. واتفقوا على هذا الرأى مع الأسقف والكهنة، مؤمنين بمستقبل ناجح لرابطة التعاونيات الزراعية المسيحية.

يتصاعد فى الميدان الصغير أمام الكنيسة ضجيج احتفال مبتهج بسقوط الدكتاتورية. كان من المتوقع أن تهرع إلى الميدان جماهير غفيرة لتعبر عن سعادتها، إلا أن الأمر لم يكن كذلك. بدا كأن الدكتاتورية رحلت بعد أن لفظتها المواطنة بشكل أو بآخر. والآن المواطنون يعبرون عن آلامهم، ويطهرون النفس من آلام غائرة بها، حتى إنهم التزموا منازلهم. هكذا كانت تأملات إيسابل زوجة ديوينيسيو روخاس. من جانبه علّق على موقف زوجته مشيرًا أن الأمر لا يتعلق بشعور بـ اللامبالاة، بل ربما هو خوف لا حد له، سيتطلب وقتًا حتى يختفى. أو على الأقل إلى أن يقف الوضع الجديد ويترسخ على أرض صلبه، ثم قال لزوجته: "تفصلنا خمسة وثلاثين عامًا عن الفزع والهول. كم يصعب علينا تخيل أننا فى واقع آخر جديد " تتخلل الحوار بينهما أصوات الألعاب النارية، مصحوبة بالتصفيق والتهليل. إلا أن هذه الجلبة – مثلما تراها إيسابل هى كتلة من السعادة والألم الممتزجة بالغضب، مثلما تشعر هى نفسها. تفكر فى رامون سيجوبيا الذى ربما يجب أن يشارك فى الاحتفال. تجده جالسًا أمام المنزل تصل إليه ضوضاء الاحتفالات فى الميدان.

– يجب أن تكون معنا يا رامون.

– إننى دائمًا معكم.

– الآن فى الميدان، هيا بنا سنساعدك.

– أخبرونى أنه لا توجد أعداد كبيرة.

– صحيح، لكننا ننتظر أعدادًا أكبر. لا نفهم ما يجرى.

علق رامون: يقولون إنه مجرد "عزلٌ ذاتى"، لذلك يشعر البعض بالقلق والحذر.

– رؤيتك فى الميدان ستثير حماستهم.

– أرغب فى الذهاب، لكن... تتداعى فى ذاكرتى أشياء كثيرة. ما الذى يجب علىَّ الاحتفال به بالفعل ؟ أجل، إنه سقوط إستروسنر، إلا أنه هو وعصابته سيقعون بلا حركة، نعم سيقعون. وأنا ؟ انظر إلىَّ. بعضهم – لاشك فى ذلك– سيذهبون إلى مكان آخر، ربما أفضل، أما أنا ؟

يعتدل فى جلسته فى كرسيه المتحرك ويغرق فى التفكير. تربت إيسابل على كتفه وتنطلق إلى الميدان بعد أن ألقت بالتحية على كريستينا فى المطبخ. يتذكر رامون سيجوبيا أن "ألبينو ساليناس" وثلاثة من عناصر الشرطة المدنية واثنين من قسم كولورادو دهموا منزله وهو على وشك تناول العشاء مع زوجته وسوشيدى. جذبوه ودفعوا به إلى الخارج فيما أفرغوا خزانات حجرات منزله والأدراج أو أى مكان آخر يصلح لحفظ الأوراق أو الأسلحة.

أسلحة ؟ هل يبحثون عن الأسلحة ؟ لم يكن لدى أى منها. ووثائق ؟ أهى الوثائق التى كنا نثقف وندرب بها الرفاق ؟ باحثين عن طريق الخلاص ؟ المنظمة ؟ لم تغب أبدًا عن بالنا. بالصبر والعمل والإدارة تمكنا من المضى قدمًا بعيدًا بالمقارنة بما أنجزناه فى بداية انطلاقنا. وأدركنا منذ أول وهلة أن الحياة مع الآخرين فى أخوة هى الأساس مثلما علمَّنا الأساقفة، وأيضًا الخيار الوحيد لنبذ الأنانية القادرة على التفريق بيننا. بالرغم من ذلك فإدراك المشاكل لا يعنى التوصل إلى حلها، فى بعض الأحيان يتسبب ذلك فى تضخيمها وتعقيدها لأنه تظهر بالتبعية قضايا أخرى للمناقشة : فكيف يمكن حلها ؟ فى مثل هذا البحث برزت مشاكل أخرى تسببت أحيانًا فى قطيعة وقتية. وأحيانًا تكون القطيعة نهائية، وذلك حين يعجز بعض الرفقاء عن تقبل وجهة نظر الآخرين وبمضى الوقت تكهنا بمشاكل خطيرة، كانت تواجهنا من وقت لآخر، وإن كانت لأسباب متعددة. أخطأت أنا نفسى فى البداية حين أصررت على موقفنا المتشدد من مصالح الزعماء القرويين ذوى السلطة. بالمعنى الدقيق للكلمة، لم نكن قادرين على فعل شىء بدونهم، وبالمثل ضدهم. إلا أننى بعد الحديث مع كريستينا مجددًا اقتنعت بضرورة إعادة النظر لكيلا أكون ممن يتعثرون أمام خطط وبرامج الدكتاتورية المنهجة. وهكذا تشجعنا بخطوات للأمام أكثر من الرجوع للخلف وأسسنا منظمة يتحقق لنا بها الخلاص.

والخسارة أيضًا. نحن الزعماء كان لدينا هدفان : أولهما تهدئة المتسرعين، والثانى شحذ همة المتخاذلين. لم يكن بإمكاننا الهرولة، وبالمثل العمل جالسين فى مقاعدنا. استيقظت أعين السلطات وتعقبت نشاطنا. وساعد على ذلك التعليقات التى انتشرت ووشايات بعض المزارعين أنفسهم.

تذكرت الأسقف فرانسيسكو آيا لا. كان من أوائل من تعاون معنا ووجه خطانا. علمّنا أن المسيحى هو من يعاون الآخرين. حتى ذاك الحين اقتصر مفهومنا عن المسيحية على الصلاة والاعتراف والمناولة.

وباعتناقنا لهذا الفكر، بدا وكأن جماعتنا قد عثرت على البوصلة التى سترشدها للاتجاه الصحيح. بدأ العمل الجماعى الذى جعلنا نقترب من بعض مثل الأشقاء. وحين توثقت معرفتنا زاد اهتمامنا بمستقبل الآخرين، حتى هؤلاء الذين هجرونا، وهكذا هزمنا مشاعر الأنانية. وصلنا إلى هذه المرحلة بعد جهد كبير. وحذرنا كبير المبشرين "بوجارين" ، أن هناك طريقًا طويلاً ينتظرنا. طويلاً وشائكًا، وقدمنا إلى زعماء الحركة النقابية فى باراجواى، وهم المقاتلون السابقون فى "شباب العمال المسيحيون". علمونا القيادة وتنظيم الاجتماعات واختيار الموضوعات ومناقشتها باحتراف وفاعلية، وبالمثل التفكير فى القضايا التى اعتقدنا أنها لا تمسنا، نهاية الأمر تعلمنا كل ما يتصل بالشأن العام والسياسة والأساقفة والعمال وأصحاب الشركات والعسكريين. كما تعلمنا كيف نكون أنفسنا ونزيد معارفنا، والأهم من ذلك : تعلمنا أن نفكر بأنفسنا. هل تتذكرين يا كريستينا؟ يعمل رامون سيجوبيا ورفاقه فى اللجنة التى يرأسها هو، بحماس فائق، كما يمدون يد المساعدة للمنظمات المماثلة وهم على قناعة بضرورة مد الوشائج بين التعاونيات ليتحقق لها النجاح على أرض الواقع من خلال التباحث والدراسة المتأنية. وفى هذا السياق عمل معنا رايموندو فلوريس وزعماء آخرون، ومعهم كهنة ونقابيون. ودرسنا فى الاجتماعات التأثير العكسى لتوسيع التعاونيات فهناك أماكن كانت ترفضها وبدون إبداء أسباب، وفى أماكن أخرى أعتبرت جماعات معارضة للحكومة. فى تلك الأحوال اعتاد الإجابة كل من رامون سيجوبيا ورايموندو فلوريس كما يلى: " نعم إنها معارضة، ولكنها معارضة للعوامل التى تجعلنا متأخرين". وكانوا يواجهون ذلك بسرد خبراتهم الشخصية وأخبار من الصحافة والوثائق ذات الصلة. وهكذا توسعت التعاونيات الزراعية المسيحية فى أغلب المقاطعات وانتقلت من مكان لآخر وتولدت فكرة تأسيس اتحاد فيدرالى يمثلهم ويُكسب

الكيان تلاحمًا يُعضد مشاريعه. الآن التوسع يجلب معه نوعًا من الفُرقة، فقسم الاتحاد الفيدرالي إلى قسمين: واحد ذو طابع دينى والآخر ذو طابع نقابى. وانتمى رايموندو فلوريس ورامون سيجوبيا لهذا الأخير الذى سرعان ما ظهرت فيه تعارضات رامون سيجوبيا وأتباعه، حتى المدعومين من الكنيسة، يحاولون الابتعاد عن حمايتها دون إحداث قطيعة. وتأثر التوازن حين تمت مناقشة خسارة الكنيسة "لأرض الرب" وامتلاكها لأرض أخرى، مثلها مثل أى مالك من هؤلاء الذين يعتبرونهم من الأعداء الذين يهددون رخاء الفلاحين، وتحديدًا الأرض التى يستحيل عليهم التمكن منها وزراعتها.

حين وصلت المسائل إلى نهايتها طلب رامون سيجوبيا الكلمة. بعد لحظة صمت متأنية أشار إلى ضرورة اقتحام أراضى الكنيسة وبدء الزراعة فيها "ليزرع فيها هؤلاء الرفاق معدومى الأرض". علا صوت صفيق حاد، ولكن لم يظهر إجماع على رأيه.

ثم ارتفع صوت ينتقد نكران الجميل للأم التى منحتهم الحياة وعلمتهم خطواتهم الأولى.

قاطعه رامون سيجوبيا: لديك الحق، إنها الأم التى علمتنا كيف نخطو خطواتنا الأولى، ولكننى سأضيف أيضًا أنها فى الوقت نفسه منحتنا الأجنحة لنطير وقد حانت هذه اللحظة.

عاد إلى المنزل ليجد كريستينا تجهز طعام العشاء. حيَّاها بعبارته: يجب أن أتحدث إليكِ.

– إنك تحدثنى بالفعل.

– اجلسى.

– اتركنى دقائق، لا أستطيع أن أترك...

قطبَّ جبينه وبدا عليه التفكير : الأمر جاد.

– شىء آخر ؟

– الموقف مختلف.غدًا سنفرض سيطرتنا على أرض الكنيسة قبل الشروق.

– ماذا ؟ ملكية الكنيسة ؟ هل أنت فى كامل قواك العقلية. نطقت بكلماتها وهى تنتفض.

– لم أكن بعقلى مثلما الآن.

– أراضى الكنيسة ؟ وماذا ستفعلون بها ؟

– سنفعل ما هو طبيعى، سنزرعها.

– ولكن بشكل قانونى؟

– الأرض لا تسأل البذور التى تنثر فوقها هل هى قانونية أم لا. إنها تنبت وتتحول إلى سنابل لكى تغذى الآخرين. الحكومة بنفسها والتى تتعقبنى لا تمل القول إن الأرض لن يزرعها، وهكذا...

– وماذا عن رايموندو فلوريس ؟

– إنه يقود فيدرالية أخرى.

– ولكن رأيه ذو أهمية.

– لا يتفق معنا.

– لا شك فى ذلك.

– لا يهم السبب، لقد قررنا السيطرة على الأرض.

– ولكنها ملكية الكنيسة.

– ستصبح ملكًا للفلاحين المحتاجين لها لقوتهم.

– لن يصبحوا ملاكًا أبدًا، لن يمنحوا الملكية الرسمية لهم.

– صك الملكية اختراع من صنيعة الجشع والأنانية.

– وهل الحل غزو الأرض ووضع اليد عليها ؟

– فى الوقت الحالى ستكتسب عشرون أسرة قوتها من هذه الأرض حتى تصبح دون استغلال.

– ليكسبوا قوتهم من أرض الآخرين؟ كما أنه لا أحد يموت من الجوع فى هذه الأرض.

– لا أحد يموت لأنه لا يجد مكانًا يموت فيه.

– هل فكرتم فى النتائج؟

– نعم فهناك عشرون أبًا سيتمكنون من توفير الطعام لأبنائهم.

– والشرطة؟

– لو أن القساوسة مقتنعين بما يوعظون به الآخرين فلن يتسببوا فى أى عنف.

– رامون، أشعر بالخوف لما يمكن أن يحدث، أرجوك...

– إننى أيضًا أشعر بالخوف، ولكن يجب أن نفعل شيئًا.

– ذلك ما يحدث بالفعل.

– يجب أن نشعر بذلك.

تدير له ظهرها (فى طريقها إلى المطبخ) وتقول : إن المناقشة معك...

فاجأتهم ضربات قوية على الباب حين جلسا لتناول العشاء.

تبادلا النظرات فى صمت إلى أن قام رامون سيجوبيا ونظر من النافذة. تعرف على الفور على الشخص المنوط بتسليم الرسائل العاجلة. إنه "سوسيدى"، أحد الجيران من ذوى الأداء الذهنى المحدود، يتواجد دائمًا فى حالة من عدم التوازن، ولكن فى لحظات ما يستيقظ بذهن متقد. تجاوز الثلاثين بقليل وعيناه سوداوان واسعتان تبرزان بشرته الباهتة. كان يدرس القانون بجامعة أسونثيون الوطنية. سُجن عامه الرابع بالكلية خلال عملية أمنية نفذتها الشرطة لإحباط مؤامرة مفترضة. مارس سوسيدى أنشطة مع زملائه بالجامعة، كانوا يوزعون المنشورات ويرسمون على الجدران جرافيتى ينتقد الدكتاتورية. حين سقط بأيدى رجال البوليس جعلوه يمسح بأظافره الرسومات من على الحائط. وبعد

خمسة أشهر فى التحقيقات، وبعد أن تحمل عذابًا لا مثيل له خلال المدة ألقوه ليلاً عند منزل أسرته فى باريريتو، وقد فقد عقله بالكامل. منذ ذلك الحين لا يجيب سوى بكلمة واحدة "سوسيدى[1]، وما سيحدث قد حدث". وهو شاب ضخم الجثة وخدوم، ويستقبله الجيران بكل ترحاب. حين فتح رامون سيجوبيا له الباب، أخبره ما بين الرعب والخوف أن أندريس دوارتى قد قُتل، وهو فى كلورادو المحلية. وفهم رامون سيجوبيا على الفور أن سوسيدى فى كامل قواه العقلية فى تلك اللحظة.

ربت على ظهره وأخبره: لقد جئت فى اللحظة المناسبة، إننا على وشك تناول العشاء، ندعوك لتأكل معنا.

– جئت من القرية وهناك لا يتحدثون عن أى شىء آخر.

– ومتى وقع ذلك ؟

– يبدو أنه حدث ليلاً، حين عودته من سياق الجياد. يُقال إن الأمر كانت به خدعة.

– كريستينا، هل سمعت ؟

– ما هذا ؟

– جلب لنا سوسيدى نبأ مقتل أندريس دوراتى.

– يا إلهى.

سُمعت على الباب طرقات أخرى، فتوجه رامون سيجوبيا ليفتح... قابل ثلاثة من اللجنة، دخلوا مهرولين.

سأله أحدهم بدلاً من التحية : هل عرفت ما جرى ؟

– أخبرنى سوسيدى اللحظة.

– يجب إلغاء ما كنا سنقوم به غدًا.

---

(١) سوسيدى معناها يُحدث بالاسبانية. وأطلقت عليه هذه الكُنية لم حدث له.

– على العكس، الشرطة بكامل عددها ستكون مشغولة بما وقع اليوم ولن تلتفت إلينا.

– سأل أحد الحضور : وماذا كان هدف القتل ؟ لقد صمم العمدة أن تُصنف الجريمة بأنها عملية إرهابية ضد الحكومة. وإذا أُضيف إلى ذلك تهمة الاستيلاء على الأرض...

– قالت كريستينا : لديك كل الحق. لماذا لا تنتظرون، الأمر يتعلق بشخص مؤثر. ربما يكون وزير الداخلية نفسه...

– قاطعها زوجها : إننى على يقين هذا الحادث فى صالحنا. تذكرى أنهم لن يلتفتوا إلى ذلك، على الأقل حتى غدًا، وأن تقوم الرابطة الزراعية باحتلال أرض... سيكون الوقت متأخرًا لأننا سنكون قد بدأنا العمل وأسسنا الجذور. كما أننا إذا لم تفعل نفقد عنصر التشويق.

بعد أن تناولوا الموضوع بالمناقشة من كل زواياه ومن كل الأوجه، قرروا إتمام المهمة التى خططوا لها. ودع كلٌ منهم الآخر، إلا أن سوسيدى طلب منهم بقاء الليلة هناك.

سارع بهذا الطلب إلى صاحبى المنزل، وهما على معرفة بما يشعر به حين تقع مثل هذه الحوادث والتى تنتهى باعتقالات جماعية سمعاه. يقول وهو يغلق باب الحجرة: "ما سيحدث، يحدث".

مثلما هو المعتاد حين يوشك رامون سيجوبيا على تنفيذ مشروع طموح، فإنه يكف عن الطعام والنوم. بينما كان راقدا فى فراشه وعيناه مغلقتان يخطط لكيفية السيطرة على الأرض والخطوات اللازمة لتحقيق ذلك. يعرف أن الخطوة محفوفة بالخطر، إلا إذا أدرك كاهن الكنيسة مدى احتياج المعوزين لهذه الأرض لزراعتها وسد رمقهم. تداعت فى خياله الأفكار بشأن عرض الفكرة على المجمع الكنسى قبل أن يتخذوا هذا القرار، ويضعوا أقدامهم فى هذه الأرض. الأرجح أنهم كانوا سيرفضون، ولكن ليس بشكل قاطع، ولكن ربما تمكنوا من الفوز ببعض الوعود التى قد تؤدى لتحقيق نفس النتائج. ثم يقول لنفسه: "لا"، من الأفضل مفاجأتهم فى "ميسونيس" لم تعد هناك أرض للزراعة.

سألته كريستينا نصف متيقظة : هل تتحدث فيما أنت نائم، أم أنك مستيقظ ؟

– إننى مستيقظ تمامًا، كما لم أكن أبدًا من قبل.

- حسنًا، حسنًا.

يتخيل رامون سيجوبيا ردة فعل المجمع الكنسي. سينصب الأمر فى احتمالين لا ثالث لهما : القبول بوضع الاستيلاء على الأرض والرضوخ لذلك، وإن كان رغمًا عنهم، والثانى إجراء بلاغ ضد الفلاحين. وفى كل الأحوال فإن المحاولة ستمنح الأرض الاستخدام الواجِب لها. فى أحد اللقاءات السابقة تم اقتراح تقييم قيمة الأرض ومهلة زمنية لتصبح فى ملكيتهم. وهذه الفكرة بدورها ستجعل الأمر بعيدًا عن مظهر الاستيلاء غير القانونى، وستهدأ من روع القساوسة وتثنيهم عن اللجوء للسلطات. يفكر رامون بشكل مستمر فى تبعات الموقف. لو كانوا أجمعوا على تنفيذ مشروع التعاونيات بأكمله فى القرية، لما اتخذوا هذه المبادرة. ووفقًا للخبرات السابقة، هناك مزارعون يبذلون جهدًا حثيثًا ليؤتى عملهم أكله، فيما يستفيد آخرون نفس الاستفادة بالرغم من أنهم لم يبذلوا الجهد ذاته.

نهض رامون سيجوبيا من فراشه قبل بزوغ ضوء الصباح.

- ستذهب ؟

- يجب الالتقاء بالرفاق أمام الكنيسة.

- سأذهب معك.

- لا، ليست هذه المرة.

- فى كل الأحوال سأذهب بعد ذلك.

- بعد ذلك سأكون فى طريق العودة. سيكون بعد أن تعد كل عائلة عدتها.

وجد سوسيدى أثناء خروجه وكأنه بانتظاره.

- هل نذهب ؟

- لا، لو سمحت لى أفضل البقاء هنا لوقت أطول.

- ابق ما شئت، هذا بيتك.

وصل رامون سيجوبيا ولم يبزغ ضوء الصباح بعد، ووجد بانتظاره العائلات التى تم اختيارها من بين المحتاجين لزراعة الأرض لكى يتوجهوا إلى أرض الكنيسة. سينقلون على عربات كثيرة ما يحتاجون إليه من قوائم خشبية وخيم وأدوات ومعدات لازمة لهم. وبدا الأطفال نائمين فى استرخاء على ملاءات وأبسطة تبدو عليهم البهجة، فيما انخرط آخرون فى حديث غلب عليه الحماس مع آبائهم متطلعين إلى منازلهم الجديدة. يعلمون أن بيوتهم ستكون من الخيام والخشب، ولا أحد يعرف إلى متى سيدوم ذلك، ولكنهم سيقيمون فى أرضهم الخاصة، وكما يخبرونهم فلن يقتسموا بعد الآن مع ذويهم أو جيرانهم تلك الأرض الجافة. شعرت المجموعة بالخوف من رد فعل المجموعة الأخرى التى لم يقع عليها الاختيار، إلا أن الغضب كان محدودًا جدًا. وامتنع آخرون عن المشاركة مدفوعين بمشاعرهم الدينية، تخوفًا أن تكون الخطوة ثورة ضد الكنيسة. وراودت المشاعر نفسها العائلات الأخرى التى تجمعت أمام الكنيسة، ولكن الرغبة فى حياة أفضل أعطتهم الأمل. ورأى آخرون أنه لا فرق بين ملكية الأرض للكنيسة أو أن يتملكها آخرون. ومن جانبه أخبرهم رامون سيجوبيا أن يمضوا أسماءهم للقائمة ليست لنيل "بركة" من الكنيسة.

احتشدت أسر أخرى فى الميدان، قدموا من أماكن عديدة. فى البداية ساد اعتقاد أنهم حضروا ليطالبوا بحصتهم، لكن اتضح بعد ذلك أنهم أتوا ليقدموا الدعم والتضامن.

وانطلقت مائة عربة بالعائلات حين بزغ نور الصباح معلنًا يومًا حارًا. لا يستغرق الوقت أكثر من نصف الساعة ليصلوا إلى الأرض. تقدم رامون سيجوبيا المسيرة، وأصدر تنبيهًا للعائلات ألا تتعجل أىٌ منهم اختيار قطعة الأرض التى تخصها، بل انتظار التعليمات التى سترشده إليها اللجنة مشيرًا "هناك أرض للجميع". وشعر بالسعادة لاستجابة الآخرين، وبالمثل لأنه بدا أن السلطات الدينية والشرطة لم يتنام إلى علمهما الأمر. وأخبر رفقاءه أنهما حين يعلمون سيكون الوقت قد تأخر.

يحاولون الإسراع فى طريقهم قدر الإمكان، يريدون الوصول قبل حلول الظهيرة، قبل أن يتنبه أى شخص إلى استقرارهم بالأرض. لن تتحرك الشرطة إلا بناء على توجيهات من الأسقف، وهذا بدوره لن يرغب فى إثارة موجة انتقادات لكونهم يقفون ضد رغبة المزارعين الفقراء معتمدين على الحكومة. عوَّل أعضاء اللجنة فى باريريتو على هذه الفكرة، للهدف الذى انتظروا طويلاً أن يتحقق.

عدد عشرين عائلة -مؤلفة من مائة شخص- ليس بالكثير، ولكنهم يعلمون أن المشروع حال اكتماله بالاستيلاء على أراض أخرى غير مزروعة سيؤتى أكله. لم تُنفذ هذه الفكرة من قبل. وهم الآن يدشنون فكرة الأرض بلا رجال ورجال بلا أرض. وهو ما قاله رامون سيجوبيا وهويضع قدمه على الأرض البالغة مائتى هكتار، وتابعه آخرون بصيحات النصر. غادرهم الخوف من أن يُعرف مشروع الاستيلاء على الأرض لأنه تحقق بالفعل ولم يعد مجرد مشروع. هنأهم رامون سيجوبيا على نجاح السر الذى تمكنوا من إخفائه، وقال: "من يعرف، ربما لو لم نقدر على إخفائه على هذا النحو، لتمكن عدد من الشرطة والجيش من منعنا من الدخول".

بعد خروج رامون سيجوبيا من المنزل، بقيت كريستينا وسوسيدى يتناولان شاى الماتى بمدخل المنزل، فيما تبدو كريستينا منشغلة بزوجها وتجول بخاطرها خيالات سيئة. قطبت جبينها وخرجت زفراتها رغمًا عنها. بدوره حاول سوسيدى الذى استيقظ بدرجة من صفاء الذهن – على غير ما هو معتاد – محاولاً أن يخفف عنها بحديثه عن قدرة وحماس زوجها وكفاءة أدائه فى مزاولة المهام.

– لو كان الأمر مجرد حماس وحسب... ولكن لا، هو ليس كذلك، إنها قناعة راسخة تمنعه من رؤية الأخطار، وإن رآها لا يعيرها اهتمامًا. لهذا يتملكنى الخوف. فالشرطة تقمع أعضاء التعاونيات كل يوم. والجميع يعلم أنهم لا يرتكبون جرائم. لا أعلم إن كان بإمكانى إقناعه، لكننى سأحدثه بشأن مغادرة المكان لنذهب إلى أسونثيون.

صرخ سوسيدى بصوت أرعب كريستينا: لا، ليست أسونثيون مكانًا صالحًا للعيش. لقد ولد تحت شعار المأساة. وفى نفس العام الذى تأسست فيه هذه المدينة، مثلما كتب أحد الشهود، غزت المكان جحافل الجراد الضخمة وغابت الشمس، فيما كست هذه المخلوقات الأرض ودمرتها ولم تترك أية بقعة خضراء. وحين توسع مشروع المدينة...

لم تستمع إليه كريستينا، وجعلت تتساءل إذا ما كان زوجها قد وصل إلى الأرض؟ وإذا ما كانت الشرطة قد حاصرتهم مع المدنيين المسلحين لتمنعهم من الدخول؟ ومن حين لآخر تنصت لـ سوسيدى يحكى القصة التى كثيرا ما رواها مرات ومرات.

– فى الثالث من فبراير عام ١٥٤٣ اندلع حريق ضخم استمر لأربعة أيام. التهمت النيران مائة وعشرين بيتًا، وحيوانات داجنة والحبوب التى قاموا بتخزينها لاستخدامها فيما بعد. انتشر الجوع نتيجة الخسارة التى لحقت بهم. وتتابعت الكوارث التى أضرَّت بالبشر وجوانب الحياة وحدث انقسام بين الفصائل المتنافسة فى سلسلة من المواجهات المستعرة. وكان أشدها الميراث لـ ألباريث نونيث كابثادى باكا، الذى قسَّم الجمع ما بين "المخلصين" وهم أتباعه، و "العامة" الذين ناصروا دومنجو مارتينيث دى إرالا. وسيواجه هؤلاء مع اليسوعيين معارك ضارية تهز العالم...

لا تخفى كريستينا عدم اهتمامها بسماعه. ويكف سوسيدى عن توجيه الحديث لها ويتخيل شخصًا آخر ينصت لحديثه. وبعد عشر سنوات – يواصل الحكى – كان الغزاة على أمل التمكن من "سييرا دى لابلاتا" بالكامل. فشلت جميع محاولاتهم لعجزهم عن الوصول إلى المكان الذى طمحوا إليه. أما مارتينيث دى إرالا فشجاع ومقدام وطموح، فقد تقدم مجموعة من السكان الأصليين والإسبان الذين تمنوا تحقق الهدف والفوز بالثروة...

تفتح الباب وتقف أمامه بانتظار رؤية زوجها، سيكون هذا هو الوقت الذى يجب العودة فيه إن كانت الأمور قد مرَّت بخير. ليس عليهم سوى الدخول وبعد ذلك – فى مرحلة تالية – ربما غدًا أو بعد غد سيتابعون الأداء وفقًا لمقتضيات العمل والتمكن من الأرض.

تشعر بالذنب أنها لم ترافقه. لو فعلت لما أصبحت فريسة للقلق من العواقب، جعلت تخاطب نفسها " أدركت الأمر الآن ربما كان علىَّ المحاولة وحسب".

يواصل سوسيدى دون ملاحظة غياب كريستينا، ووصل إلى مكان لم يسبقه إليه أحد. وبعد جهد جهيد وصل مارتينيث دى إرالا إلى سلسلة جبال الأنديز. أراد فقط التحقق من وجود "الدورادو" الذى كثيرا حلم به، فانكشفت الأسرار وعرفوا أن هناك من يملكه. كانت رحلة العودة أكثر مشقة سادت مشاعر الإحباط وفى الطريق أوقفوا مارتينيث دى إرالا ودفعوه إلى الحاكم. وصل النبأ السيىء إلى أسونثيون من خلال المسافرين، فحبطت الهمم، مثلما سيحدث فى مرات عديدة على مدار التاريخ. أيقن إرالا أنه لن يحوز الذهب أبدًا، غير أن الآخرين لم يتقبلوا نبأ أنهم لن يتملكوا الذهب أو الفضة. وصل النبأ إلى الملك

الذى قرر أن نسيان هذه المنطقة النائية الفقيرة. تركها لحظها. لم تكن لتستحق المشقة تلك الأرض التى لا يلمع بها سوى أشعة الشمس الحارقة.

لمحت كريستينا الأسقف يستقل سيارته فى طريقه إلى أراضى الكنيسة. تعتقد أنه سيناهض احتلال الأرض. تنشغل بالخطوات التى قد تتخذ لاستعادة أرض الكنيسة. تعلم تمام العلم أن الرجال مصممون على البقاء فى الأرض. ومنذ أخبرها زوجها بالقرار ومشاهد العنف لا تنفك تعصف بخيالها فى الأحلام. تسمرت عند باب المنزل مترددة ما بين انتظار زوجها بالخارج أو الدخول للمنزل. وفجأة يظهر سوسيدى أمامها ويواصل سرد حكايته، تسمع كريستينا بعض الكلمات مثل "يجب تجنب عاصمة البلاد... العيش بها ليس جيدًا... شجار لا يتوقف... ثورات... هى مركز التعذيب". بعد نصف ساعة، شاهدت كريستينا الأسقف يعود. تصادف سيارته فى طريقها عربة الشرطة تقل ضابطًا وعسكرين اثنين مسلحين. بمجرد أن شاهد سوسيدى المشهد فر إلى المطبخ ليختبئ وراء الباب.

بدأ الرجال يدقون أساس تعريشاتهم، فيما هرعت النساء توقد النيران لإعداد الإفطار. شرع رامون سيجوبيا ورفقاؤه يوزعون قطع الأرض بالتساوى. اختبروا الأرض واكتشفوا أنها ظلت مهجورة لوقت طويل. قال رامون سيجوبيا: "يقول رجال الدين إن الأرض هبة من الرب، ولذلك فلن نفعل ما يُغضب الرب برفض نعمته".

وبحلول الظهيرة، سطعت الشمس وبدت السماء صافية، غادر رامون سيجوبيا ورفقاؤه المكان مودعًا الرجال بوعد العودة فى اليوم التالى وإعلامهم بما يستجد من أخبار. وتم اختيار أحد مزارعى الأرض الجدد – إيليخيو روميرو البالغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا منسقًا للمجموعة، وقد مارس نشاطًا لتأهيل الآخرين من خلال تدريب مستمر يخضع إليه الأعضاء الجدد. وهى المبادرة التى طالب بها الأعضاء ليتمكنوا من القراءة وإدراك المشهد المحيط بهم فى واقعهم الوطنى. يناقشون أيضًا مشاكلهم الملحة. ويتبادلون خبراتهم، كما يستقبلون القساوسة وشخصيات أخرى تناقشهم لتقديم حلول لرفع وتحسين أوضاعهم، ومواجهة التصدى للصعوبات التى يواجهها الفلاحون وتحقيق

آمالهم. إيليخيو روميرو يدير مجلة "نومينجوتيارا" التى تصدر بلغة الحوارانى المحلية. وهى تضم أخبارا وتحقيقات مصحوبة بتحليل يُنشر بها. والآن اتخذ إيليخيو روميرو جوار الآخرين ليزرع الأرض إلى جوار هو. يلمح رامون سيجوبيا بعد أن غادر المكان الأسقف يقترب فى سيارة بيضاء. يقف لينتظره فى بقعة ظل.

- يقترب من الأسقف فى حميمية : كيف حالك سيدى ؟

- يمد الأخير ذراعه مشيرًا إلى من احتلوا الأرض : ماذا ! أتعتقد !

ترك الآخرون عملهم ليتأملوا ماذا سيقول، فيما اقترب منه آخرون فى تبجل واحترام.

- أجاب رامون سيجوبيا فى نبرة اقتناع : إنهم مائة شخص سيأكلون مما وهبهم الرب.

جال الأب مونسيرون المكان بعينيه وتأمل النساء وهن توقدن النار.

- لقد ارتكبوا خطأ كبيرًا بهذا التعدى، ولكن من السهل إصلاحه.

- لا يا سيدى. أعتقد أنك تفكر فى "بساطة" ترك المكان.

- وإذا أردتم أن تتراجعوا عن الخطأ...

- هناك حل آخر قادر على محو الخطأ، أو هذا "التعدى" مثلما تقول. لن يعتبر ذلك احتلالاً إذا مكنَّت الكنيسة هؤلاء الرفقاء من ملكية الأرض.

قطب موسينور جبينه وبدأت على وجهه علامات الغضب. لم ينتظر إجابة تسقط عليه مثل الصاروخ: لست بقادر أن ارتجل أية إجابة.

- أفهمك تمامًا سيدى. ما رأيك أن نلتقى اليوم فى الكنيسة، سترغب اللجنة فى الاستماع إليك وربما لتستمع أنت أيضًا إلينا.

- تبدو لى فكرة طيبة. سيكون ذلك بعد موافقة القساوسة الآخرين، ولنبدأ الحديث سيطلبون أولاً أن يخرج...

– لا يا سيدى، لقد أتوا ليبقوا هنا... فى أرضهم. هل تريد أن نطلب منهم الرحيل ؟ وإلى أى مكان ستطلب منهم الكنيسة الذهاب ؟ ذلك أنه لا مكان لهم على الإطلاق.

– أعلم تمامًا احتياجاتهم. فالكنيسة تقف إلى جانبهم منذ شكلوا التعاونيات الزراعية. والآن نحن على قناعة أن التعاونيات توسعت وقويت شوكتها فى نصف البلاد. نعانى مثلكم من التعقب وهذا التعدى من شأنه أن يصبح حجة لقمع الحكومة...

– إذا وقفت الكنيسة إلى جانبنا...

– كانت دومًا إلى جانبكم وستكون كذلك.

– يرغب الرفقاء أن يبرهن رجال الدين أنهم يقفون إلى جانبنا.

– كثيرا ما قمنا بذلك منذ وقت طويل.

– نعم نعترف بذلك ونشعر بالامتنان. ولكن نشعر أن يتمثل ذلك فى شكل حقيقى، يكون هو الأرض التى يرغب فى زراعتها.

– لا يقتصر الأمر رامون على موافقة الكنيسة على هذا الاحتلال، إن المسألة هى نكران الجميل من خلال هذا النهب. فضلاً عن أنكم تعرضون أنفسكم لقمع الشرطة، والتى أصبحت أكثر عنفًا، لأن الحكومة لن تقبل أن تمتد الظاهرة إلى مناطق أخرى.

– لقد ناقشنا هذه الاحتمالية.

– وبعد ؟

– نرغب أن نثير حماسة الآخرين ويُطبق هذا النموذج إزاء الحكومة والكنيسة. الحكومة تقول "الأرض لمن يزرعها". وتقول أيضًا : "أفضل عضوان للوطن الرجل والأرض". والكنيسة تقول: "الأرض هبة الرب من أجل الجميع". فما هى جريمتنا ؟ ولماذا يجب معاقبتنا ؟

– سنواصل الحديث.

غطت سحابة التراب التى أثارتها السيارة وجود المزارعين لبرهة.

وفيما يفكر العمدة فى موت رئيس البلدية، قاطعه أحد الضباط لينقل إليه نبأ احتلال مجموعة من المزارعين الأرض ذات ملكية خاصة فى باريريتو، ويُعتقد أنهم من التعاونيات الزراعية.

قال سالِيناس : "هذا أمر خطير"، ثم أمر الضابط أن يذهب إلى المكان بصحبته اثنين آخرين من المعاونين ليكتبوا تقريرًا كاملاً عن اسم المالك، وعن متزعمى الحدث، والتنظيم الذى ينتمون إليه، وعدد المزارعين و "أى معلومة أخرى تكون ذات فائدة للحكومة". وبمجرد خروج الضباط، أجرى سالِيناس محادثة تليفونية مع ممثل الحكومة. ينقل إليها المستجدات ويطلب التعليمات. يطلب إليه الأخير أن يحيطه علمًا بكل شىء لينقل المعلومات بدوره إلى وزير الداخلية.

وينتظر المحافظ فى مكتبه الصغير باهتمام بالغ عودة الضباط. لم يبق لديهم أدنى شك أن هذه العناصر التى إحتلت الأرض تنتمى إلى التعاونيات الزراعية، فمنذ وقت غير قليل توسع نشاطهم وبدا أنهم يختبرون صبر الحكومة. لم يشعروا بالخوف تجاه التصرفات القمعية للحكومة بل على العكس، بدا كأنهم تحفزوا لتكثيف ممارساتهم. أما تصرف اليوم فقد فاق الحدود وسيجد منفذوه الردع الذى يستحقونه. يسمع ضوضاء عربة الشرطة ويخرج ليلقاهم. أكدت النتائج توقعاته، ولكن الشىء الذى فاق الخيال هو أن الأرض ملكية خاصة للحكومة.

يرفع الهاتف : "سيدى النائب لقد تأكدنا أن أعضاء من التعاونيات هم من استولوا على الأرض، يبلغ عددهم مائة، كما أن الأرض تبلغ مساحتها مائتى هكتار، وهى ملك للكنيسة. نعم يا سيدى، بانتظار الأوامر". طلب النائب مكالمة سريعة مع وزير الداخلية الموجود فى قصر الحكومة وسيعود خلال ساعتين إلى مقر عمله. يستعد العمدة خلال ذلك الوقت ليكون على أهبة الاستعداد لأمر الإخلاء واعتقال المسئولين الرئيسيين.

يصعد وبرفقته ثمانية من عناصر الشرطة إلى الحافلة ويصل إلى باريريتو خلال عشرين دقيقة ويصادف فى طريقه الأسقف فى سيارته دون أن يتوقف. أراد العودة إلى مكتبه قبل أن يكلمه النائب، قام بنشر العناصر المسلحة حول الأرض المغتصبة، مع أوامر بعدم الاشتباك تحت أى ظرف، على أن يسجلوا فى أذهانهم بدقة وجوه من يقوم بالاعتداء.

ترك المزارعون عملهم ومكثوا يراقبون القوات فى صمت. لم يشعروا بالخوف ولكن بالتساؤل. يعتبر عدد ثمانية رجال قليلاً وإن كانوا مسلحين وذلك أمام مائة رجل. ربما هذا هو ماجال بخاطر بعض المزارعين، ربما أتوا لينفذوا إخلاءهم من المكان، تساءلوا ترى بناء على بلاغ من الكهنة ؟

سارع رامون سيجوبيا ورفقاؤه إلى مكان حافلة الشرطة. تواصل العمدة مع إدارة كولورادو على الفور. أخبرهم بنبأ الاستيلاء على الأرض وطلب منهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد بتجنيد جميع العناصر المتاحة، من أجل حماية السلام الذى تحيا فى ظله البلاد. فى ذاك الوقت تبادل مكالمة مع النائب الذى أخبره بأنه أبلغ وزير الداخلية بالتطورات، وقام الأخير بالتواصل مع سيادة الرئيس. وأخبره أن يكونوا على أهبة الاستعداد انتظارًا للأوامر. شعر العمدة بالإحباط من رد فعل الحكومة، معتبرًا أن ذلك التأخير فى الهجوم من شأنه دعم التضامن مع هؤلاء إتاحة الوقت لهم لينسقوا صفوفهم، كما أنهم سيكسبوا دعم المتضامنين وتواطوء الأشخاص والمنظمات المعارضة. فى ذلك الحين استقبل مكالمة ثانية من النائب يخبره أنه لن يكون إخلاء بل مجرد تواجد لعناصر الشرطة بأداء متعقل.

وأضاف مجيبًا على سؤال المحافظ الذى أبدى عدم فهمه للقرار : "المشكلة ليست معنا، إنها بينهم، بين الكنيسة ومرتاديها".

من جانبنا سنرصد العقول المدبرة لهذه المجموعة التى استولت على الأرض. أبلغ مسئولى الإدارة أن ينشروا نبأ أن هؤلاء تصرفوا بناء على تعليمات الحكومة، والتى أعربت عن ضيقها من ردة فعل الأساقفة. أخبرنى أية مستجدات. متى ستكون شعائر الدفن ؟ الساعة الرابعة يا سيدى.

حين اختفت سيارة الأسقف مخلفة موجة من التراب، تحلَّق الرجال حول رامون سيجوبيا. رغبوا فى معرفة موقف الكنيسة والتصرف إزاء رفضها. أخبرهم رامون سيجوبيا بصوت مرتفع ليسمع الجميع : إلى الآن لا توجد أية إجابة.

اتفقنا على عقد اجتماع تتضح فيه الأمور ونناقش حقنا فى أرض تكون ملكًا لنا. سنقول للكنيسة ما اتفقنا عليه جميعًا، لن نسرق أرضهم. سنطلب منهم أن يعرضوا ثمنًا

عادلاً نقوم بتسديده على دفعات. إننى على ثقة أن الأمور ستكون فى أحسن حال. نريد أن نسمعك خوليان.

– لقد رأينا تعبيرات وجه الأسقف وحركات يديه وهو يتحدث، وكان واضحًا امتعاضه لتصرفنا.

– لديك حق، إنه لم يوافق، ولكنه لم يعط الكلمة النهائية.

– ارتفع صوته مجددًا: فى هذه الحالة سيتوجب علينا الاستعداد لمغادرة المكان. لا حيلة لنا فى مواجهة الحكومة والكنيسة فى الوقت ذاته.

– ارتفع صوت آخر فى الصف الأول: لدينا كل القوة، إننا يد واحدة. إذا استطاعت جماعتنا الصمود فذلك لأننا تحملنا هجمات الشرطة والجيش حتى اللحظة، لأننا متحدون.

– قال آخر: هذا صحيح، ولكننا لم نقم قبلاً بوضع اليد على أرض يملكها شخص آخر.

– صوت آخر، تحدث بعنف ملوحًا بقبضة يده: لأن هذه الأرض ليست ملكًا لشخص آخر، بل هى ملك لنا.

أيدت مجموعة بحماس هذا الكلام، فيما التزم الآخرون الصمت. وحين حاول رامون سيجوبيا أن يتكلم، لمحوا عربة الشرطة تقترب مثيرة سحابة من التراب الأحمر. ترجّل عن السيارة المحافظ ألبينوساليناس، وخلفه بقية رجال الشرطة، تلقوا الأمر بالاصطفاف فى صفين والعسكر فى هذا المكان. استعرض العمدة حذاءه العسكرى الجديد وسوط يده وعصا فى الأخرى أسوة بالدكتاتور. تابعه الرجال بأعينهم فى صمت،

بدا بعضهم غير مكترث، وظهر الخوف على آخرين. حين أدرك أن نظر الجميع مصلت عليه، أمر بالعودة بصوت لا رجعة فيه. رشق الجميع بنظرته وهو يعتدل فى جلسته فى العربة. بعد فترة تصادف كريستينا السيارة بينما تسارع الخطى لتطمئن على زوجها. تشعر بالاطمئنان حين ترى رجال الشرطة وحسب داخل السيارة. وصل الأسقف إلى

الكنيسة مثلما اتفقوا واجتمع برجال اللجنة. جاء بصحبة ثلاثة كهنة من إبراشيات أخرى في ميسونيس منذ حوالى ساعة اجتمع رامون سيجوبيا وخمسة رجال من القادة للوقوف على مصير الأرض التى احتلها المزارعون. تجمعوا تحت ظل شجرة واستبق رامون سيجوبيا الحديث قائلاً: حسنًا يا أبونا، ماذا بعد ؟

– لا أحمل إليكم أخبارًا قاطعة – قال بينما يعتدل فى جلسته على مقعد خشبى متعمدًا أن تطغى على صوته نبرة تسامح – لدى نفس وجهة النظر التى يؤيدها القساوسة الآخرون الذين تواصلت معهم فى مكالمات تليفونية، وبعض الأساقفة الآخرين من أسقفتنا. والأمر مثله مثل أى قضية مماثلة تتضارب فيها الآراء. البعض يؤيد موقفكم وآخرون يعارضونه.

قاطعه رامون سيجوبيا : هذه افتراضات، إننا هنا لنسمع إلى...

– نعم، القرار، وهذا ما كنت أوشك عليه. لقد تم الاتفاق على أن تُترك لكم الأرض. بمعنى آخر، إننا لن نلجأ إلى الشرطة أو القانون. ولكن يجب إخباركم أنكم قد تسببتم فى ألم عميق واستياء فى الكنيسة. فماذا كان الدافع لكى تتصرفوا على هذا النحو العنيف ؟ كم من الوقت مضى ونحن نتعاون معًا فى ظل من الثقة وتعاليم المسيحية ؟ كان سيكفينا إخبارنا برغبتكم مباشرة ولا شك أننا كنا سنتوصل إلى اتفاق...

إن هذا الاحتلال الجبرى الذى مارستموه هو نفس ما ننتقده فى أداء الحكومة.

قال رامون سيجوبيا : وبالمثل فنحن ننتقد الحكومة وملاك الأرض. أنت تعلم يا أبتِ أنه لم يعد فى ميسونيس أى مساحة للزراعة. وقد هجر المزارعون الناحية متجهين إلى "ألتوبارانا" بحثًا عن فرصة للحياة، فهم متعقبون. وتتلقى منظمتنا بلاغات مستمرة من رفقائنا المسجونين ومن يتعرضون للتعذيب والأعمال الشاقة وأيضًا...

– قاطعه أحد القساوسة : رامون، نعلم تمامًا هذه الانتهاكات لأننا نعمل معكم، ولأننا ملتزمون بمصالحكم. أم ترى أنه لم يتم تعقب واعتقال رهبان لمساعدتهم للتعاونيات ؟ ولكن

احتلال الأرض على هذا النحو المفاجئ يجعلنا نبدو وكأننا أعداء أو كجبهتين متعارضتين. ومن سيربح ؟ حاليًا، إنها الحكومة هى من سيربح لقد تنامى إلى علمها أنكم تعملون ضد الكنيسة وبأوامر من وزارة الداخلية.

– نعم، هذا ما يقوله أعداء التعاونيات.

قال الأسقف بينما يجفف جبهته المتعرقة بمنديل: لا شك فى ذلك. إلا أن كل هذا ترك أثرًا سيئًا على صورة التعاونيات. أعرب لى العديد منكم عن استيائه وأنه اعتبر التصرف بمثابة خيانة. حتى إن بعضهم تعهد بالرحيل والمغادرة إلى فيدرالية أخرى.

– ارتفع صوت رامون سيجوبيا وتخللته نبرة ألم لم يقدر أن يخفيها: خيرًا فعلوا، فمجموعتنا فى حاجة لمن يؤمن بالمشروع، تحتاج...

كف فجأة عن الكلام حين رأى ألبينو ساليناس يقترب وبرفقته ثلاثة من رجال الشرطة دخلوا من البوابة الخلفية. توجه المحافظ إلى المجموعة المحيطة بالأسقف وألقوا تحية جافة. وبعد برهة من الصمت طلبوا من الجميع أوراق الهوية وقام الضباط بتسجيل البيانات فى سجل. لم يكن بحوزة خمسة من قيادات المجموعة أوراق هوية ومن بينهم رامون سيجوبيا، فصدر إليهم الأمر بالصعود إلى عربة الشرطة بصفتهم معتقلين.

– قال رامون سيجوبيا وهو يعتدل فى مقعده المتحرك: ليس كذلك يا كريستينا، أريد مشاركة الآخرين فى احتفالاتهم فى الميدان. أحب أن أفعل ذلك ولكننى لن أخرج. المشكلة أننى لا أشاهد فى التليفزيون إلا الأشخاص أنفسهم المنتمين إلى حقبة دكتاتورية أستروسنر، هم أنفسهم من يشكلون الحكومة الجديدة، هل يقولون جديدا كريستينا ؟ هل هو جديد من سيؤدى القسم كرئيس للجمهورية ؟ هل هم جدد هؤلاء الوزراء ؟

قالت كريستينا محاولة التخفيف من وقع ما يرونه : حسنًا يا رامون، لن تكون هذه الحكومة أسوأ من سابقتها.

منذ أصيب رامون سيجوبيا بالشلل، تضررت أمورهم المالية. تتلقى كريستينا المساعدة من الجيران، ومن أصدقاء قدامى من أعضاء التعاونيات الزراعية، الذين واصلوا عملهم التعاونى فى الخفاء تقريبًا. أما حلم تأسيس مجتمع تضامنى فى غياب حكومة

وحشية فقد تعرض للقمع وهدد المزارعين فى أراضيهم المحدودة. أما القيادات السابقة – والتى لم يعد لديها ما تقود – فإنهم يستقبلون من حين لآخر فى منازلهم زيارة المحافظ ساليناس ليذكرهم بأنهم تحت المراقبة. ويحذرهم من إحياء نشاطهم " وسوء عاقبة التسبب فى زعزعة استقرار الجمهورية".

ويتلقى رامون سيجوبيا من حين لآخر مساعدات مالية بشكل منتظم من السويد أو فرنسا وألمانيا. ليست مبالغ كبيرة ولكن ما يكفى لتغطية احتياجاتهما، خاصة ما يستلزمه علاجه. هى مساعدات من رفقائه القدامى فى السجن والذين نالوا حريتهم عن طريق مساعدة الصليب الأحمر فى مقابل مغادرة البلاد. وتصل إليه النقود من أماكن ومن خلال قنوات متعددة، أحيانًا بشكل مباشر من البلد عن طريق أحد الأشخاص القادمين إلى باراجواى أو مجلس الكنائس أو من بوينوس أيرس أو سان بابلو ومنها مباشرة إلى أسونثيون ثم إلى المستحقين. اليوم الأول لغياب إستروسنر كان هو نفس اليوم الذى اختفى فيه ألبينو ساليناس. استمر فى منصبه عشر سنوات. عامل فيها السكان بالقمع والتهديد والتآمر. كان الوقت متاحًا لديه لينافس نظراءه فى تكوين شبكة متشعبة من الوشاة. عمل بعض هؤلاء فى العلن بوجه مكشوف والبعض الآخر مستتر تحت مظلة الحكومة. أما التقارير التى اعتادوا تقديمها إلى قسم التحقيقات بشرطة العاصمة فقد احتشدت فيها الأكاذيب والأخطاء الموضوعة عن عمد. قام بذلك ليكسب ثقة رؤسائه وإعلان التأييد بلا حدود للدكتاتور. وجود ألبينو ساليناس فى السلطة هذه الفترة الطويلة حال دون شعور أهل باريريتو بالحرية فى أول يوم.

مر أحد قيادات التعاونيات القدامى على رامون سيجوبيا وقال له : لا أستطيع انتزاع الخوف المتراكم على مدار سنوات فجأة لهذا لم أذهب للاحتفال.

– أجاب رامون سيجوبيا بعد صمت طويل: السبب بالنسبة لى ليس الخوف فحسب، رغم أننى أشعر به أيضًا، لكنه التخبط وعدم الفهم. لقد شاهدت هؤلاء الذين دعموا وامتدحوا الدكتاتور، وهم أنفسهم من يدعمون هؤلاء الذين تسببوا فى

سقوطه. إننى بانتظار رؤية ألبينو ساليناس رافعًا علم باراجواى مطلقًا صيحات النصر بهذا اليوم.

وبمجرد أن كفّ رامون سيجوبيا وصديقه عن الكلام، شاهدا ألبينو ساليناس فى مقصورة سيارة محملة عن آخرها بقطع الأثاث والأغراض الأخرى. وأختبأ ساليناس خلف نظارة سوداء وقبعة عسكرية يحك طرفها البلاستيكى أنفه، بالرغم من كل ذلك، يمكن التعرف عليه بسهولة، ولا يرجع ذلك لوجهه المألوف، بل لهذه الهالة الحيوانية التى تنبعث من وجهه. اعتاد من يخافون ساليناس أن يقولوا : "إننى أشتم وجوده". اتخذ ساليناس الطريق الأكثر طولاً ووعورة تحاشيًا لمواجهة المواطنين الذين احتشدوا فى سعادة وصخب.

حين سمعت كريستينا أن الزائر قد غادر، خرجت لزوجها ربما رغب فى الدخول.

قال رامون سيجوبيا: لا، أحب أن أشاهد هذا المنظر الممتع للفئران وهى تهرب.

يتذكر رامون سيجوبيا مجددًا ألبينو ساليناس وهو يدفعه فى مقر المحافظة مثله مثل بقية رفقائه. بعد ذلك أمرهم بالعبور إلى الفناء الذى جعلهم يقفون فيه على مدار ثلاث ساعات ووجوههم قبالة الحائط. بعدها أقبل أحد الضباط وبيده دفتر المستجدات، فسجّل بياناتهم الشخصية. مرت ساعة أخرى قبل أن يعطى ساليناس الأوامر بإطلاق سراحهم مع التحذير بألا يتواجدوا فى الطريق تحت أى ظرف من دون أوراق هويتهم. منذ هذا اليوم أطلق لقب "تاجر المانديوكوا المرة" على ألبينو ساليناس بإيعاز من رامون سيجوبيا، وهو ما سيصاحب ساليناس مدى الحياة. التقى رامون سيجوبيا خلال عودته بكريستينا ومعها امرأتان أخريان جاءتا بحثًا عن زوجيهما وقد شعرا الجميع بالقلق لانقضاء الساعات دون عودة ذويهم. وفى طريق العودة إلى المنزل بعد أن حلّ الظلام، أخبر رامون سيجوبيا زملاءه أن يلتقوا فى اليوم التالى مبكرًا قبل شروق الشمس أمام الكنيسة ليتبادلوا الأفكار بشأن "أداء التعاونيات فى المستقبل". ثم أضاف متهكمًا :"لا تنسوا أوراق هويتكم". استقبلهم سوسيدى حين اقتربوا من المنزل ففتح لهما الباب بحذر

واضح. قدمت لهما كريستينا طعام العشاء فى الفناء. وحكى رامون سيجوبيا بينما يتناول طعامه ما جرى لهم. لم يعط الأمر أية أهمية مقارنة بما يتعرض له رفقاؤهم الأعضاء فى التعاونيات فى أماكن أخرى. ويعتقد أن امتعاض الحكومة المتنامى لا يرجع فقط إلى كم لجان التعاونيات وحسب، ولكن يرجع أيضًا إلى حجم الوعى الذى انتشر بين المزارعين للحكم على الواقع الوطنى ومكانهم فيه. أشار رامون سيجوبيا بعد أن التزم الصمت فترة: خطر ببالى الآن أن أدعو أعضاء التعاونيات فى أماكن أخرى فى باريريتو إلى لقاء الغد الذى يوافق السبت يوم الإجازة. فحين نلتقى لنتناقش يكون من الضرورى توجيه الدعوة لـ رايموندو فلوريس، وخوال باريديس، وسالوسيتانو كابريرا، وديوينيسيو روخاس وزوجته إيسابل، فضلاً عن روبرتو جارثيا وخوليان بينيث.

– علقت كريستينا: ألن يكون العدد كبيرًا؟ أقول ذلك لما يتعلق بالحد الأقصى لاجتماع الأفراد.

– طوال حياتنا انصعنا لهذه الأوامر. وإذا استمر الحال بنا كذلك لطلبنا إذنًا لنتنفس. ما رأيك سوسيدى؟

– ما يجب أن يحدث قد حدث يا سيد رامون. فى حياة الأفراد والشعوب...

– حسنًا أريدك أن تذهب غدًا إلى منزل كل من رايموندو فلوريس وسالوسيتانو كابريرا لتوجها لهما الدعوة نيابة عنى للاجتماع فى الكنيسة. نلتقى فى الثامنة والنصف، وسأقوم مع كريستينا بـ...

– أعتقد أن لدىَّ فكرة أفضل، قاطعته كريستينا : لا تغيب عنى صورة حالة المكان. فلنقم بالدعوة غدًا، ولتكون ليوم الأحد بعد القداس.

– حسنًا، سنقوم به على هذا النحو.

– يقوم الرجال والنساء الذين وضعوا أيديهم على أراضى الكنيسة بتشكيل منازل بدائية كيفما اتفق وبأى مواد يستطيعون أن يقيموا بها الأسقف والجدران، يقيسون المساحات ويحددون الفواصل بين حصصهم من الأرض التى تحدُّ بين مساحة وأخرى. ووفقًا لخبرتهم يجدون من الأفضل أن يحدد كل منهم مساحة أرضه ليعمل بها، مع الأخذ

فى الاعتبار المساحة الكلية. وبغروب الشمس تستعد النساء لتجهيز العشاء بعد عناء يوم طويل ومرهق. وفيما يعدون "وعاء الطهى الشعبى" يشرع أحدهم فى غناء واحدة من أغنيات الرابطات التعاونية، ويتبعه الآخرون على الفور. تعبر كلمات الأغنية عن مزارع يحلم بالوصول إلى عظمة السماء وهو على الأرض جزاءً له على جهده لتحقيق مستقبل أفضل لا يكف فيه عن بذل الجهد والعرق، ويكون قادرًا على التصدى لذوى السلطة. وُلدت هذه الأغنيات فى قلب الرابطات. تتميز بالتلقائية والبساطة ولا تخلو من العمق، كما تعكس تفاصيل حياتهم اليومية.

وبمجرد أن ينتهى العشاء، يقترب منهم رسول رامون سيجوبيا ليدعو القيادات الثلاثة لاجتماع الكنيسة عقب قداس الأحد.

– أجاب سانتياجو دولدان متوجهًا إلى الآخرين : سوف نذهب. ستكون مناسبة لكى نطلب من الرفقاء الآخرين أن يساعدونا لنتجاوز شيئًا فشيئًا متطلباتنا. وأهم شىء أن تتعهد الكنيسة بتركنا نعمل هنا. فبدون هذا الضمان لن نتمكن من تحسين إقامتنا فى هذا المكان، أو حفر البئر وإقامة المنازل لتصبح دائمة أو تربية الحيوانات اللازمة لغذائنا، فضلاً عن أشياء أخرى.

– رفع روخيليو سيلفا يده وقال: منذ ٤٨ ساعة ونحن هنا، وليست هناك أية إشارة أن الأسقف يرغب فى إخراجنا، المرجح أنه استقر على بقائنا.

– أجاب آخر : نعم ولكن سنظل دائمًا فى حاجة إلى أوراق رسمية، فبدونها سنظل فى قلق لا نهاية له.

– تحدث سانتياجو دولدان: يجب أن نعمل بداية من يوم الاثنين لنحصل على الملكية المسجلة. وفى هذه الأثناء سوف نواصل خطة العمل التى ناقشناها واتفقنا عليها.

سادت موجة من التصفيق بين الأعضاء. واستعدت كل عائلة لتخلد إلى النوم يخالجها الأمل فى أن تشرق الشمس بينما هى من ملاك الأرض فيتمكنون من إقامة المزارع.

اكتظت الكنيسة عن آخرها بالمصلين. اجتمع أعضاء التعاونيات وعائلاتهم إلى جوارهم تلبية للدعوة الجماعية. ينتظرون مع أسرهم أن يعلق الأسقف على استيلائهم على الأرض. جاءت اللحظة وبدأت الموعظة بفقرة من رسالة بابلو الثانية إلى اليونانيين : "لا تصاحبوا من يرفضون الإيمان. تَرى هل يجتمع العدل والشر؟ هل يتعايش النور والضباب؟ هل ينسجم المسيح والشيطان؟ ترى هل يتشابه معبد الرب مع الأصنام؟ ". يطرح الأسقف هذه العبارات دلالة على أن المؤمن المخلص ينأى بنفسه عن الخطايا يذكر بعضًا منهم ثم يفسر لماذا يجب أن يهرب منها الإنسان وينتزعها من قلبه. ويخصص الجزء الأخير للحديث عن السلطات التى تدير ظهرها لتعاليم المسيح. استحسن فريق من الحضور الموعظة لأنها لم تشر إلى احتلال أراضى الكنيسة، اعتبروا وكأن الكنيسة تفهمت أنها أصبحت ملكهم. ولم يرض الآخرون عن موقف الكنيسة لأنهم توقعوا أن توضح الكنيسة موقفها بشأن الأرض المهجورة ستكون ذات فائدة لاحتياجات الناس ومن سيزرعونها. وبانتهاء القداس يلقى الأسقف عليهم التحية ويغادر عائدًا إلى القرية. اجتمعت قيادات التعاونيات تحت ظل الأشجار وجلسوا على مقاعد خشبية أمام الكنيسة. بلغ عددهم ما بين ١٦و ١٩ فردًا. بعد أن ألقى التحية، تحدث رامون سيجوبيا عن الاستيلاء على الأرض "وعما اضطررنا للقيام به" ،وعن عامل الوقت وعن تأكيده على "عدم الاستخفاف بأى شىء يمس الوضع".

واصل رامون سيجوبيا: حسنًا يا رفقائى، كان ضروريًا أن نتحدث عن بعض القضايا التى أراها عاجلة من وجهة نظرى. إنها التعاونيات الزراعية المسيحية، والتى ولدت فى سانتا روسا، وهى الآن موجودة فى مناطق عديدة فى البلاد. كما أن نموها المتسارع كحل لاحتياجاتنا أصبح لا غنى عنه كما تحول إلى مشكلة كبرى. لا ترغب الحكومة فى معرفة أى شىء عن تنظيم المزارعين. تعلم جيدًا أن أهدافنا تتجاوز البحث عن تحسين وضعنا المالى وحسب. لا تنظر بإعجاب إلى قدرتنا وحماسنا لمعرفة ما يجرى فى الواقع الوطنى والذى لا يعبر عن رضاها. لدينا تكوينان فيدراليان فوفقًا لرأى من يقومون بتحليل الأنشطة التى نمارسها وأفكارنا، فإن الفيدرالية الأولى ذات طابع "نقابى"، والثانية "عقائدى". فى

رأيى أنهما وجهان لعملة واحدة فهما يعملان من أجل مستقبل المزارعين. الاقتراح الذى أقدمه هو أن ينخرط أعضاؤنا فى الحياة الجماعية.

ويعنى هذا أن تبقى العيون مفتوحة لترى ما يحدث فى البلاد. وما يحدث أن الحكومة تتعقبنا بشكل مكثف يومًا بعد يوم وبعنف متنام. وينطوى أسلوب الحكومة على التهديد والقمع والتعذيب، فضلاً عمًّا يروجون له من أننا مجموعة من العناصر الخطرة. ويجب القول أيضًا أن...

يكف عن الحديث تمامًا حين يلمح سيارة شرطة تقترب. يلتفت الجميع إلى السيارة. يبدأ أحدهم بترديد لحن من ألحان الكنيسة ويتبعه الجميع. لا يركزون فى اللحن، بل فى مشهد سيارة الشرطة أمام الكنيسة.

ترجل عن السيارة سبعة من رجال الشرطة المسلحين وأمامهم ألبينو ساليناس، ثم أقبلت سيارة شحن نزل منها عشرون رجلاً يرتدون زيًا مدنيًا مسلحين بهراوات وفى أعناقهم شارات حمراء. أحاطوا بالرفقاء بينما يطلقون صيحات عدائية، ثم دفعوا بالرجال داخل الشاحنة.

لا تعبر السيارات خلال الطريق العام بل تسلك طريقًا آخر. يعلمون أنهم متوجهون إلى مركز التحقيقات فى شرطة المركز. يصلون إلى سان خوان باوتيستا ثم ينزلون إلى فناء السجن الذى يُطلق عليه "أبراهام كوى"، وهناك سيبقون أسبوعًا كاملاً منعزلين عن العالم.

أخفقت الحيلة فى استغلال صلوات القداس لعقد الاجتماعات. يعلمون تمامًا أنهم سيخضعون لمراقبة دقيقة أيام الآحاد من قبل الشرطة والمدنيين التابعين لـ كولورادو. أخبرهم رامون سيجوبيا فى السجن أن ذلك يحدث بناء على وشاية مسبقة. وهكذا يُفهم أنهم جاءوا للقبض عليهم. وسيكون من الصعب أن نعرف مَن مِن رفقائنا فعل ذلك. الواقع أن أيًا منا لم يفعل ذلك، والدليل أننا جميعًا هنا. لقد تعلمنا أنه يجب علينا توخى الحذر فى هذه المسائل التى قد تتسبب فى الحبس والقمع، على أن نواصل تنفيذ أهدافنا. حين نخرج من هنا يجب علينا إيجاد طريقة مناسبة لنجتمع دون إثارة شكوك الرأى العام. فحتى اليوم

لم يخرج أى منا خارج باريريتو إثر المداهمات التى نتعرض لها يوميًا. فوسائل الإعلام تجهلنا. لا وجود لنا. ربما يمنعوهم من تخصيص أية سطور لنا أو أنهم ببساطة يجهلون ما نحن عليه. لقد أصبحنا نمثل الوباء بالنسبة للحكومة وأتباعها، وهذا موضوع يستحق التأمل. للأسف لا نستطيع التحدث إلى السلطات. سنقول لهم إننا نبحث شئوننا فى هذه اللقاءات. لو علموا ذلك لما كنا فى الحبس الآن. أيها الرفقاء لدى فكرة سنناقشها حين نخرج من هنا. يصمت حين يرى شخصًا بزى رسمى معروف باسم الرقيب تيجوروجانى، أى الـ"سوط "بلغة الجوارانى.

حين تنامى إلى علمهم فى أرض الكنيسة المغتصبة نبأ إلقاء القبض على القيادات، غادرت المكان ثمانية عائلات مدفوعة بالخوف والهلع. تحملت التعاونيات أشهر من تعقب الحكومة لهم فى سانتا روسا وفى الأماكن الأخرى التى أقاموا بها. شاعت أخبار أن معهد الإصلاح الزراعى فى منطقة بارانا يسهل تملك الأراضى لمن يرغبون فى الزراعة. هى منطقة جديدة تكتنفها الغابات ويتأسس بها مشروع يوظف به عشرة آلاف من العمَّال فى محطة الطاقة الكهرومائية. غادرت بالفعل عائلات عديدة تاركة منطقة ميسونيس ومناطق مجاورة لها بسبب انعدام الأمان وندرة أماكن الزراعة. فى المقابل أخبرهم أصدقاؤهم عن منطقة البارانا والأماكن العديدة الصالحة فيها للزراعة بأرضها البكر. أخبروهم أن المنطقة متاخمة لنهر أكارايامى، وهى ميزة للمكان. ونقل ثمان عائلات – عشرون شخصًا بالغًا واثنا عشر من القصر – نقلوا أغراضهم القليلة المؤلفة من الملاءات والقدور وأدوات المائدة والمناجل والمعاول الخالية من المقابض. وضعوها فى بالات صغيرة حملوها على أكتافهم أو رؤوسهم أو أيديهم. واختفت العربات التى نقلتهم. نزلوا من العربات ثم توجهوا سيرًا على الأقدام إلى القرية وانتظروا أمام أحد المتاجر الشاحنة التى تنقل البضائع لتقلهم إلى أسونثيون، أو لكى تقربهم على الأقل من مدينة سان إجنائيو. جلسوا ليستظلوا تحت الأشجار وبعد ذلك بساعتين وصلوا إلى الشارع الرئيسى التجارى بقريتهم. وحين اقتربوا من أسونثيون نصبوا خيامهم فى شارع كوبيستشيك.

طلب بعضهم المساعدة من الكنيسة فيما طلب آخرون اتخاذ الإجراءات الرسمية الخاصة بأراضى الكنيسة التى فرضوا سيطرتهم عليها وذلك بموجب توجيهات من المعهد الريفى للرعاية الاجتماعية التابع لمنطقة آكارايومى.

أدركت قيادات اللجان فى باريرتيو أن الشرطة ستكثف جهود مراقبتهم لتحول دون عقد أية اجتماعات. فى المقابل عملوا على تحصين أنفسهم، فتبنوا استراتيجية فاعلة تقضى بزيادة تجمعاتهم على طريقة "مينجا" للسكان الأصليين، وهى وسيلة للدعم الجماعى. اعتادوا على اتباع هذا السلوك، ولكنهم يطبقونه بشدة خلال أوقات الحاجة الماسة مثل بناء المساكن أو إصلاحها، وحفر الآبار وشق الطرق وإقامة الأسوار وغيرها. أول أنشطتهم كان ترميم سقف منزل القيادى رفيقهم روخيليو جونثالث البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا، وهو عضو قديم وبارز فى التعاونيات، ويحترمه الجميع لشخصيته المتسقة الحازمة فى نفس الوقت، فضلاً عن تكريس جهده للمنظمة التعاونية. تم اعتقاله منذ عامين بمنطقة "ياباكارى" وتحديدًا بمنزل "ساليسينوس" واعتقل إلى جانبه العديد من الفلاحين والعمال الذين اجتمعوا فى لقاء أسموه "جلسة التأمل"، ترأسه اثنان من رجال الشرطة ما بين مجموعة من العساكر والمدنيين واقتادوهم جميعًا إلى مقر الشرطة المحلية ثم إلى قسم التحقيقات فى العاصمة، حيث قضوا أسبوعًا. خلال تلك الفترة نشأت صداقات بين روخيليو جونثالث وزعماء آخرين من قيادات المزارعين مع اثنى عشر من قيادات الجامعات الذين اعتقلوا قبل شهر.

ويطبق الجميع تعاون الـ "مينجا" أيام السبت بعد الظهر وبحضور زملاء آخرين فى محاولة للتمويه عن القيادات الأخرى.

توجهوا بعد الغداء إلى منزل روخيليو خونثالث فى مجموعات صغيرة من تسعة أشخاص وبدأوا فى أداء مهماتهم، اتباعًا لتعليمات رفيقهم مقاول البناء. وفى نهاية العمل يجلسون معًا فى الظل يحتسون شراب الـ تيريرى[1].

وبعد بعض المحادثات التافهة، دعاهم رامون سيجوبيا لمناقشة بعض القضايا التى تشغلهم مثل تعقب الشرطة والسياسة الرسمية، وسوء الأحوال الذى تمادى ووصل إلى عدائية غير مسبوقة وسافرة. يعلمون أن بداية المشاكل ظهرت مع الدسيسة وقضية التجار والمخازن الكبرى، والتى أحرزت نجاحًا كبيرًا فى ربوع البلاد ومن بينها "ميسونيس". وبالمثل تبدى الحكومة موقفًا معارضًا لأن يتحد المزارعون ويتعرفون

(١) شراب تقليدى فى باراجواى.

على حقوقهم بمساعدة كهنة الكنيسة الذين عملوا على توعيتهم بقيم الحرية. وهو ما يجعلهم يكتسبون ثقة فى أنفسهم ويزداد وعيهم بقدرتهم على التحاور وتحليل مشاكلهم. وتضايقت الحكومة من هذه "المدارس" التى يتعلم فيها الطلاب بشكل منفصل عن التعليم الرسمى.

رفع ديونيسيو روخاس يده وأضاف : أعتقد أن مشكلتنا الرئيسية مع السلطات هى رفض التعاونيات الانصياع لمطالب الحكومة.

وفى اللحظة التى يقترح فيها رامون سيجوبيا البحث عن سبل محددة للتصدى لممارسات القمع الأخيرة يسمعون ضجيج دراجة بخارية تقترب. يعودون بسرعة إلى عملهم. وبعد دقائق تقترب شاحنة وتتوقف أمام المنزل. يعمل روخيليو جونثالث على تهدئتهم مشيرًا أنه ربما يكون المورد الذى يأتى أيام السبت ليتقاضى أجره، ويشير بنبرة ساخرة "لايتأخر أبدًا". استمر الاجتماع ساعة أخرى. عرضوا فيها لاحتمالات الأداء لمواصلة جذب انتباه الرأى العام والإقليمى والوطنى. وتذكر أحدهم القائد التاريخى للتعاونيات الزراعية بيكتوريانو سنتوريون (بيتور)، والذى حمل على عاتقه التعريف ببرامجهم فى بلدته "كاجواثو" والتعاون مع كاتدرائية الكولونيل أوبييدو.

تدخل رامون سيجوبيا: نستطيع فعل نفس الشىء، بل ما هو أكثر. فالعمل الجيد مع رفقائنا سيسمح لنا بوضع اليد على أراضى كاتدرائية سان خوان باوتيستا، كنيسة سان إجناثيو وكنيسة سانتا روسا. وحينها سوف يدركون جيدًا قوة حضورنا. وعدوا بالتفكير فى الأمر واتخاذ قرار فى الأسبوع التالى، ثم انتقلوا إلى موضوعات أخرى. تحدثوا عن سفر ثلاثة شبان من سان إجناثيو من التعاونيات فى الليلة السابقة إلى بوينوس أيرس، ليتعلموا طرق التنظيم بناء على الدعوة التى تلقوها من تجمع باراجواى بمنطقة " كورينتس"، وعلى صلة بـ " كيانات أخوية" فى العاصمة الأرجنتينية.

علق أحدهم: إذًا فلم نعد مجهولين؟

قاطع روخيليو جونثالث : لا.

– إنهم يعرفوننا، لذلك يظهر من وقت إلى آخر قيادات طلابية ونقابية مهتمة بأنشطة منظمتنا، حتى إنهم يعرضون مساعدتنا. غير أننا نحتاج إلى دعم الرأى العام الوطنى، أن يعرفوا كل شىء وأن يدعمونا حين نتعرض للقمع غير أننا نحتاج إلى دعم رأى العام الوطنى، أن يعرفوا كل شىء وأن يدعمونا حين نتعرض للقمع. ودع بعضهم البعض واتفقوا على اللقاء فى السبت التالى. وحل الظلام بالتدريج.

توجهت إيسابل يوم الثلاثاء فى السابعة بعد أن أعدت درسها فى المدرسة، (البيتوهارا، أى من تساعد الجميع)[1] وكما هو معتاد بلغة الجوارانى. لديها اثنان وثلاثون تلميذًا إلا أنه فى باريريتو يوجد تلاميذ أكثر، غير أن آباءهم يحتجزونهم فى المنازل بسبب الشائعات التى تدور بشأن أن من يرتادها سيصبح عدوًا للحكومة. بالمثل لا يرسلونهم إلى المدارس الحكومية الرسمية لبعد المسافة. تبدأ إيسابل درسها بحكاية " النملة والدبور " ، وهى أسطورة نالت استحسانهم. وأخبرتهم أنهم سيقومون بتحليلها وقالت : أخبرتكم أن النملة تعمل بلا توقف فى الصيف حتى تستريح وتجد طعامها فى الشتاء، أما الدبور فلا يكف عن الغناء فى الصيف لذلك لا يجد ما يسد رمقه فى الشتاء، وحين يطلب المساعدة من النملة، تجيبه: لو أنك اشتغلت مثلنا لما تعرضت للجوع، ولكنك اخترت الغناء، فلتأكل غناءك. يضحك الأطفال من إجابة النملة. نعم، تقول المعلمة: نعم إنه صحيح،

ولكن هذه الإجابة تحتوى على قدر كبير من الأنانية. غالبًا ما يذكر هذه القصة من هم فى وضع اقتصادى مرتفع للفقراء المعوزين، يلصقون بهم دائمًا دور الدبورالكسول الذى لا يعمل، وأن هذه لم تكن حالهم إذا تركوا احتساء شراب التيريرى أثناء وقت العمل. ولكن إذا أمعنا النظر سنجد أن الدبور كان يعمل أيضًا ويستحق طعامه. فالحكاية تقص علينا أن الدبور كان يعمل بينما يغنى وربما كان يتسلى بينما يتنقل على فروع الأشجار.

ومن يستطيع أن يخبرنا أن هذا الغناء لم يساعد النمل على العمل بنشاط ؟ فما أكثر الملل حين يعمل شخص ما دون لحن إلى جانبه. وقد سمع النمل ذلك، ولكن حين جاءت اللحظة التى يطلب فيها المغنى أجره، يتضايق النمل ويدعى الحكمة، ويعتبر ذلك أنانية بحتة. "النملة والدبور" تعكس الجشع وليس العمل قبالة الكسل.

---

(١) يستخدم الكاتب بعض الكلمات من لغة الجوارانى، ويقوم بتعريفها كما هو موضح بين قوسين.

واصلت إيسابل عملها فى الحساب والمطالعة والكتابة إلى أن حانت ساعة الخروج. قابلت ديوينيسيو روخاس عند الباب ينتظر زوجته ليذهبا إلى رامون سيجوبيا وزوجته كريسيتينا، تلبية لدعوتهما للغداء. وفيما تجهز الزوجتان المائدة، جلس رامون سيجوبيا وديوينيسيو روخاس يتناولان شراب الـ تيريرى فى الفناء، ومعهم سوسيدى. بدا عليهما القلق بينما يناقشان مستقبل الأرض المغتصبة. فكرا أن هناك العديد من الأسر تفكر فى مغادرة الأرض منجذبين لفكرة أراضى الـ بارانا. اقترح رامون سيجوبيا دعوة رفقاء آخرين يحتاجون إلى أراض، فاللجنة لديها الآن عدد محدود من قطع الأراضى. سمعا صوت تصفيق عند البوابة. انتفض سوسيدى ليرى من الطارق وعاد مسرعًا بصحبة روخيليو جونثالث، والذى لم ينظر إلى مضيفه وهو يقرب له مقعدًا ليجلس عليه، أخبرهم بأنباء وصلت إليه عن اعتقال العديد من أعضاء التعاونيات تمت مداهمة منازلهم فى منطقتى كوربيرا وكاجواثو، بعنف بالغ من قبل الشرطة ومجموعات مدنية وقت الفجر. وكما هو معتاد لا يعرف أحد سبب اعتقالهم أو مكانهم.

قال رامون سيجوبيا وهو يعتدل فى جلسته: نحن نعرف السبب، هو تراخينا والسماح لهم بسحق رؤوسنا. يجب أن نشعر بفداحة الأمر، وأعتقد أن احتلال الكنائس سيكون ضربة ساحقة.

– أجاب ديوينيسيو روخاس ساخرًا: وبالمثل ستعطينا الشرطة فى المقابل ضربات أخرى ساحقة.

قال روخيليو جونثالث بحماس متزن: يجب المخاطرة. لقد تجاوزوا الحدود فى استغلالنا دون أى مبرر. إذا كانت الحكومة لديها مشكلة مع الكنيسة فلا علاقة لنا بذلك. فالأساقفة الذين يساعدوننا يفعلون ذلك من منطلق شخصى، ولا يدعمهم الأساقفة.

– تساءل رامون سيجوبيا بينما يتناول كوب الـ تيريرى من سوسيدى: هل ذُكرت أسباب اعتقال الرفقاء؟.

– أجابه روخيليو جونثالث : لا، ولكن يبدو أنها الأسباب المعتادة.

دعت كريستينا روخيليو لمائدة الغداء، فأجابها إنهم ينتظرونه فى المنزل ثم تأهب للخروج وهو يقول : ماذا سنفعل ؟

أجابه رامون سيجوبيا : لا شىء إلى أن يحل يوم السبت، ولكن خلال ذلك يجب أن يفهم الرفقاء فكرتنا. أعتقد أنها جيدة. جذبت الفكرة انتباه أعضاء التعاونيات فى اللقاء التالى. أقر الأغلبية الفكرة. هناك عدد كاف من الفلاحين للاستيلاء على ثلاث كنائس، ولكن حين تأتى اللحظة المناسبة سيكون من الصعب الجمع ما بين هدف الصفقة والسلطات. فالاستيلاء على ثلاث كنائس فى الوقت نفسه سوف يسبب زوبعة وطنية.

ولهذا السبب نفسه، ستحاول الحكومة إرباك القيادات التعاونية بتقديم مقترح بديل ومضلل. استقر رأيه فى النهاية على الاستيلاء على كنيسة واحدة، وسيتم قراءة بيان بمجرد انتهاء الأسقف من موعظته وقبل أن يخرج المصلون. وسيلخص البيان أهداف التعاونيات الزراعية ويشدد على المبادئ الاجتماعية والمسيحية، والتعقب المتعسف للقيادات الذين لا هم لهم سوى دعم المنظمة من أجل صالح المزارعين، وبهذا الشكل يستميلون الرأى العام، ويلزمون السلطات بالتوقف عن قمعها. وبمجرد أن نطقت عبارة " يلزموا السلطات"، فُتح الباب لمناقشة قصيرة. البعض يعتقد أن البيان حاد اللهجة ويعكس تحديًا سافرًا. طلب بعضهم ترك الكلمة كما هى، ربما يتمكنون من العمل فى سلام. وسيقوم كل شخص من الحضور بإبلاغ قيادى آخر فيبلغ اللجان الأخرى وهكذا فى كل اللجان. وتم تحديد يوم السبت المقبل للاجتماع ولتحديد تاريخ اللقاء فى كنيسة سان إجناثيو.

احتشد المصلون فى الكنيسة، مثلما هو الحال فى أيام الآحاد. اقترب خمسون شخصًا فى جماعات صغيرة ووقفوا بشكل متفرق فى أنحاء البهو. ينتمون جميعًا إلى التعاونيات الزراعية من أصل اثنين وخمسين فى ميسونيس. فمنذ قرابة الأسبوع تناقلت أقوال عن الدعوات ولكن بحذر شديد حتى لا يصل الخبر إلى المزارعين التابعين للنظام. الآن الجميع بالداخل. لا يعتبرون أنفسهم بمنأى عن الخطر بسبب الحشد، على الأقل لديهم الفرصة فى الوقت الراهن ليسمع الآخرون صوتهم. فالصمت والخضوع على مدار سنوات لم يؤديا

سوى لمزيد من القمع الذى يزيد يومًا بعد يوم. بالرغم من ذلك كانت هناك معارضة شديدة من جانب البعض فى المناقشات التى سبقت القرار. حقيقة الأمر كان هو الخوف، ليس من الاعتقال والتعذيب وحسب بل يقع التنظيم الذى تأسس وأصبح مدعومًا تحت خطر مواجهة وتحدى السلطة بلا طائل.

أما الرأى الآخر فانطوى على أن التعاونيات الزراعية ستضعف مع مرور الوقت ولا أحد يعرف مصيرها مع تتابع عمليات الاعتقال. أشار الأسقف اليسوعى الإسبانى خاسينتو، البالغ من العمر ٤٨ عامًا فى عظته المطولة إلى اعتقالات الفلاحين الأخيرة فى مناطق متعددة من البلاد دون إجراءات قانونية، مضيفًا : إن أسباب الاعتقال تظل مجهولة. يتعاون الأسقف الإسبانى مع الفلاحين فى الأنشطة والجانب الدينى ضمن مجموعة من الأساقفة نوى النشاط المماثل. فهم يساعدونهم فى حرث الأرض وحصادها وبيع المحاصيل، وبالمثل يرشدونهم فى تلقى تعاليم العقيدة المسيحية المعمول بها فى ميديين. ومثله مثل الكثير من الأساقفة الآخرين يتحدث لغة الجوارانى، والتى تعلمها خصيصًا ليتمكن من التواصل مع الرجال والنساء فى الريف. وقبل أن يستقر فى سان إجناثيو منذ قرابة عام، أقام فى مناطق أخرى للتبشير ولدفع التنمية البشرية والروحانية للأهالى. وصادف موضوع الموعظة سبب وجودهم فى الكنيسة. لم يتم تحذيره من مخطط الاستيلاء على الكنيسة من قبل منظمة التعاونيات. تخيل كل شخص من القيادات أن رفيقه سيقوم بتلك المهمة. وبمجرد انتهاء القداس وقبل أن يغادر الأسقف، وقف ديوينيسيو روخاس فى المنتصف أمام المذبح وناشد الجميع الانتباه إليه، "خمس دقائق" يعتذر للكاهن وللحضور فى نفس الوقت الذى يفرد فيه مطوية فى يده من صفحتين. ثم تلى حديثه بهدوء وثبات بلغة الجوارانى، وهى اللغة التى تستخدمها لجان التعاونيات الزراعية المسيحية فى ميسونيس وبعد أن أدان الاعتقالات المتعسفة العنيفة، يعلن الاستيلاء على الكنيسة إلى أن "يتم الإفراج عن المعتقلين فى أبراهام كوى ليعودوا إلى ذويهم". حين انتهى من القراءة نظر أمامه ولم يجد سوى رفقائه. هرع المصلون الآخرون خارج المكان من الأبواب الأكثر قربًا. فى المقابل عاد الأب خاسينتو ووقف أمام المذبح وطلب منهم أن يجلسوا. تحدث بلغة الجوارانى وقال: أعرفكم منذ زمن طويل، وأعلم أن هذه الخطوة جاءت بعد دراسة

وتحليل. أعتقد أنه لم تغب عنكم احتمالات الخطر لعمليات قمعية على الرغم من أن هذا الفعل اقتصر على مقر دينى فإن الحكومة ستعتبره تحديًا يكرس النظرة إلى التعاونيات الزراعية المسيحية بصفتها تستهدف زعزعة الاستقرار. لست أردد إلا الكلمات التى سنسمعها أو نقرأها غدًا أو بعد غد فى الصحافة الرسمية. أعتقد أن الفضول يملؤكم لمعرفة رأيى فى احتلال كنيسة سان إجناثيو، إذا كنت موافقًا أم لا.

لا أعرف هل أنا موافق أم لا، خاصة مع الأخطار التى يحتملها هذا التصرف، ولكننى إلى جانبكم وأدعمكم. تلت الصلاة أغنيتان اعتاد الرفقاء ترديدها خلال العمل. فى تلك الأثناء استعدت فرقة من الحكومة للتوجه إلى الكنيسة. ومسحت رياح سوداء شوارع المدينة.

وصل الأب خاثينتو إلى سان إجناثيو، كان قد استقر منذ خمس سنوات للعمل بها، مستلهمًا قصص المبشرين التى دعمها وحافظ على بقائها اليسوعيون فى القرن السابع عشر. وجهه وازعه الدينى فى شبابه المبكر إلى إشبيلية[1]، حيث الكنيسة التى يرعاها اليسوعيون والتى ترسخ تبشير اليسوعيين فى باراجواى، وهى قصته المفضلة. حين بلغ السن المطلوبة، اتخذ قراره بمباركة والديه ليكون جنديًا فى خدمة سان إجناثيو دى لويولا مدى حياته، وكله أمل أن يحذو حذو السلف القديم الذى يقدره أجل تقدير. وهكذا عمل على المواءمة بين معلومات الماضى والحاضر فى باراجواى. والآن لم يعد هناك من يهدف لتقليص حجم السكان الأصليين. ولكنه يعلم أن وجود اليسوعيين الآن يتركز فى نشاط آخر مع المزارعين مرتبط بالمشروع الأول بشكل ما. وفيما ينشدون الأغانى، توجه الأب خاثينتو إلى الكنيسة. عاد بعد ذلك مسرعًا ليلحق بالشعائر وجلس على مقعد خشبى. بدت له المطالب التى استمع إليها مقنعة، جديرة بالاحترام وعادلة. على ذلك، لا يعوِّل على أن السلطات ستتبنى نفس وجهة النظر حين تستمع إليها، يتحدث إلى نفسه قائلاً : "يريد الرب أن يعمل أبناؤه معًا فيتخطون الأنانية".

---

(١) يقصد إشبيلية فى باراجواى وليس إسبانيا.

انتصف النهار بعد سلسلة من الصلوات والخطب والأغانى. سمعوا طرقات عنيفة على باب الكنيسة بعد جلوسهم لتناول الغداء الذى أحضره كل منهم ليتشاركوا به. تبادلوا نظرات متساءلة. ارتفع الصوت الصادر عن الباب مصحوبًا هذه المرة بصراخ يطالب بمغادرة المكان. خرج الأب خاثينتو ليتحقق من مصدر الصوت. وجد قوات من الشرطة والجيش أمام مدخل الكنيسة. يكشف الأب خاثينتو عن هويته فيقترب منه ضابط على الفور، ودون أن يوجه إليه التحية يطلب منه إخلاء الكنيسة على الفور.

يجيب الأب خاثينتو: لا أستطيع، فالكنيسة هى بيت الرب، هى مكان للعامة.

أجاب الضابط: إنها مكان للعبادة، وليس لتحدى الحكومة من خلال خطب موجهة لهدم النظام.

– لقد وصلت إليكم معلومات مضللة.

– فليكن، لدى أمر بإخلاء الكنيسة.

– مر اليوم فى الكنيسة مثل أى يوم آخر.

– لا تتظاهر بالبلاهة، افتح الباب، أم ترغب أن نحطمه ؟

– أرجو أن تسمح لى بالذهاب لفعل شىء.

– إلى أين ستذهب.

– للتحدث إلى السيد ممثل الحكومة. إننى على يقين أننا سوف نعثر على حل ما.

– وكيف تتأكد أنه سوف يستقبلك ؟

– الموضوع بسيط. سأذهب معك إلى مقر الشرطة، فنحادثه تليفونيًا وأطلب مقابلته. اصنع هذا المعروف لأجلى.

– اصعد إلى السيارة.

– هل السيد بمكتبه فى سان خوان ؟

– لا، إنه موجود بمقر الشرطة.

عاد الأب إلى رفقائه. وجد بعضهم مترقبًا، والآخر فى قمة العصبية، فيما بدا الخنوع والاستسلام على البقية.طلب من الجميع الانتباه إليه ليتحدث إليهم عن رغبته فى لقاء ممثل الحكومة، وقال: "من المؤكد أنه قد غادر مكتبه فور علمه نبأ احتلال الكنيسة، وسيكون فى مقر الشرطة حاليًا. إذا ما قبل لقائى سأطرح عليه اقتراحكم".

– رفع رامون سيجوبيا يده: "اسمح لى أبتى".

– إننى أسمعك يا رامون.

– توصلنا إلى مطلبين، أولاً أن يقوموا بإطلاق سراح رفقائنا البالغ عددهم أربعة عشر شخصًا، بقى لهم أكثر من تسعة أيام فى معتقل "أبراهام" دون أى ذنب. وثانيًا أن يتركونا نعمل فى سلام. لسنا منظمة تخريبية، أخبرهم بذلك يا أبانا.

بعد انتظار تجاوز الساعة، تمت دعوة الأب خاثينتو من قبل ضابط ليقابل المحامى روكى بالديث، مندوب الحكومة من إدارة "ميسونيس"، وجد نفسه محاطًا برئيس جهاز الشرطة، بدا رجلاً عسكريًا برتبة عالية ومعه اثنان مدنيان. وقبل أن يلقى الأب خاثينتو التحية، باغته بالديث بأمر قاطع لإخلاء الكنيسة.

– أجاب الأب وهو يبحث بعينيه عن مقعد لم يتكلفا عناء تقديمه، فقال: سأخبرهم أن يغادروا الكنيسة، ولكننى لن أفعل غير ذلك.

– إذا قمت بتوجيه الأمر لهم....

– لا أستطيع أن أوجه لهم أوامر. فجميعهم أناس طيبون ومسيحيون فى بيت الرب.

– تستطيع أن تذكر لهم سببًا أساسيًا ليقوموا بالإخلاء. فليست ممارساتهم لائقة ببيت الرب.

– إنهم يغنون ويصلون.

– صاح رجل مدنى جالسًا على يمين مندوب الحكومة : إنهم يهدمون الحكومة.

- سيدى، لا يذكرون الحكومة البتة، إنهم يعربون عن قلقهم مما يجرى لهم، وأرسلونى لأنقل مطلبين لهم.

- أجاب رئيس الشرطة وهو يعتدل فى مقعده : نستمع لما تقول.

- يطلبون إطلاق سراح رفقائهم المعتقلين...

- صرخ الرجل: ولا فى الأحلام.

- وأن تتركوهم ليعملوا فى سلام ليكسبوا عيشهم دون قلق، إذا ما وفرتم...

- تدخل الرجل العسكرى: إن المواطنين الصالحين يعملون فى سلام. الحكومة لا تتعقب أيًا منهم، بل على العكس تساعدهم وتدعمهم وتسهر عليهم.

أجاب مندوب الحكومة وهو ينهض من مجلسه: لن تكون هناك تسوية مع هذه الشروط. اعمل على تغيير موقفهم. أمنحكم مهلة لمدة عشرين ساعة.

مر الأب خاثينتو فى طريق عودته بثمان بنايات. انتظره الجميع على أمل معرفة نتيجة اللقاء، بالرغم من أن التشاؤم يطغى عند الكثيرين على الأمل استنادًا إلى تجارب سابقة مماثلة لمساجين من أهلهم ومن مناطق أخرى. ولكنهم من جانب آخر على أتم استعداد ليسمعوا الرد ما دام يتماشى مع حقوقهم. أشار صوت من الحضور : "على كل الأحوال، فإن هدفنا الأساسى هذه المرة هو أن تشعروا بوجودنا. ستكتب عنا صحيفة ما، وهكذا نكون قد كسبنا شيئًا كبيرًا.

أخبرهم الأب خاثينتو بتفاصيل اللقاء، وحين ذكر المهلة الزمنية التى حددتها الحكومة لإخلاء الكنيسة، ارتفع صوت الجميع غاضبًا : " لن نغادر اليوم فى الثامنة أو غدًا فى أى ساعة" .

ارتفع صوت رايموندو فلوريس : ربما توجب علينا إعادة النظر فى موقفنا، إذا أبدى مندوب الحكومة استعدادًا لسماعنا. ولكن هذا الرفض القاطع لا نستطيع رده إلا برفض أكثر نفاذًا. إننى لا أفهم الحكومة، تقول إنها ضد العنف ومع ذلك تدفعنا إليه دفعًا.

أجاب الأب: حذار، يجب ألا نقع فى الفخ. قد تكون المظاهرات سلمية ولكنها ذات صدى قوى، تأثيرها مثل القنابل.

– أجاب رايموندو فلوريس: لا أحد منا يتسم بالعنف، على عكس الحكومة عنف الحكومة التى تعذب أناسًا مثلنا. هؤلاء الذين تم سجنهم، ومن سيخضعون للسجن فى المستقبل، إنهم لا يفعلون سوى البحث عن الطريق الذى رسمه لهم الكتاب المقدس والدستور الوطنى.

تبادلوا الحديث فى هذه التفاصيل بحماس، بينما يجلسون على مقاعد خشبية أو يفترشون الأرض، ومعهم الماء والثلج ليعدوا مشروبهم. يختلفون فى بعض الأفكار، غير أنهم يتفقون دون أى شقاق على ضرورة بقائهم داخل الكنيسة إلى أن يتم إخلاء سبيل رفقائهم.

– تحدث رامون سيجوبيا : إذا لم يحققوا مطالبنا اليوم أو غدًا فإننى اقترح بدء إضراب عن الطعام.

– أجابه ديونيسيو روخاس : هذه فكرة جيدة بإمكاننا دراستها حين يتطلب الأمر ذلك.

– قاطعها روخيليتو جونثالث : إنها فرضية يمكن وضعها موضع التفكير.

ومثلما هو معتاد كل خميس، استعد الأب خاثينتو للصلاة فى السابعة مساء. ومازال هناك ثلاثون دقيقة. لاحظ من النافذة المفضية إلى الطريق مجموعة من رجال الشرطة والجيش فى مجموعات، وبدا له أنهم قريبون جدًا من الكنيسة، وليتحقق من المشهد تحرك لينظر من الباب الحديدى المفضى إلى البوابة الرئيسية. رأى حشدًا من الجنود المسلحين يبدون على أتم استعداد للحيلولة دون الدخول أو الخروج من الكنيسة. على أية حال، سيقوم بضرب الأجراس ليعلن عن الصلاة وحين تنتهى ستكون الساعة قد اقتربت من الثامنة ولن تتعارض مع توقيت المهلة التى أقرتها الحكومة. وهكذا لم يجد هناك ما يعوق فتح باب الكنيسة بعد رنين الأجراس الثلاث. وشعر رفقاء التعاونيات برياح باردة تخترق أوردتهم لدى رؤيتهم لهذا التكتل من رجال الشرطة. وحتى هذه اللحظة استقر عزمهم على البقاء فى الكنيسة بالرغم من تسلل الخوف إلى أبدانهم. لاحظ الأب خاثينتو أنهم يمنعون المصلين من الدخول للصلاة. غير أنه أصرَّ على القيام بها فى كل الأحوال. لا يفكر أن يغلق الباب، على العكس سيرفع صوت الميكروفونات لتصل أصوات الصلاة إلى الخارج.

وبابتعاده عن البوابة، فوجئ بأعداد النساء الغفيرة التى احتشدت لدخول الكنيسة. واجهوا رجال الشرطة الذين منعوهن من الدخول باستخدام العنف إلى أن تراجعن للخلف. تجمع رفقاء التعاونيات بدورهم أمام الباب قلقين، وقد بلغ منهم القلق مبلغه عند رؤية المشهد. تعرفوا على الفور على زوجاتهم وأمهاتهم. أوشك رامون سيجوبيا أن يعبر الطريق لدى رؤيته كريستينا وهى تمسح جبهتها فيما يبعدها الجنود من ذراعيها وخصرها يحولون دون حركتها. أوقفته صرختها "سيقبضون عليك". يبدأ الأب تلاوة صلواته حين يعم الهدوء.

يتراجع صوته الهادئ خارج الكنيسة. وفى اللحظة المناسبة، يطلب من ديوينيسيو روخاس قراءة إنجيل ماركوس. فيقرأ روخاس بصوت رخيم فى إيقاع واضح : "استمعوا إلى هذا (مثلما قال المسيح خرج المزارع ليلقى البذور، وفى طريقه سقطت واحدة من الحبوب فجاءت الطيور وأكلتها. ووقعت أخرى بين الصخور، فى أرض محدودة، فأنبتت على الفور، فالتربة ليست عميقة. وحين طلعت الشمس جففت النبتة لأنها لم تكن عميقة وبلا جذور. سقطت بذور أخرى بين أشواك، نمت الأشواك وحالت دون إنبات البذور فلم تثمر. أما بعض البذور الأخرى فسقطت فى تربة جيدة فأنبتت ونمت وتضاعفت. ثلاثين، وستين مرة وبعضها مائة. فقال المسيح: من تكن له آذان فليسمع". أسقط الأب خاثينتو مغزى هذه الكلمات على الوضع الراهن. أظلمت الأجواء فى الكنيسة عقب دقائق من انتهاء الصلاة وسواد الظلام. وكانوا قد عطلوا شبكات الهاتف بينما يتحدث الراهب إلى أسقف الكنيسة. أغلق محتلو الكنيسة الأبواب والنوافذ وأشعلوا مزيدًا من الشموع. وانطلقت تدوى إحدى أغنياتهم، وتردد النساء خلفهم مقاطعها من الخارج. وأعلنت ساعة الكنيسة الثامنة. بمجرد أن خرج الأب خاثينتو من المكتب، اتصل ممثل الحكومة على الفور بالأمين العام لوزارة الداخلية يرجوه أن يسمح له بالحديث دقائق مع الوزير. وجاءته الإجابة : "إنه لن يتمكن من الحديث إليك الآن، وبمجرد أن يسمح وقته سأتصل بك على الفور. "ثم أنهى المكالمة".

يبلغ المحامى روكى بالديث ستة وخمسين عامًا. طويل، قوى البنيان، مقطب الجبين الذى يعلو عينين بارزتين. يروق له أن يطقطق أصابعه الضخمة. ليشغل منصب ممثل الحكومة فى ميسونيس منذ خمسة أعوام. وبدأ نشاطه الحزبى فى البداية حين كان طالبًا فى المدرسة الثانوية فى "بلاس جاراى"، وهى منظمة مساعدة للحكومة لحزب كولورادو. ترسخت قناعته فى هذه المنظمة من خلال دورات تأهيلية للشباب، بضرورة حماية البلاد من الفوضوية. وبمثابرته على الحضور أصبح مدربًا فى وقت قياسى. تمكن من مهارات الإقناع والحديث للحزب الحكومى. وبحصوله على شهادة الثانوية فى العلوم والآداب، التحق بالدراسة فى كلية الحقوق بالجامعة الوطنية دون تأدية امتحان القبول. كان اسمه ضمن المقبولين بالقوة وبعد إجراءات رسمية. التحق فى عامه الثانى "بمعهد الطلاب"، وهو من معاقل الدكتاتورية التى تأسست لمواجهة الشباب الباحثين عن هامش من الحرية. ومن وقت لآخر كان يظهر مقال له فى جريدة "لاباتريا" مدافعًا عن أحد ممارسات الحكومة التعسفية وموجهًا النقد للمعارضين. والتحق أيضًا بالحرس المدنى، وهى مجموعة لدعم الشرطة أسستها الحكومة لقمع المعارضين ولا تعمل هذه المجموعة إلا بحلول الظلام وحتى بزوغ الشمس، فكانوا يوقفون أشخاصًا بلا هوية، ويقتحمون المنازل ويوجهون التهم دون إذن نيابة. كان فى عامه الخامس وبمجرد تخرجه تم تعيينه فى المحكمة الجنائية. تمكن من الصعود فى السلم الوظيفى والسياسي، وكان يطبق على المعارضين بنود قانونى ٢٠ أو ٢٤ الخاصة بأعمال الشغب. وفى لمح البصر أصبح قاضيًا فى المحكمة الجنائية. بدأ مهنته مع انتقال مكتبه إلى قسم التحقيقات بشرطة العاصمة. وذهب للتحقيق مع سبعة سجناء سياسيين خضعوا لتوهم للتعذيب. اعتاد الظهور فى التجمعات الحزبية التى يحضرها كبار موظفى الدولة وقد ربط إلى عنقه المنديل الأحمر أو ربطه إلى عنقه. لم يكن قد مرَّ عليه فى العمل إلا ستة أشهر ليُسمح له بحضور حفل عيد ميلاد رئيس الجمهورية. اكتظ الصالون بعدد كبير من العسكريين ورجال الأعمال وأعضاء المحكمة العليا والقضاة ورجال الشرطة وأمناء الأحزاب والوزراء والمدراء ورافق كل منهم زوجاتهم وأبناؤهم وبناتهم. وكانوا قد حضروا قبل الاحتفال الحفل الموسيقى فى نادى الجوارانى الذى أدى به فريق الموسيقى المتعاون مع النظام فقراته. جلس روكيه إلى جوار أحد عمداء المشاة وإلى جواره ابنته التى لم تكد تصل إلى البلاد بعد قضائها منحة دراسية فى الولايات المتحدة الأمريكية. فى منتصف الحفل نهض رئيس البلاد ومن خلفه أتباعه فأعلن منيع الحفل أنه سيغادر

لارتباطه بموعد مهم، غير أن الحضور بإمكانه مواصلة الاحتفال والاستمتاع بالموسيقى. التقى روكيه مرة أخرى بالعميد وابنته، غير أنه ظل هذه المرة يبحث عنها قبل اللقاء. وحين رآها اقترب منها وكان الأمر مصادفة بعد أن انسلخ عن بعض المعارف الطفيليين. أظهر العميد وابنته ترحيبًا وودًا. عاد روكيه إلى منزله وقد حفظ فى ذاكرته رقم تليفون الفتاة التى واصل الرقص معها عدة مرات، منها رقصة "البولكا"، ثم رقصة "يوم الميلاد".

كان من المفترض أن يتم الزفاف سريعًا. فقد فكر روكيه فى العميد العسكرى بصفته دعمًا له يسمح له مواصلة الترقى، وبالمثل فكر الرجل العسكرى أن اتصاله بمدنى ذى حظوة سيساعده مستقبلاً فى الترقى إلى رتبة جنرال، وابنته ستصبح زوجة القاضى وربما الوزير وبارك رئيس الجمهورية الزيجة.

وبعد مضى ثلاث سنوات، تم استدعاء القاضى إلى مكتب وزير الداخلية، الذى منحه بتخويل من رئيس الجمهورية منصب نائب الحكومة فى "ميسونيس". أخبره وهو يسلمه أوراق اعتماده فى المنصب الجديد ويتسلم استقالته كقاض: "إننا بحاجة لرجل مثلك هناك". تزامن ذلك مع تفاقم نشاط التعاونيات الزراعية فى "ميسونيس"، ومنذ تلك اللحظة بدأت الحكومة فى الالتفات إليهم. ومتابعة نشاطهم، نظرًا لوجود رهبان من الكنيسة وأجانب بين صفوفهم ولم يعتبروا جميعًا أهلاً للثقة بسبب انتقاداتهم للحكومة.

بدأ مهمته بدراسة ملفات العمداء والقيادات المعارضة فى التعاونيات الزراعية. قام بحركة تنقلات بين العمداء، لينشط أداءهم، ولم تشمل هذه التحركات ألبينو ساليناس، باعتبار أنه لا يوجد أدنى شك فى ولائه التام. تمكن فى نهاية الأمر من الحديث مع وزير الداخلية، فنقل إليه معلومات بشأن إخلاء الكنيسة، أخبره أنهم حذروهم من التمادى فى أمر لن يتم التسامح فيه من قبل الحكومة. وأضاف إن لديهم مهلة حتى الساعة الثامنة مساءً، أى "خلال دقائق سيدى الوزير".

– وبعد ذلك؟

– إذا لم يكن لسيادتكم رأى آخر، فسوف يتم إخلاء الكنيسة بعناصر من الشرطة والجيش.

قال الوزير بلهجة غاضبة آمرة : "لا تزج بأفراد من الجيش الآن لجأ إلى أعواننا وحاول أن يكون الإحلال سلميا دون أى عنف، إلا إذا استدعت الحاجة. قابلت الآن وفدًا من الصحفيين الأجانب الذين سوف يبقون هنا أسبوعًا. اتصل مندوب الحكومة بـ قائد العملية، وأخبره أن ينسحب العسكريون بناء على طلب من وزير الداخلية، ثم أضاف: "إذا تطلب الأمر فسوف أعاود الاستعانة بقوات الجيش، شكرًا سيدى الجنرال". أخبر روكيه رئيس الشرطة الذى كان بالانتظار خارج مكتبه: "لقد انتهت المهلة". وقف على قدميه وقال: "بما تأمر سيادتك ؟ على استعداد لتنفيذ الأوامر".

– أولاً اذهب للحديث مع الكاهن، واسأله إن كان قد تمكن من إقناع المحتلين بالشروط التى أمليناها. غادرت مركبة العسكريين فى اللحظة التى حضر فيها نائب الحكومة، احتلت النساء موقع المقدمة، رغمًا عن رجال الشرطة، وبالرغم من تحفزهم والهراوات بأيديهم وطلقات الرصاص فى الهواء. منذ ساعات حاولوا التمكن من البوابة الرئيسية ليحولوا بالقوة دون تمكن القوة الشعبية إذا ما حاولت دخول المعبد. وقفت ثلاث نسوة ممن يشتغلن بالغزل وشبكن أذرعهن الواحدة مع الأخرى، على استعداد تام لحماية المكان الذى احتله الرفقاء. ولم يكن هذا الموقف تلقائيًا، فكثيرا ما تبادلن الحديث فى أماكن مختلفة منها السجن ومراكز الشرطة، واتفقن على ضرورة تنظيم النساء لتدافعن بالمثل عن حقوقهن. شعرن بسلبية اقتصار نشاطهن على الأعمال المنزلية فى الظل، وضرورة أن تنشطن فى التعاونيات الزراعية المسيحية التى يسيطر عليها الرجال. لم تفكر النساء فى منافسة الذكور، بل فى السير معهم جنبًا إلى جنب وليس خلفهم. وقيل فى أحد الاجتماعات الأولى: "على كل حال، فنحن دومًا إلى جانبهم. فحين يعتقلونهم، حين يقتحمون منازلنا، حين يسود الجوع والمعاناة، سنعانى نحن أيضًا". وجاءت الإجابة: "هذا هو، بل ما هو أكثر من ذلك، لكننا نتحمل فى صمت، لايرانا أحد، لأننا لا نسمع أنفسنا". وارتفعت أصوات أخرى: "المشكلة الأساسية أن الدكتاتورية مرعبة"، الإجابة : "نعم، هى مرعبة، ولكن ربما هى كذلك لأننا نسمح لها بهذا الفراغ الذى تتمدد فيه". ومثلما هو الأمر فى التعاونيات، اعتادت النساء أن تجتمع لجانها مرة شهريًا وفى أماكن مختلفة. وقد عارضهم الأزواج فى البداية معارضة شديدة، ولكنهم رضخوا فى النهاية إزاء الإرادة الفولانية لزوجاتهم ومبدأ أن التعاونيات ليست حكرًا على الرجال. أراد رئيس الشرطة أن يمضى قدمًا إلى جوار حارسه ليقتحم باب الكنيسة،

لكنهم لم يسمحوا له. لم يتحرك أحدٌ من مكانه أو أطاع أوامره. خرج الأسقف للقائه حين لمح المشهد من الكوة الصغيرة المحصنة بقوائم حديدية.

– قال بنبرة صوت مختلفة : جئت لأقدم اقتراحًا.

– إنه نفس الاقتراح، أخبرونى الآن، إنهم يطلبون الإفراج عن رفقائهم.

– لن يكون ذلك متاحًا فى مثل هذه الظروف.

– إذن، افعل ما تراه واجبًا. واسمح لى أن أخبرك أن اقتحام الكنيسة يعتبر أمرًا خطيرًا للغاية.

– مهلاً أبى، ليس اقتحامًا للكنيسة، إننا نلقى القبض على مجموعة من مثيرى الشغب وحسب التجأوا إلى...، وضاعت بقية الكلمات وسط احتجاجات السيدات. تراجع الرجل وهو يتحدى بنظره هؤلاء الذين قاوموه.

وبإشارة من الكاهن فُتح باب الكنيسة ودخلت السيدات دون أن يتمكن رجال الشرطة من الحيلولة دون ذلك. لم يصدروا أية جلبة لحظة الدخول، فهن على دراية بغضب الحكومة. جلست النساء إلى جوار أزواجهن وأبنائهن وأشغالهن.ودقت الساعة التاسعة. أثناء ذلك قام رجلان بمتابعة المشهد وما يجرى بالخارج من خلال البوابة الصغيرة الحديدية. وبعد أن تجاوزت الساعة الحادية عشرة انطلقت أصوات صراخ غاضب فى جنبات الكنيسة الرابعة، تخللتها أصوات طلقات نارية. إنهم المدنيون المجندون من قبل النظام الحاكم قام الرجل يتقدم الأسقف بتأمين الأبواب والنوافذ بمساعدة المقاعد الخشبية الطويلة. كانوا مدركين تمام الإدراك ضعف وسائل مقاومتهم مقابل قوة الشرطة إذا ما قررت اقتحام الكنيسة. إذا استخدمت رافعة فستفض الحشد فى دقائق. وبعد أن انتصف الليل بدقائق انطلقت صيحات التهديد داخل الكنيسة ثم ساد صمت فى الكنيسة لا يقل توحشًا عن الصرخات. يتساءلون فى رعب عن الخطط التى ستنتهجها الشرطة لفض اعتصامهم. لا يتمكنون من الرؤية بوضوح من خلال الباب الحديدى، لكنهم يلاحظون عناصر من الشرطة تغادر المكان. وبعد الواحدة بدقائق، يرون أشباحًا تقترب من الكنيسة وكأنها تتحسس المكان. وحين يعبرون الطريق، تنطلق الأضواء صريحة فيظهر بوضوح محيا وجوه الرجال الذين كانوا معتقلين. حين رأى الكاهن أن الرفقاء بصدد استقبالهم بحماسة، أشار

إليهم ليلتزموا أماكنهم : "انتظروا، سأخرج أنا أولاً، ربما تكون حيلة" . خرج الأسقف من الباب ونظر بحذر إلى جانبى الطريق. وحين وجد الطريق آمنًا، اقترب منهم مادًا ذراعيه ليستقبل الرجال الذين تم إخلاء سبيلهم. واستمع لصيحات الحبور تسود الأجواء. وفجأة يختفى العناق الحار وسط مُوجة من الصمت المتسائل حين يفاجأون باختفاء أربعة رجال.

– أين هم ؟

– لن يخرجوا، فهم تحت تصرف العدالة مثلما نكر ممثل الحكومة.

– إذن ؟

– الأمر فى يد القاضى وحده...

– تحدث رامون سيجوبيا : رأيى أننا قد انتصرنا. لقد اهتمت الصحافة بقضيتنا، وتمكنا من تحرير عشرة أفراد من أصل أربعة عشر رجلاً.

– أشار آخر : اتفق مع هذا الرأى، وبإمكاننا تصعيد الوضع دعمًا للبقية المعتقلين.

– يتحدث رايموند وفلوريس : إننا الآن فى وضع أفضل لأن الصحافة تهتم بأمرنا، تعرف من نحن وماذا نريد. وعلى هذا الأساس سوف تهتم برفقائنا.

– قال الأسقف : أتفق مع هذا الرأى، لقد خسرنا بعض الشىء، لكننا من جانب آخر حظينا باهتمام الإعلام وهو ما أثبت توحد خطانا. مقترحى أن تذهبوا إلى بيوتكم. وغدًا سيكون لدينا متسع من الوقت والطاقة. لتأمل الخطوات التالية. ولكن الأفضل الرحيل فى مجموعات وألا يتحرك أحدٌ بمفرده. صافح أعضاء التعاونيات بعضهم البعض بعناق حار متمنين التوفيق. وشكلوا مجموعات متفرقة صامتة لترحل من طرق مختلفة. دخل الأسقف الكنيسة وأغلق الباب.

أما رامون سيجوبيا وكريستينا ورايموندو فلوريس ومارتينا وديونيسيو روخاس وإيسابل فقد توجهوا مع باقة من جيرانهم إلى باريريتو عبر الطريق المفضى إلى القرية. لاحظوا أن السماء مكسوة بسحب كثيفة يتخللها بصيص ضوء النجوم. وصلوا إلى باريريتو بعد مسيرة حوالى ثلاث ساعات دون توقف. أعلن الفجر عن اقتراب الصباح من بعد. وصل كل منهم إلى منزله وتنفس الصعداء، ليس عن مشقة بل عن إحساس بالراحة.

انتظر رامون سيجوبيا وكريستينا عند الباب. كان سوسيدى على وشك النوم يتحسس بخوف وشك ما حوله إلا أن استمع لطرقات على الباب. شاهدوا من النافذة رجالاً لم يتمكنوا من التعرف عليهم.

- سأخرج لأستطلع الأمر.

كريستينا وهى تتوسل : أرجوك لا تخرج.

لم يكن بحاجة ليفعل، فقد اقتحم الباب ألبينوساليناس وبرفقته أربعة رجال آخرين فى يد كل منهم مسدس. تم الزج بـ رامون سيجوبيا وهو مقيد اليدين فى السيارة، ليجد إلى جواره ديوينيسيو روخاس و رايموندو فلوريس بين آخرين من الرفقاء الذين كانوا بداخل الكنيسة. فتح باب المعتقل "أبراهام كوى" وتم الزج بهم فى نفس التوقيت الذى يستيقظ منه الجميع ليحتسى مشروب الماتى، بينما السحب كثيفة يكتنفها البرق من حين لآخر. توقفت العربة أمام مبنى قديم يقع على الجانب الآخر من مكاتب الحكومة. تم الزج بهم لينزلوا من السيارة بركلات من القدم، ودُفعوا للسير فى ممر ضيق ينتهى إلى قبو، بينما يجلس أربعة رجال يحتسون مشروب الماتى من التُرمُسُ أول من قام من مكانه هو سابريثا، بينما يغطى جسده - مثله مثل الباقين- بنطال منزلى قصير مطبوع بورود. وصلوا فى الفجر، أرسلهم وزير الداخلية.

جلس رامون سيجوبيا على مقعده المتحرك يستمع إلى الراديو ويُلقى التحية على من يمرون أمامه. يستمع إلى الأخبار التى تصل من العاصمة باهتمام، ويشعر بالحزن والألم لمقتل عشرات الجنود الذين لم يفعلوا شيئًا ولم يحاربوا الدكتاتورية. أخذ يفكر "كانوا مجبرين على ذلك، أن يضحوا بحياتهم من أجل رهان خاسر. فلن يضحى أى شخص بحياته من أجل نظام منحرف. لم يفعل ذلك حتى هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم أنصار إستروسنر فى أصعب اللحظات. لقد اختفوا جميعًا وبقى القائد الأوحد، مثلما اعتادوا تسميته ليشعروه بالسعادة، بقى وحيدًا. وجد أحد الجنرالات من حرسه، وقد ضحى بجنوده بدلاً من اعتقال الدكتاتور وإسدال الستار على تراجيديا استمرت خمسة وثلاثين عامًا، كيلا تستمر ولو دقيقة واحدة". يستحضر الأسماء ووجوه الدكتاتورية. وحين يتوقف عند ذكر وجه سابريثا المرتعب يسمعهم يذكرونه فى الراديو. ترتسم ابتسامة ما

بين الألم والفرح على شفتيه، أصبح الدكتاتور سجينًا وسيعدم بسبب جرائمه. تذكر المرة الأولى التى وقف أمامه. كان ذلك فى "أبراهام كوى" عقب احتلال كنيسة "سان إجناثيو".

توجهنا سيرًا على الأقدام إلى منازلنا، يتملكنا الحماس لأننا أجبرنا الحكومة على الإفراج عن زملائنا بالرغم من أنهم لم يخرجوا بالكامل. على الفور سوف ندرك أننا ارتكبنا خطأ. تم إلقاء القبض على زعماء الرابطة محل كل من تم الإفراج عنه، إلا أن الوضع بالنسبة لنا كنا أكثر سوءًا، لقد وقعنا فى يد سابريثا وباثان وبيلوتو الذين توجهوا للإقامة هناك الليلة السابقة لذهابنا. أخذوا ينظرون إلينا باحتقار ولا مبالاة منذ أن دخلنا بينما يحتسون مشروب الماتى.

تبادلنا النظرات كل إلى الآخر بخوف بعد أن زجوا بنا ركلاً بالأقدام إلى القبو، بل نظر كلٌ إلى الآخر برعب. تمنينا أن ينجزوا "عملهم" بأسرع وقت ممكن لينتهى قلق الانتظار، على الرغم من ذلك واصلوا احتساء الماتى.

عدم إخضاعنا للتعذيب فى الحال كان جزءًا من التعذيب، ومن مقاعدهم بدأوا فى إطلاق سلسلة من الأكاذيب، تذكرت أننى لمحت فى رقبة سابريثا قلادة ذهبية غليظة يتدلى منها صليب، وبدا لى أنه قد قَبَّل الصليب قبل أن يبدأ بتوجيه الضربات لنا. أمرونا بخلع ملابسنا بالكامل وظللنا على هذا الحال طويلاً إلى أن نهضوا وبيدهم الهراوات. فى البداية بدا عليهم الهدوء واللامبالاة، إلا أنهم تحولوا إلى حيوانات ضارية حين أمسكوا بنا. ارتموا على أول شخص كان قبالتهم وأبرحوه ضربًا إلى أن قذفوا به على الأرض بلا حراك. كان دورى الثالث فى دورة التعذيب الوحشى،أوسعونى لكمات عنيفة فى بطنى وجميعهم فى الوقت نفسه. ومع كل لكمة كانوا يضيفون أنهم سوف يعلموننا أن نقدر قيمة السلام، وأن التعاونيات الزراعية الشيوعية ليست هى من سيقوض الحكومة التى... لم أسمع بعد ذلك من شدة الضرب والألم، وبعد ذلك تركونى دون وعى، ولا أدرك كم من الوقت قضيت، إلا أننى حين استيقظت وجدت نفسى فى المكان نفسه غارقًا فى عرق بارد، دون أية قدرة على الحركة.

لم أتمكن من تحريك ساقى أو ذراعى الاثنين، وبالكاد تمكنت من الرؤية بسبب الانتفاخ الهائل الذى أحاط بعينى وخاصة اليمنى. لاحظت بصعوبة أن زبانية التعذيب قد غادروا.

وجدت إلى جوارى وفى الحالة نفسها ديوينيسيو روخاس. حاولت سؤاله عن حاله، لكن بدا لى السؤال بلا أية فائدة. ما رغبت فيه من أعماقى أن أتحدث وأن يستمعوا إلى لأتحقق أننا ما زلنا أحياء. إلا أن الدماء تدفقت من فمى بدلاً من الكلمات. شعرت شيئًا فشيئًا أننى أستعيد الوعى. حاولت أتذكر ما تعرضت له منذ انتزاعى من المنزل.

منزلى !! وماذا عن كريستينا ؟ أرعبتنى فكرة أن يكونوا قد اعتقلوها هى أيضًا وأنها تقبع هنا فى قبو مماثل. عرفتُ أنه كان لدى الحق أن أفكر بهذا الشكل بعد ما عرفت ما وقع لها وأيضًا لـ سوسيدى.

دلنى بصيص الضوء الهارب من الباب الموارب أن الشمس بصدد الغروب. كنت أتألم بشدة غير أننى تمكنت من مد ساقى فى وضع الجنين الذى انكفأت عليه. تمكنت من الجلوس بعد وقت طويل وشعرت بالارتياح حين تفاجأت بـ ديوينيسيو روخاس جالسًا إلى جوارى. حين شعر بوجودى اقترب منى زاحفًا إلى أن حط ذراعه فوق كتفى. بدت حالته أفضل من حالتى. شيء منطقى، فقد كان أكثر شبابًا وقوة بالرغم من أن الضرب قد نال منه. أشار لى قدر استطاعته أن الرفقاء على الأرض، لكننى لاحظت غياب ثلاثة.

– تم نقلهم إلى وحدة العلاج وبينهم العم "رايموندو" لقد صاح بهم "أيها القتلة".

– أردت فعل نفس الشيء لكننى كنت خائفًا ومرتعبًا.

– لن يفيد ذلك سيد رامون، لن نكسب شيئًا، كيف تشعر الآن؟

– أكثر ما يؤلمنى أننى لا أعرف ما جرى لـ كريستينا.

– أنا أيضًا أفكر فى إيسابل.

وشيئًا فشيئًا انخرط الباقون فى الحديث. لم يكن لدينا سوى النظر الواحد إلى الآخر، وتبادل الأسئلة بالأعين. خطر لنا جذب انتباه زبانية التعذيب. دخل سابريثا وبيلوتو، وافترشا أجسادنا العارية المعذبة بنظرات الاحتقار. تظاهر ساربيثا بالدهشة لأنه وجدنا لا نزال على قيد الحياة، "لكن هذه الليلة لن يحالفهم حظ أمس". أردت الصراخ فيه ليقتلونا مرة واحدة لكننى تذكرت ديوينيسيو، إننا لن نكسب شيئًا. حاول أحد الرفقاء أن يستر جسده فأخبره ألا يفعل، لأنه سيخلع ملابسه مجددًا، ثم تمتم سابريثا "أثناء ذلك،

فإليك هذا" وعاجله بصفعة على وجهه، ثم خرجوا بعد ذلك دخل أحد العساكر ومعه دلو مياه وقدح وضعهما فى وسط أرض القبو، زحفنا إليهما، كنا فى شدة الظمأ.

بعد ذلك بوقت قصير دخل نفس العسكرى ووضع أربع علب لبن من ماركة "نيدو". وقال بصوت بدا لنا متلطفًا: "من أجل احتياجاتكم"، شجعتنى نبرة صوته أن أسأله عن الساعة، فأجاب بصوت خافت السابعة والنصف، قلتُ لنفسى بدهشة: إننا هنا منذ اثنتا عشرة ساعة، معنى ذلك أن معاناتنا قد تكون على وشك الانتهاء. لم أصدق تهديد سابريثا بقتلنا جميعًا. أراد إثارة خوفنا وحسب، كانت صفعاته مؤلمة كأقصى ما يكون، لكنها لم تكن قاتلة كانوا يعرفون أين يضربون وفى أية لحظة يتوقفون. فنحن لم نرتكب جريمة خطيرة. نظمنا احتلال الكنيسة لنعبر عن مطالبنا. فتصرفاتنا تضايق الحكومة وتغضبها ولكن ليس للدرجة التى يقومون فيها بقتلنا ضربًا. احتلال الكنيسة لن يسقط الحكم، لكنهم يرغبون إيقاف نشاطنا كيلا نقوم بأفعال مشابهة. لا شك أننا سنتكبد اليوم نفس العذابات. تمنيت تلقى ضربات قاسية تجعلنى أفقد الوعى وحين تسترده جمجمتى يكون قد مرت أربع وعشرون أو ثلاثون ساعة.

تُرى كم عدد الأيام التى سنقضيها هنا ؟ هل سيعذبوننا طوال الوقت ؟ ألن تحين الساعة التى سيُفتح فيها هذا الباب ؟ وقد فُتح. دخل جنديان ومعهما دلو وأخبرانا أنه طعام العشاء، وأوصيانا ألا نأكل كثيرًا استعدادًا لحفل الرقص الذى سنواصله. سواء كان هناك رقصًا أم لا، فقد كان من المستحيل أكل هذه القذارة. لم يأكل أحدٌ، ولم يبرحنا الألم. كل ما تمنيناه النوم لكى ننسى، بالمثل لم نستطع لأن شبح الزيارة الثانية لزبانية التعذيب كان يلتهمنا التهامًا. وهذه المرة ستكون أفظع.

ضربات وصفعات جديدة، لكمات تلو لكمات، وجراح فوق الجراح، جميعها ستجعل من جسدنا بقايا أجساد بشرية. سأفعل ما باستطاعتى لأقاوم. لم أؤمن بما يقول رايموند وفلوريس وآخرون. سأتحمل العقاب فى صمت، لن أفتح فمى، لن أزيد عذابهم عذابًا آخر لا أصدق هذه الوحشية، إننا لم نلتق أبدًا، ولم نفعل لهم شيئًا، لكنهم يتصرفون كأننا أعداء منذ زمن. أراهم لا يتصرفون مثل أشخاص محترفين، مثل الملاكمين الذين يضربون بقوة لكن دونما غل. هؤلاء يضربون بحنق وغضب.

وأتساءل لماذا ؟ والإجابة هى أنه لا سبب هناك غير أنهم يتلقون الأوامر بضربنا ويفعلون ذلك، لكننى لا أفهم سبب الكراهية العميقة، فهم حتى لا يعرفوننا، ولا يعرفون أسماءنا، غير أن الاحتقار يبدو جليًا فى عيونهم وقسمات وجوههم. كلهم كراهية قاتلة نحونا. أردت القول حينها: إنهم سيكونون هم أنفسهم ضحايا صباح الغضب. لم يذق أى منا الطعام. أعتقد أن الطباخ كان واحدًا من زبانية العذاب، ربما وضع السم به. هذا هو : ثم جعل غضبه يتقد فى الوعاء.

لكننا نستطيع رفضه، وأتساءل إلى متى سنتحمل الجوع ؟ شعورنا الآن ضئيل شيئًا ما بسبب الألم، ولأننا لم نتعرض لشىء من هذا حتى فى أحلك أوقات الفقر. نتساءل فيما بيننا ممَّ أُعد هذا الحساء ؟ نتسلى باختلاق الأجوبة ما بين الجدية والهزل، من خرق التنظيف، من أشلاء بقرة، من الملاعق، من جوارب سابريثا نفسه، من... يُفتح الباب ويدخل سابريسا.

نلمح بصعوبة خيال الرجل متين البنية وسط الضوء الشحيح الصادر من مصباح يكسوه التراب، يسألنا إذا ما كنا على استعداد لحفل راقص جديد. أغلق الباب واختفى. اعترتنى الدهشة لأن تهديده لم يجعل ضربات قلبى تتسارع، لم يثر رعبى، على العكس رغبت أن يعجِّل بالحضور وينتهى منى أولاً، هذا ما أردت أن أخبره به، ولكننى تذكرت كريستينا، سينتظرها القيظ والرطوبة والبعوض، هذا هو جحيمنا. داومنا على انتظار فتح الباب، كنا رقودًا وقيامًا.

صدور أى صوت طفيف كان يشحذ انتباهى انتظارًا لأية انفراجة للباب. فقدت الإحساس بالزمن. استطعت استراق لحظات للنوم لدقائق معدودة إلى أن غشى بصرى ضوء من الخارج، بدا بصيص الفجر يتسلل من كوة الزنزانة ولم يكن مصباح الفلورسنت. وهكذا أمضينا الليل دونما الحفل الراقص هذه المرة. فُتح الباب بعد ذلك ودخل أحد العساكر: "حسنًا"، نطق كلمته ووضع الإفطار المؤلف من عصيدة سوداء ومخبوزات متعفنة فى دلو ثم خرج. همس لى بينما يدلف من الزنزانة : "لقد رحلوا"، همست بدورى لرفقائى أن زبانية التعذيب ذهبوا. لم يقدر العسكرى أن يشير إلى أكثر من ذلك. لم يشهد وضعنا أية تغييرات، فيما عدا أننا لم نتعرض لضرب مبرح ثانية، وسمحوا لنا بالخروج ساعتين إلى الفناء فى اليوم الخامس. أول ما فعلته هو البحث عن رايموندو فلوريس ورفقائه. لم

أجده، ولكننى علمت على الفور من معتقل آخر أنهم لايزالون فى المستشفى، جعلتُ أفكر فى مارتينا زوجة رايموندو وفى أبنائه.

طاف خاطرى أيضًا بـ كريستينا وسوسيدى. انقضت الساعتان سريعًا وعُدنا إلى القبو. حاولت ملأ صدرى بالهواء المنعش النقى إلا أننى اصطدمت بعد ذلك بظلام المكان، الجدران الرطبة العطنة ورائحة كريهة كرائحة الحيوانات وكأننى أتفاجأ بها لأول وهلة. بعد انقضاء أسبوع، وجهوا إلينا الأمر بالخروج صباحًا إلى الفناء.

التقينا على الفور بـ رايموندو فلوريس والآخرين، الذين عانق كل منهم الآخر فى صمت، أمر ضابط بأن نصطف بنظام لنتوجه إلى مكتب مندوب الحكومة فى الجانب الآخر للفناء. وقفت فى المنتصف ما بين رايموندو وديوينيسيو، وقفنا أمام باب علقت على واجهته يافطة كتب عليها "قسم التحقيقات"، وجعلنا الضابط ندخل واحدًا تلو الآخر. جلس موظف مرتديًا الزى المدنى وتبدو عليه علامات الملل يسجل بياناتنا الشخصية ويطبع بصماتنا وتوقيعاتنا على أوراق بيضاء. بعد انتهاء الإجراءات اصطحبنا إلى الباب الرئيسى وأخبرنا بأننا أحرار.

أوشكت على توجيه الشكر له لكننى توقفت. فلتت منى عبارة "إلى اللقاء" دون تفكير منى. فى إحدى ليالينا فى المعتقل، تم إلقاء القبض على الأسقف ليلاً فى مخدعه واقتياده إلى أسونثيون ليخضع لتحقيق قصير، ورحلوه بعد ذلك فجرًا إلى المدينة الحدودية كلوريندا. تركوه هناك دون وثائق أو أموال وهددوه من مجرد التفكير فى العودة إلى باراجواى. بهذا الشكل وصل عدد الأساقفة المطرودين إلى سبعة أشخاص، لتعاونهم مع التعاونيات الزراعية المسيحية.

– تكهن رامون سيجوبيا خلال جلسة اجتماعهم السرية بزعماء التعاونيات، بأنه ما زال هناك عدد من اليسوعيين ومن مذاهب دينية أخرى متعاطفة ومتعاونة مع الفلاحين. قاطعهم ديوينيسيو روخاس : الحكومة تُحكم قبضتها يومًا بعد يوم. ترغب فى القضاء على منظمتنا.

– قال أحدهم: سيكون عليها أن تقضى علينا أولاً.

- أجاب رايموندو فلوريس: لن تكون هناك حاجة لذلك، فالاعتقالات متواصلة فى أنحاء البلاد، أصبحنا أكثر عزلة بسبب الاعتقالات اليومية، الخوف يجتاح المكان ويدفعنا لكى نتساءل: هل يستحق الأمر المواصلة ؟ وتباغتنا الإجابة بأن الناس تنغلق على أنفسها. والأسوأ من ذلك أن هناك أعضاء بيننا يندمون على أنهم استمعوا إلينا.

- قاطعه رايموندو الذى تابع الحوار باهتمام: نعم، هناك الكثيرون، ولكننى أعرف الآلاف الذين يفضلون عدم العودة للحياة السابقة لتأسيس التعاونيات. لذلك فإن مواصلة الكفاح تستحق العناء. وبالمثل من أجلنا نحن. المهمة التى بدأناها لا يجب أن تنتهى بهذا الشكل، فى منتصف الطريق. يجب أن نحظى بالغاية التى نستحقها. انتظروا ليعرفوا عن أية غاية يتحدث، إلا أن رايموندو فلوريس يتحدث عن بعض الطلاب الذين يتحدث معهم من وقت لآخر فى أسونثيون. يودعهم دون أن يستطرد فى الحديث، على أن يلتقوا الاجتماع المقبل.

وقبل أن يرحل ينطق بالجملة التالية: "يجب أن نواصل".

- ديونيسيو روخاس: نعم يجب أن نواصل، المشكلة أن الشرطة تعوق عملنا.

- أضاف قائد آخر: أفكر مثلكم، ولكن لدى عائلة تعانى، لقد اعتقلت ثلاث مرات.

- أجاب آخر : مثلك مثل أى شخص هنا، غير أن الاعتقالات تدلل على أننا ننتهج الطريق الصحيح، ذلك أننا نجحنا فى إيقاظ الفقراء.

- رامون سيجوبيا : واعتقد أنا أيضًا أنه لا يجب أن نهجر مشروعنا، غير أنه يجب إدراك أن الظروف قد تغيرت والحكومة تعتبرنا مجرمين، وتعاملنا على هذا الأساس.

والكثير من الرفاق يفضلون البقاء فى المنزل، برغبة داخلية منهم أو تحت ضغوط عائلاتهم. وفى كل الأحوال فإن مجموعتنا تضعف مقابل الضغوط القمعية. أقترح أن تدرس كل لجنة فى "ميسونيس" الخطوات القادمة لنطرحها بعد ذلك فى الجلسة الوطنية العامة التى ستعقد خلال اثنين وعشرين يومًا فى أسونثيون.

توجه بعد الاجتماع إلى منزل أبيه الروحى خوليان باريدس وهو فى طريقه إلى منزله، ليعوده إثر نزلة البرد الحادة التى ألزمته الفراش. يمتلك باريدس محلا لبيع

مستلزمات الحدادة، كما أنه يوزع مجلة "نيمونجيتاريا" التى تُنشر بها أخبار سياسية لا يتم نشرها فى الجرائد الأخرى. التقى رامون سيجوبيا حين عاد إلى المنزل بكل من رايموندو فلوريس وديونيسيو روخاس اللذين كانا بانتظاره. اعترت رامون الظنون حين رآهما فى منزله، معتقدًا أن شيئًا خطيرًا قد وقع، ذلك أنهم التقوا جميعًا قبل وقت قصير. تحدث رايموندو فلوريس بعد أن تيقن أن سوسيدى لا ينصت إليهم، ذلك أنه رآه يتجه إلى المطبخ: رامون، كنت أتحدث مع ابن عمومتى ديونيسيو بشأن الرابطة التعاونية. فالحكومة تتعقبنا وتتعامل معنا بالطريقة الوحيدة التى تعرفها، الاعتقال والتعذيب. من جانبنا نتساءل دومًا عن سبب القمع ولا نجد إلا إجابة واحدة، إنها مستاءة مما تمكنا من إحرازه: تحسين اقتصادنا، استخلاص أفكار خاصة بنا تعبر عنا، وحدتنا مع بعضنا البعض. انتبهت إلى أننا أصبحنا قوة نامية، إلا أنها قوة عاجزة عن حماية نفسها، نحن بحاجة إلى منظمة أخرى. قلت لكم اليوم: إننى على تواصل مع مجموعة من الطلاب. هم شباب جادون، لديهم شعور بالمسئولية، ويرغبون مثلنا مثلهم فى بلد مختلف، إلا أنه مع تلك الحكومة ستظل البلاد على حالها.

– تساءل رامون ألدانا وعيناه مفتوحتان لأقصى درجة: كيف ذلك، أترغبون فى إسقاط الحكومة ؟

– أجاب رايموندو فلوريس : لا، ولكن كل ما نريده هو تغيير هذه الأوضاع. فهدفنا فى التعاونيات هو تحقيق حياة أفضل من خلال المنظومة الاجتماعية عن طريق الكنيسة، ولكنهم يغلقون الأبواب أمامنا بسلسلة من الممارسات القمعية لا نهاية لها.

– اعتدل رامون سيجوبيا فى مقعده، وكأنه بصدد الاستماع لكشف مريب : إذًا ؟

– نهض رايموندو فلوريس ووقف أمام مُحدثه وقال : حسنًا، هذا يعنى أنه يجب علينا الاندماج مع منظمة أخرى دونما أن نفقد شيئًا من مشروعنا.

– وما اسم التنظيم ؟

– وماذا يعنى؟

– التنظيم السياسى العسكرى. لا يهدف إلى الاستسلام، بل إلى العمل، ما رأيك ؟

– هكذا دون مقدمات، وأنت، ماذا ترى يا ديوينيسيو ؟

– قاطعهما رايموندو : لا شيء، إننى مثلك بحاجة إلى المزيد من المعلومات، وسيكون من الأفضل مناقشة الأمرمع الرفاق فى الاجتماع فى العاصمة، وأعتقد أنهم سيعرضون أفكارهم بشكل أفضل مما أفعل. وأعتقد أنهم صالحون.

– رامون سيجوبيا : من الممكن أن يكون الأمر جيدًا، فقط لا نرغب فى السقوط فى النيران.

حطَّ الليل فكسى يومًا غلب عليه الضجيج واللغط.

كريستينا تأمل أن تنتهى الزيارات التى لم تتوقف على مدار اليوم لتتمكن أن تقرب زوجها من مائدة العشاء، طبقه البسيط المعتاد. وينصتا إلى جهاز الراديو فى كل لحظة بينما يتناولان الطعام، يستمعان إلى العدد النهائى للضحايا والبالغ واحدا وثلاثين قتيلاً، وثمانية وخمسين جريحًا. أشار المذيع فى بيانه :"كان بالإمكان ألا تقع هذه الضحايا لو نفذ المخطط الأول بكامل هيئته، لكن فشل اعتقال الدكتاتور فى منزل عشيقته بعيدًا عن استعدادات الانقلاب حال دون ذلك. سمح هذا بدوره أن يلجأ إلى الحرس الرئاسى حيث واصل المقاومة لساعات متصلة كفيلة بأن يلقى عشرات الجنود حتفهم، وبالمثل العساكر وسط المدينة. لم يحظ الدكتاتور بحماية من العسكريين و المدنيين إلى آخر لحظة" .

علق رامون سيجوبيا: هذه هى نتيجة الكبر والصلف.

كان إستروسنر يشتم التواطؤ لكن لم تسعفه حواسه، شكرًا للرب.

واصل المذيع بيانه فى الراديو :"التحركات التى حدثت بالأمس فى سلاح الفرسان كانت تشى بأن شيئًا كبيرًا سيحدث. وبالرغم من ذلك لم يتخيل أى شخص أن تصل الأمور إلى هذه الأبعاد التى وصلت إليها وأن ما حدث كان ليحدث" .

يتكرر بيان الشرطة الموجه إلى البلاد بأكملها وخاصة سكان العاصمة، مشيرًا إلى أن "الهدوء قد استتب بالكامل وأصبحت الأمور تحت السيطرة. وعليه فإن المواطنين باستطاعتهم التنقل بحرية وممارسة أنشطتهم اليومية" .

ثم قرأ المذيع على التوالى قائمة المعتقلين حتى تلك اللحظة.

باستور كورونيل، ألمادا موريل، إلياس سابريثا، بيلوتو و زبانية تعذيب آخرين.

ارتسم على وجه رامون سيجوبيا تعبير غامض لدى سماعه الأنباء. لا يوجد ما يدعوه للشعور بالسعادة. تذكره تلك الأسماء بمعتقل أبراهام كوى، وقسم التحقيقات حيث كان يتم تعذيبه يوميًا. اعتقد أن إضرابه عن الطعام وجسده المحطم كفيلان بإنقاذه من أيدى جلاديه وعاف الطعام تشبثًا بهذا الأمل. أطلقوا سراحه بعد اثنين وستين يومًا وقد تضرر جسده وأعضاؤه بنسبة ٧٥٪ بما لا يدع مجالاً للشفاء، وبعد أسبوعين كاملين من الاحتضار بين الحياة والموت بمستشفى الشرطة.

رايموندو فلوريس

قرر ديونيسيو روخاس وزوجته إيسابل إخبار مارتينا بعد منتصف الليل نبأ الانقلاب العسكرى الناجح ضد إستروسنر. ربما كانت مستغرقة فى النوم إلا أنه سيجافيها حتى يتنفس الصبح. فمنذ أن لقى زوجها رايموندو فلوريس حتفه، تدهورت صحتها بشكل كبير وباتت ملازمة للفراش أغلب الوقت. يواسيها أبناؤها وأبناء أشقائها لتتغلب على المآسى التى حلت ببيتها ليلة الجمعة الحزينة عام ١٩٧٦، حيث خيم الحداد على المنزل منذ ذاك الحين وعلى مدار ثلاثة عشر عاما. بدا أنها لم تهتم كثيرا بالخبر. استمعت للتفاصيل التى قصها عليها ابن شقيقها بابتسامة باهتة وزفرات قليلة. فى مخيلتها تصارعت مشاهد خمسة رجال يدقون الباب بعنف فى ساعة متأخرة من الليل. أراد رايموندو أن يفتح الباب، إلا أنها رأت سيارة الشرطة من النافذة، أقنعته بالهروب من الباب الخلفي. كان هذا ما تمنى فعله، ولكن ما إن ركض لبضعة أمتار حتى فوجئ بالمنزل محاصرا. أوقفه ثلاثة رجال وأوسعوه ضربا ليطرحوه على الأرَض العشبية، بينما قام العمدة سالميناس وأحد الضباط بتفتيش المنزل، ضغطوا على مارتينا لتخبرهما بمكان السلاح، عثرا فى أحد أدراج خزانة الثياب على طبنجة عيار ٢٢، ومبلغا كبيرا من المال حصيلة بيع محصول الأرز والقطن. صادر الضابط السلاح، وسالميناس، المال، جلست مارتينا على طرف الفراش ترقبهما بحزن بين دموعها، وشعرت بكآبة لمصير الزوج. حينما جاءهما نبأ المكان الذى عثر فيه على رايموندو فلوريس، انطلق سالميناس والضابط عبر الباب الخلفي. فى نفس اللحظة سُمع دوى طلقة رصاص يشق الصمت ثم انطلقت مركبة الشرطة على الفور. خرجت مارتينا يائسة، يتبعها أبناؤها. تفاجأت بـ رايموندو مذبوحًا وبصدره ثقب إثر طلقة رصاص وجثته ملقاة على العشب الرطب. أحدث نحيب المرأة وأبنائها شرخا عميقا فى سكون الليل الثقيل. ليلة غير مقمرة، إلا أن أنوار النجمات الفضية أضاءت الكون. وقف الجيران متيبسين يراقبون

المشهد خلف النوافذ، ولم يبادر أى منهم لتلبية صرخات الاستغاثة. تيقنت أنه لن يساعدها أحد، جرت الجثة بمساعدة أبنائها حتى المنزل الذى لم يعد به موضعاً لقدم بعد أن قلبته الشرطة رأسا على عقب. بعد الانتهاء من تنظيفه وتغيير ثيابه، كان على مارتينا والصغار الانتهاء من المهمة الشاقة برفع الجثمان وتسجيته فى الفراش. حملت رياح كئيبة هبت بعد ذلك الدوى المفزع لإطلاق أسلحة نارية ونباح كلاب جن جنونها. كانت مارتينا قد علمت بنبأ اعتقال كل من ديوينيسيو روخاس، رامون سيجوبيا، وغيرهم من الأقارب والأصدقاء بمعتقل أبراهام كوى الرهيب، الذى تحلقت حول أسواره النساء فى انتظار بائس لمعرفة أخبار أزواجهن غير مباليات بالساعة أو بعد المسافة.

فى الصباح الباكر ذهب الابن الأكبر، خورخي، ذو الأربعة عشر عاما، إلى القرية ليحضر النعش. ظل محتضنا جثة الأب دون أن يغمض له جفن حتى طلوع الصبح هو وأخوته. على طول الطريق وجد جميع المنازل مغلقة، كما لو كانت مهجورة، إلا أنه لمح بعض السكان يراقبونه من بين فرجات نوافذ مواربة. على غير العادة كانت الكنيسة التى تعج بالمصلين فى سبت النور، خالية تماما مما زاد من ارتباكه وألمه. تيقن أن أهالى باريريتو قد عرفوا بمصير الأب وأراد أن يعود أدراجه إلى المنزل فورا. واصل سيره، وليستمد رباطة جأشه حث الثيران رافعا صوته أعلى قليلا من المعتاد.

فى محل الحانوتى طلبوا منه الانتظار لحين الانتهاء من موافاة سيدتين كانتا قد حضرتا قبله. فيما يجلس على الرصيف، شاهد بعد برهة سيدتين أخريين ترتديان أيضا ثياب الحداد يخيم على محياهما نفس لمحة الأسى. كانت إحداهما تحمل بين ذراعيها رضيعا يصرخ من الجوع.

فى طريق العودة، عرج على السجل المدنى لإنجاز إجراءات الدفن التى كلفتها به الأم. تجاهل الموظف، وكان على علم بالوضع مثله مثل بقية أهل القرية فى ظرف كهذا، الشروط القانونية التى تقضى بتقديم شهادة وفاة موقعة من طبيب. وليتجنب ترك الاستمارة فارغة كتب أن الوفاة سببها "استسقاء رئوي". فيما بعد، تناقض هذا "التشخيص" مع التقرير الرسمى الذى أقر بأن رايموندو فلوريس مات منتحرا. عندما خرج من السجل المدنى التقى خورخى بالسيدتين اللتين كانتا فى محل الحانوتي. بعد ذلك بسنوات طويلة سيلتقون مجددا فى الجلسة العامة التى دعت إليها لجنة العدالة والحقيقة بسان خوان باوتيستا، حينما قص الضحايا جرائم الدكتاتورية.

نقل الجثمان من الفراش للنعش كانت مهمة شاقة أخرى على الأطفال الصغار لا يضاهيها سوى رفعه على العربة الكارو، بعد منتصف النهار بقليل ليتوجهوا بعد ذلك عبر طريقا طويلا إلى المقابر تحت شمس لا ترحم. على مدار أكثر من ساعة بعد ذلك، شوهدت مارتينا وأبناؤها في شارع القرية الرئيسي يلفهم الرعب وسكينة القيلولة، يسيرون في صمت خلف العربة التي تجرها الثيران متشابكي الأيادي. انضمت لهم أخيرا في المقبرة إيسابل وكريستينا وأربع نساء أخريات، لم تتمكن من المجيء إلى سان خوان باوتيستا لمعرفة مصير أزواجهن. كان هناك ستة عساكر شرطة يحرسون مدخل المقابر، تحسبا لأية اضطرابات. لم يكن هناك داع لذلك. خلال دفن الجثث الخمسة بما فيها رايموندو فلوريس، في تلك الظهيرة، لم يكن هناك سوى عدد محدود من الأقارب المقربين. ملأ الخوف فراغ فناء المقبرة ولكن لم يخفف وطأة الأحزان. قبعت كل عائلة في منزلها تجتر أحزانها ضاربة أخماسًا في أسداس حول الخطوب القادمة. تضارب موقفهم مع هؤلاء الذين غمرهم شعور بالارتياح للقضاء المبرم على منظمة فوضوية كانت تخطط لتقويض دعائم الدولة، وفقا لاعتقادهم.

جميع الضحايا ينتمون إلى التعاونيات الزراعية المسيحية. أمر موظف البلدية بجعل النعوش صفا واحدا لتوضع في لحودها بترتيب سيختل بوصول النعش الثالث بالقائمة، الذي أحضره محمولا على الأعناق سيدتان وأربعة رجال. خلال الطريق الممتد لثلاثة كيلومترات كانوا يريحون النعش على مقعدين كل مئة متر تقريبا. حل الدور على رايموندو فلوريس بعد دفن الضحية الثانية، حينئذ استوعبت مارتينا المغزى من تعليمات الأمن بالحضور مبكرا إلى المقابر. كان هدف السلطات من حشد النعوش أن يبدو الأمر كما لو كان دفن جثمان واحد فقط.

عقب العودة، بالعربة التي تجرها الثيران، ظلت مارتينا وأبناؤها لفترة طويلة في الفناء كما لو كانوا يخشون دخول المنزل. في النهاية، فتحت الأم الباب ودخلوا لتتجدد أحزانهم. بينما شرع الأطفال في تجهيز المذبح، حفرت مارتينا أسفل شجرة جوافة لتخرج كيسا بلاستيكيا به قصاصات جرائد، ملاحظات، بيانات، أجندات، خطابات ومستندات أخرى كان زوجها يخبئها عقب عودته من العاصمة، وكانت هي تحفظها عن ظهر قلب لأنها قرأتها وناقشتها معه. كانت تشاركه الحاجة إلى استشراف سبل أخرى أكثر من مجرد

الاحتجاج، للقضاء على ماكينة النظام التى كانت تجهض المبادرات الاجتماعية العصية على السيطرة. قبل أن تلقيه فى النار تصفحت "تاتا بيريري"، جريدة المنظمة السياسية العسكرية احتفظ زوجها بهذا العدد لسبب ما لم تعد تذكره. كان المتحدث باسم المنظمة يحث طلبة وعمال وفلاحين على توحيد قواهم "ضد القمع" حتى بلوغ "النصر الحاسم" والذى يعنى "السلطة للشعب".

بعد وضع الأطفال فى الفراش ليخلدوا إلى النوم، اعتاد رايموندو فلوريس البقاء مع الزوجة يتحدثان لساعة متأخرة حول مستقبل المنظمة. رأى كلاهما المستقبل واعدا ما دامت تحلت الطبقات العامة بالوعى بالمشاكل التى أرهقت حياتهم منذ أمد بعيد. تم تخدير الشعب بوهم رفاهية اقتصادية زائفة ستحققها مشروعات المحطات الكهرومائية "إيتايبو". وهم - كثيرا ما أكد رايموندو فلوريس -، لأنها تفتقر إلى رؤية وتهدر المال وكأنه لن ينفد. انتهزت الحكومة الوضع الاقتصادى لتطرح نفسها كصانع لعصر رخاء جديد مستدام. عندما تيقن أن الرسالة أحدثت أثرها ووجد الشعب متلهيا يوما بعد يوم بصنيعة جديدة أحكم قبضته القمعية بقوة.

ولدنا لنؤسس التعاونيات الزراعية - قال رايموندو فلوريس لزوجته وهما جالسان بالفناء فى ضوء النجوم - بالتحديد لكى ندافع عن أنفسنا ضد الظلم. هل تذكرين اليوم حينما حاول ذلك الجار الاستحواذ على أرض منفعة عامة بسياج شائك. فتحت هذه الواقعة أعيننا، واغتنمنا ذلك النجاح للاتحاد من أجل المطالبة بالمزيد من الحقوق. أذكر أنك طلبت منى توخى الحذر. وقد كان وسرعان ما تزايدنا، تحديدا بفضل الدعم المعنوى والتثقيفى للكثير من الفرنسيسكان واليسوعيين. أصبحت التعاونيات الزراعية اليوم الحل بالنسبة لآلاف الأشخاص. غير أن الحل نفسه ينطوى على المشكلات التى نعجز عن حلها. ما هى؟ فلنبدأ بالأزمة الاقتصادية. متاجرنا تمثل مشكلة بالنسبة لرجال الأعمال؛ مدارسنا تمثل مشكلة بالنسبة للدولة التى لا تكف عن محاولة غسل أدمغتنا؛ بالنسبة للساسة الذين يتورطون أكثر فأكثر فى المحسوبية، بالنسبة للسلطات التى تستدعينا بسبب أى مخالفة تافهة للمثول أمام الشرطة والنيابة العامة والمحكمة. حقا؟ نعم، بالتأكيد، لم ولن نتخلص من الاستبداد. اتفق معك، لا يمر يوم تقريبا دون احتجاز بعض الرفاق من هنا أو من بلدات أخرى لساعات وأحيانا لأسابيع فى المخفر. إلا أن هذه الملاحقات تشد من أزرنا وتضاعف عددنا.

تعرف رايموندو فلوريس على مارتينا مونتييل فى سان أجناثيو. كان مفوض الشرطة قد تلقى أمرا من ممثل النيابة العامة بضبط وإحضار قيادى بالتعاونيات الزراعية، يدعى فيلكس مونتييل من بلدة سان فرانسيسكو المجاورة، حيث كان يجتمع فى إبراشيتها ممثلو التعاونيات الزراعية المسيحية، نحو ثلاثين رجلا وعشرين امرأة بالتنسيق مع القس اليسوعى الإسبانى فيريه، والذى يعمل مع الفلاحين منذ أربع سنوات. اقتحم الضابط الذى أحضر أمر الضبط الاجتماع وسأل عن فيلكس مونتييل:

– ماذا تريد منه – سأل الأب فيرِّى.

– المفتش يريد التحدث معه لبضعة دقائق

– أنا فليكس مونتييل – صاح رايموندو فلوريس.

– أنا أيضا فليكس مونتيل – فعل قيادى محلى نفس الشىء.

– وأنا!

– وأنا!

– وأنا!

وقف الجميع، مدعين أنهم فليكس مونتييل. حذرهم الضابط بعد أن صعد إلى الشاحنة من خطورة عصيان السلطات. ساعة الغداء، اقتربت ابنة فليكس مونتييل من رايموندو فلوريس لتعرب له عن امتنانها لمبادرته، التى أنقذت والدها من سجن محقق مرة أخرى، حتى تلك اللحظة على أقل تقدير. عندما استؤنف الاجتماع، استهل القس فيريه مداخلته بقراءة افتتاحية جريدة "سنديرو" الكاثوليكية الأسبوعية، والتى تترجم وثائق ميديين وفقا للواقع الباراجوائي. يبرز العدد نفسه "رسالة" الأساقفة، التى يؤكدون فى إحدى فقراتها أن "الكنيسة لا يسعها الوقوف مكتوفة الأيدى أو غير مبالية إزاء المصير الذى يواجهه المواطن الباراجوائى على وجه التحديد. وعندما يتعرض هذا الإنسان للقمع أو الإذلال من قبل قطاعات اقتصادية–اجتماعية أو بسبب سطوة سلطة تمعن فى انتهاك حقوق الإنسان، فإن إرسالية الكنيسة تحمل على عاتقها مسئولية الإدانة القاطعة لتعمل كقوة ضغط أخلاقى من أجل التحرر واحترام حقوق الإنسان. ومن منطلق إدراكنا

لمسئوليتنا المشتركة، نعرب عن رغبتنا الصادقة فى الالتزام بمصير شعبنا فى سعيه الحثيث للتوصل لحلول مناسبة لمشاكله العديدة".

بعد عرض هذه الأفكار، أخذ أعضاء التعاونيات الزراعية يعرضون أفكارهم، متفقين على أن الكنيسة لا تضطلع فقط بمسئوليتها الجديدة، بل تحددها فى إطار الدفاع الفعال عن حقوق الإنسان. كما تطرقوا أيضا لنوعية التعليم الذى يحصل عليه الصغار فى مدارس النظام. عقب العديد من الانتقادات الموثقة، اقترح رايموندو فلوريس أن يناقش الرفاق فى لقاء قادم إمكانية تأسيس التعاونيات الزراعية مدارسها الخاصة. كان رامون سيجوبيا أول المؤيدين للاقتراح، على الرغم من استيعابه التام لمضمونه، "يروق لي". قال رايموندو فلوريس إنه لا يستطيع الإفصاح أكثر، ولكنه يتعهد بالقيام بذلك بعد التشاور مع "الأشخاص المعنيين"، الذين سيطلب منهم، إذا كان المقترح مجديا، تنفيذ المشروع. ولما لم يكن هناك موضوع مهم آخر، أغلق الاجتماع باقتراح أن يختبئ فيلكس مونتييل بمنزل أحد القادة. الضابط الذى يبحث عنه لا يعرفه شخصيا، ولكن لا شك أنه يراقب منزله فى تلك اللحظة. سيوجه له اتهاما بإقامة اجتماع فى منزله الأسبوع الماضى بدون تصريح أمني.

تحمست مارتينا لفكرة مدارس موازية لمدارس النظام. كانت قد فكرت أيضا فى هذا الاقتراح وأخبرت رايموندو فلوريس به. ظلا يتحدثان لبرهة، وعند الوداع، تعهدت بالحديث مع الأشخاص النين بوسعهم تقديم رأى سديد.

كان من المعتاد خلال لقاءات اللجان المحلية والإقليمية توجيه انتقادات لنظام التعليم الحكومي. ولكن لأول مرة يطرح أحد إمكانية الاستقلال بالتعليم الأساسي، الذى تحول على يد الحكومة لأداة دعاية، قمع وتشويه للحقائق البديهية. تتعلق المشكلات الأكثر شيوعا بالجدول الدراسى الذى يمنع الآباء من الاعتماد على أبنائهم فى جمع القطن، القطاع الأكثر أهمية بالنسبة للغالبية العظمى من المزارعين؛ التسييس المفرط الذى جعل من المعلمات امتدادا لقيادة النظام بخطبهم وفرض حضور الاجتماعات السياسية؛ المبالغة فى الإعلاء من شأن الدكتاتور فوق القادة والأبطال؛ كتب القراءة التى تعرض صورها واقعا مشوها مقارنة بواقع الفلاحين؛ لغة المعلمين غير المفهومة فى معظم الأحوال، نظرا لأن الجوارانى هى اللغة الأم للأطفال وليست الإسبانية. وتعد هذه المعضلة أحد أسباب

التسرب من التعليم؛ "الحقيبة المدرسية"، الفاسدة والإجبارية، تصاحبها دائما مطالب مالية وعينية، وهى ممارسات تدحض ادعاء مجانية التعليم التى أقرها الدستور. وفقا لهذه الأدلة، تشكلت لجنة - بناء على آخر جمعية عمومية - لبحث مع الفنيين تأهيل "مدارس فلاحية" ستصبح لاحقا "المدارس المزدوجة".

عثرت مارتينا بين الأوراق التى كومتها تحت شجرة الجوافة لتحرقها، على ملاحظات بخط يد رايموندو فلوريس، أعرب فيها عن اختلافه فى البداية مع المنظمة السياسية العسكرية. تذكرت مارتينا كيف كان يكلمها بنبرة تشاؤمية حينما استدعوه للانضمام للمنظمة، إلا أنه كان يرى فيها فرصة لتقليص عمر دكتاتورية متجذرة منذ زمن بعيد. بعد المقابلة الأولى مع شخص توسم فيه القائد - والذى لم يره لأنهم غطوا رأسه بكيس قبل بضعة شوارع من الوصول إلى المقر - خمن رايموندو من صوته أنه لا يزال شابا يافعًا وعديم الخبرة للتصدى لمخطط بالغ الأهمية، ولكن أغرته الثقة التى عرض بها المشروع.

فى اللقاء الثانى - بعد أسبوعين، ساعة الضحى - كان نفس الأشخاص فى انتظاره عند ناصية متنزه سيمناريو متروبوليتانو، عندما استقل السيارة، غطوا عينيه وبعد عشرين دقيقة ساعدوه على الترجل من السيارة. بدا لرايموندو أنهم يسيرون فى دوائر ومن ثم استنتج أن المنزل على مبعدة بضعة شوارع من متنزه سيمناريو. وبعد المصافحات، والاعتذار عن المضايقات، قدم المتحدث نفسه على أنه "لويسون". أضحك اللقب رايموندو، لكنه لم يعلق. تطرق الحديث هذه المرة للمشروعات الملحة: تجنيد المزيد من العناصر، تهيئتهم نفسيا، تدريبهم على استعمال السلاح، تشديد الإجراءات الأمنية واتباع قدر أكبر من الصرامة فى المنظومة. أخبره أن من بين إنجازات المنظمة يوجد طلبة جامعيون ينشطون فى النضال ضد الدكتاتورية. "المشكلة تكمن فى الرفاق الذين ينتظرون معجزة وقوع انقلاب بدون أحداث جسام. نحن على قناعة أنه لن يتم القضاء على الدكتاتورية إلا بالكفاح المسلح. إزاء هذا الاختلاف حول الأهداف - برغم الاتفاق فى المضمون - نحتاج لوجود الطلبة. كما نؤمن بأن مشروعنا يجب أن يشمل الفلاحين والعمال التنظيميين". عندما طلب منه "لويسون" الحديث عن التنظيم الفلاحي، أصر رايموندو على أن ينزعوا عصابة عينيه. "أتفهم هذه الاحتياطات- قال- لكن من المستحب أن تكون بيننا ثقة متبادلة. يخيل إلى إذا لم أر أنى أكلم نفسي". عندما استعاد الرؤية وجد نفسه أمام شاب بالغ

النحافة، يرتدى نظارة، بنطال جينز وقميص كاروهات وحذاء جلدى أسود بدون رباط وبدون جوارب. يوحى سلوكه بأنه شخص هادئ رصين، من الذين يعدون من واحد لعشرة ولا يندفعون فى تصرفاتهم. أحيانا لا يصل العد لخمسة، لكن فى هذه اللحظة يجب أن يكون الدافع أمرًا خطيرا. فيما عدا ذلك كان صوته وإيماءاته ودية تماما ورقيقة، لكنها تعمل فى الوقت نفسه، كما لو أن جدارا غير مرئى يقوم بالتنقية بانتقائية فى منتهى الصرامة ردود الأفعال المألوفة. من جانبه، غير "لويسون" انطباعه الأول بعد أن رأى الوجه مكتملا. رأى وراء نظرة رايموندو نارا مضرمة تنير لكنها قادرة أيضا على الإحراق. عثر فى محدثه على شخص توسم فيه أن يكون بالغ النفع بالنسبة للمنظمة. وجده ذكيا، ذا عزيمة ومنضبطا. قد يصل سريعا لأن يصبح واحدا من القيادات الوطنية. قضوا الوقت المتبقى فى التعارف فيما بينهما على تفاصيل الحياة الشخصية والمهنية. كان "لويسون" فى الحادى والثلاثين من عمره، لم ينه دراسته الجامعية، انفصل عن زوجته وارتبط بإحدى رفيقات المنظمة، نفى إلى الأرجنتين، وعاد منها بصورة غير شرعية منذ شهرين، لكى يترأس، بناء على طلب رفاقه، المنظمة التى نشأت جذورها فى تشيلى فى ظل حكومة سلفادور الليندى الاشتراكية. أما عن رايموندو فلوريس، فلم يكن لديه الكثير ليفصح عنه، لأن المنظمة كان لديها ملف عنه. لم يقل سوى: أنا فى الثالثة والأربعين، لدى زوجة وثلاثة أبناء. "أبناؤك، رايموندو، سيعيشون فى باراجواى مختلفة". عندما افترقا بعناق، أخبر "لويسون" رايموندو أنه من الآن فصاعدا سيدعى ليون. فى نفس الليلة، بعد خلود الأطفال للنوم، تحدث رايموندو مع زوجته عن مقابلة الصباح فى أسونثيون. أخبرها عن انطباعه، وبدون الدخول فى التفاصيل حتى الآن، بأن مشروع الثورة فى مراحل متقدمة للغاية. استحضرا محاولتين للإطاحة بإستروسنر بقوة السلاح: الجبهة الموحدة للتحرير الوطني وحركة ١٤ مايو، أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. عرفا عن طريق أحد أبناء عمومة مارتينا، مانويل مونخيلوس، بعض الأحداث لا تزال مجهولة حتى الآن بالنسبة للبلاد: الميليشيات. كما كانت تجهل الأساليب الوحشية التى استخدمت لقمعها. مانويل مونخيلوس، القيادى السابق لحركة ١٤ مايو، يعيش فى بلدة قريبة من سانتا ماريا. ذات يوم ثلاثاء، ساعة الغروب، امتطى رايموندو فرسه وسلك أقصر الطرق للوصول إلى سانتا ماريا. كانت محاولة حركة ١٤ مايو الأكثر جدية فى القضاء على الدكتاتورية وعن لمانويل سؤاله عن أسباب الفشل. وسمع أو خيل له أنه قد سمع أن الحكومة الأرجنتينية أو

جانب منها، قد أيد الحركة. كان لدى مانويل مونخيلوس خبرة واسعة مع الكفاح المسلح. بدأ مع ثورة ١٩٤٧، حينما كان فى الثالثة والعشرين تقريبا، وانتهى به المطاف مع حركة ١٤ مايو، بعد ذلك بثلاثة عشر عاما. نجا من الموت فى كلا الثورتين بمعجزة حقيقية. كان رايموندو يدرك أن ابن عمه يفقد السياق الزمنى حين يسرد أحداث الثورتين المسلحتين. من خلال الكلمات والإيماءات، بالفم والعينين، تتدفق مثل مياه جدول الحكايات المثيرة، فينصت إليها مستمعوه، العابرون بصفة عامة، متحملين بصبر لا ينفد مثل ظرف حديث مانويل مونخيلوس. ولكنه كان يعرف كيف ينمق قصته بمواقف مثيرة، مثيرة حين تسمع لأول مرة، لكنها تصبح مملة حين يكررها بلا توقف مع ملاحظات انتقاد أو استحسان لأحداث الماضى والحاضر. كان رايموندو فلوريس يعرف من هو الشخص الذى سيلتقى به ولكنه كان ينتظر التنفيذ. الآن بالتحديد كان شغوفا بمعرفة بعض الأحداث التى ربما سيجعله تشابهها، واحدا من المنفذين. يدرك أنه لا يوجد نموذج مطلق، إلا أن تجربة حركة ١٤ مايو، ستفيده أكثر من ثورة ١٩٤٧، فى تقييم فرص نجاح المنظمة السياسية العسكرية. فى النهاية، يقال، إن الجبهة الموحدة للتحرير الوطنى، وحركة ١٤ مايو والآن المنظمة السياسية العسكرية لديهم قواسم مشتركة: ١) الرغبة فى الإطاحة بالدكتاتورية؛ ٢) الشجاعة والإقدام؛ ٣) الحاجة لتسليح جيد؛ ٤) التحام الشعب؛ ٥) اتساق أيديولوجى واستراتيجى وتنظيمى بين القيادات.

خلال المقابلة، سيحاول رايموندو فلوريس جاهدا توضيح مكمن الفشل المأساوى لحركة ١٤ مايو وفقا للبيانات التى سيتلقاها.عثر رايموندو فلوريس عليه فى المكان الذى تصور أن يكون به فى ذلك التوقيت: ممسكا بشراب الماتى فى شرفة تطل على الشارع ينتظر العشاء. يمتلك مانويل مونخيلوس متجرا صغيرا "وكالة" بها سلع متنوعة: بقالة، حدايد وبويات، أدوات كهربائية، أدوات مكتبية. حينما لا يوافى الوكالة لعدة ساعات أو أيام فذلك لأنه يكون فى السجن بتهمة انتقاد الحكومة أو السلطات المحلية. يناهز الخمسين، أو ربما أكثر قليلا. طويل، نحيف، غزا الشيب رأسه بالكامل. تنتشر الندبات على ذراعيه وربما أجزاء أخرى من جسده. بعد التحية الحارة، لم يكتف مانويل مونخيلوس بدعوته، بل أمره بالبقاء للعشاء.

– جئت لأراك – كذب رايموندو – لأنى عرفت أنهم حبسوك.

– ذلك من يومين. أنا نزيل مستديم على مفوض الشرطة، ولكنها مشيئة الرب. عندما يكون رائق المزاج نحتسى الماتى أو نتناول الغداء. يحبسنى رغما عنه إلى حد ما. لكن أمين الحزب الحاكم يضغط عليه. لم أفعل شيئا سوى فضح حقيقة هذه الحكومة الإجرامية. سيعتقلونك أنت أيضا.

– أنا وكثير غيرى من الرفاق فى التعاونيات الزراعية.

– كثيرا ما تساءلت – يقول مانويل مونخيلوس – هل يعقل أن تكونوا مستأنسين إلى هذا الحد. التعاونيات الزراعية منظمة عظيمة، لديها آلاف المناضلين الأشداء، المشكلة تكمن فى القساوسة الذين يطرحون يسوع، من منطلق أن الله محبة، وغفران، وكل هذه الأمور التى تؤدى للخنوع. اعتبروا لكلامى وتحرروا من قيود الكنيسة، إذا كنتم تريدون الحرية.

– إذا كنت تقصد الدكتاتوريات – استراح رايموندو فلوريس فى مقعده؛ كان يدرك أنه لا داعى لطرح السؤال للدخول فى الموضوع الذى يشغله –، نادرا ما حققت الحروب الأهلية نجاحا فى بلادنا. على عكس الانقلابات العسكرية. على حد علمي، قلة من القيادات الشعبية أو العسكرية نجحوا فى الخروج من الخنادق ليصعدوا إلى القصر. ومن القصر أو من الثكنات العسكرية، أعدموا عددا لا حصر له من أنصارهم. فنتذكر آخر ثورة عظيمة، تلك التى وقعت عام ١٩٤٧، والتى شاركت فيها، كعادتك إلى جانب الفريق الخطأ – ضحك، ولكن ما كاد مانويل يشاركه الابتسام حيث كان يرتشف على عجل من قرعة المتة لينفجر فى الضحك.

– كانت تلك الثورة، رايموندو، على وشك التتويج بالنصر. وصلنا بحرا من كونثبثيون إلى مشارف العاصمة. أجبرنا قوات الدكتاتور على ملاحقتنا بلا طائل. لو توفر لدينا الدعم الأرجنتينى واستطعنا تجاوز خلافاتنا الشخصية، لكانت المحصلة غير ذلك.

– على أية حال...

– قال رايموندو كان المصاب جللا.

– بسبب الدكتاتور إيخينيو مورينيجو، وقيادات حزب كولورادو. انظر الحماقات التى ارتكبوها. كان سلاح الفرسان والشرطة إلى جانبهم – وهى كافية لتنفيذ أى عمل عسكرى بنجاح – وتخلوا عن السلطة نهائيا. كان أمرا عبثيا بصورة مأساوية، التعويل

على مورينيجو، بينما أطاحوا به من السلطة بعد أقل من عام ونيف. لو كانوا قد فعلوا ذلك في الثالث عشرمن يناير، لكانوا تجنبوا الثورة التى نجم عنها أخطاء فظيعة أخرى.

– ما هي، على سبيل المثال؟ – سأل رايموندو مبديا اهتماما بالقصة، أو مدعيا الاهتمام، نظرا لأنه بكل تأكيد كان قد سمعها من قبل. حكى مانويل مونخيلوس أن مورينيجو دعا كبار قيادات الجيش لاجتماع بمقر الرئاسة مبوروبيتشا روجا، ليبحث معهم أسباب فشل حكومة تحالف حزب فبراير الثورى مع حزب كولورادو مع ممثلين من القوات المسلحة. كان يؤمل فيهم أن يكونوا بمثابة بزوغ فجر الديمقراطية المؤسساتية، بالرغم من تهميشها للشيوعيين والليبراليين. إلا أن هذين الحزبين، وبدون الانصياع لقدرهما، تقبلا الحكومة الائتلافية لأنها سمحت للقوى المدنية بممارسة حقوق مغيبة مثل حرية التعبير والصحافة، والتجمع. فضلا عن أنها كانت قد تعهدت بتشكيل جمعية وطنية لكتابة الدستور. بعد ستة شهور فقط من انطلاق مسيرة الديمقراطية، انهارت الحكومة الائتلافية. أحدث سقوطها دويا تردد صداه في جميع أنحاء البلاد. كانت الكارثة متوقعة منذ البداية. لم يكن أنصار فبراير يطيقون حزب كولورادو؛ وأنصار كولورادو لم يكونوا يطيقونه؛ أما العسكريون فلم يطيقوا الاثنين. على هذا الحال، حل السبت، الحادى عشر من يناير ١٩٤٧، الموافق عيد ميلاد رئيس الجمهورية، الذى بدوره طرح على الطاولة الهدية التى قدموها له: التحالف الممزق. ماذا نفعل بهذه الهدية؟ وجه مورينيجو السؤال لقيادات القوات المسلحة الوطنية بنبرة حاول من خلالها بث الطمأنينة، لكنها لم تخف سوى القلق. بقى سؤال الرئيس كما لو كان معلقا بالطاولة أو متحللا في الهواء يلاحقه سعال متوتر. جال مورينيجو ببصره بين جنرالاته وكولونيالاته وعقدائه مشجعا لهم على الإدلاء بالرأي. وأخيرا، ارتفعت ذراع، كانت لقائد سلاح الفرسان، الكولونيل إنريكى خيمنيث. "سيدى الرئيس، إذا كان أنصار حزب فبراير قد انسحبوا من الحكومة طواعية، فلماذا يجب أن ينسحب حزب كولورادو؟ إذا كان حزب كولورادو يريد البقاء فيجب على القوات المسلحة أن تدعمه. هذا رأيي". ارتفعت ذراع أخرى. كانت للقائد العام للقوات المسلحة. "اتفق، سيدى الرئيس، مع الكولونيل خمينيث". كان مورينيجو يأمل الاستماع لعسكريين آخرين، لكن ستار الصمت الكثيف نبأه بأن الاقتراح لا يحظى بتأييد الآخرين. أصبحوا اثنين في مواجهة اثنى عشر. نبهته حاسته الفائقة في استشعار الخطر على مسافة عدة فراسخ أنه يجب عليه الانحياز لرأى الأغلبية. فعل ذلك بإيماءة تنم عن تصميم واقتناع وسيطرة. كانت هذه العادة قد أنقذته في

كثير من المواقف المعقدة. كان آخرها انقلاب الفرسان، فى يونيو ١٩٤٦، لانتقاله السريع لتأييد الفريق المنتصر، بعد أن كان يؤيد الفريق الخاسر. لم يكن أمامه سبيل آخر سوى إقرار نموذج سياسى جديد، دشنه تحت مسمى ربيع الديمقراطية، ترقد جثته الهامدة فى إحدى قاعات قصر ميوروبيتشا روجا، ترقبا لدفنه فى مقبرة الحريات المبتورة المترامية الأطراف.

دعا الرئيس لتناول بعض المقبلات وشرب الأنخاب لنجاح مسار الحكومة الجديد "وبعيد ميلاد سعيد، سيدى الرئيس"، أضاف القائد العام. أجاب مورينيجو: "معكم أيها الرفاق الأعزاء سنغير مصير الأمة. أضاع علينا السياسيون ستة أشهر فى مسرحية الديمقراطية الهزلية، اقتصرت على احتجاجات الشوارع وعدم احترام المؤسسات وسلطاتها. لقد سمعتمونى أقول إن الديمقراطية ليست فوضوية. الديمقراطية نظام، عمل، طاعة القوانين، تقدم. إنها أسلوب للتحضر".

خرج العسكريون راضين، انتظارا لحلول الثالث عشر لكى يعرفوا تشكيل الحكومة. سمعوا – قال مانويل مونخيلوس بصوت أجش وضعيف لشخص يتحدث بحماس منذ وقت طويل – إن الحكومة الجديدة كانت تضم حزب كولورادو فقط. بات الانقلاب مؤكدا. حين أعلن الرئيس تشكيل حكومة عسكرية، لم يكن يعلم أن قادة حزب كلورادو يتآمرون منذ فترة طويلة لتقويض التحالف والإطاحة بالحكومة. يشير خطاب فيكتور مورينيجو إلى نتاليثيو جونثاليث، أن اثنين من قيادات الجمهوريين اتفقا على ما يلي: "كلانا يدرك جيدا منذ البداية، أنه ليس من المتوقع إطالة أمد حكومة ائتلاف حزب كولوروادو مع حزب فبراير. وقد ارتكزت استراتيجيته منذ الوهلة الأولى على التصدى لممارسات مجموعة فبراير، الذين كانوا يسعون للانضمام للحكومة الائتلافية، فقط ليتسببوا، آجلا أم عاجلا، فى أزمة، ستقضى على الرئيس مورينيجو وحزب كولورادو (...) فى ذلك اليوم ١٢ يناير قمنا بحل المشكلة، منتهزين حلم مجموعة فبراير النائمين فى العسل. من خلال أن القائد المؤقت للفيلق الأول بسلاح الفرسان، الكولونيل إنريكى خيمينيث، قد ينطلق بقواته فى تلك الليلة من ثكناتهم، لتلتحم بقوات الشرطة تحت قيادة رئيس الشرطة، الكولونيل روخيليو بنيتيث، وإخماد الأزمة التى تسببت فيها مجموعة فبراير، بإقصائهم من حكومة الرئيس

مورينيجو التى تحظى بحزب كولورادو بشكل حصري. رصدنا هذه الأفعال فى صمت منذ شهرين بين إنزيكى وروخيليو، مستبعدين حدوث خيانة الفبرائريين لا محالة".

بمعنى، عزيزى رايموندو، أن هناك خيانة سبقت أخرى محتملة. بهذا النبأ غير المتوقع على الإطلاق، خرج العسكريون، من مقر الرئاسة، فى ذلك الاثنين الثالث عشر من يناير يملؤهم الإحباط - الكثير المتراكم منها - بسبب بيع الجنرال مورينيجو روحه مجددا للشيطان، مقابل معشوقه كرسى الرئاسة. كان الحاكم الذى ظل فى سدة الحكم لسبع سنوات، أطول فترة حتى ذلك الوقت فى القرن العشرين، مدركا أنه لا قبل له بالتصدى لسلاح الفرسان. فى النهاية، لعله فكر فى القيادة العليا لحزب كولورادو، والتى كثيرا ما أبدت استعدادها للتعاون مع الحكومة. لا يفوتون فرصة دون أن يكون غرضهم لفت الأنظار، حتى ولو من بعيد. صنعوا طريق وصولهم إلى المكتب الرئاسى بدأب نملة. وأخيرا سيكلل الجهد، بمساعدة القوة والدهاء، بالوصول للهدف. إلا أنه لا يزال هناك شيء متبقى: "التخلص من مورينيجو". ستأتى اللحظة فى حينها. تكيف الرئيس تماما مع الوضع الجديد الذى يسيطر فيه حزب كلورادو على زمام الأمور. فى العمق، كان مورينيجو يشعر أنه ثأر لنفسه أو رد اعتباره. يتذكر بحق كيف أن الليبراليين، الفبرائريين، الشيوعيين، مدعومين من قبل ربيع الديموقراطية، انتقصوا من هيبته فى الميادين، والشوارع ووسائل الإعلام الموالية لهم. لدرجة أنهم طالبوا بتعليقه فى عامود إنارة بالطريق العام، فى إشارة إلى ما حدث مع أحد رؤساء بوليفيا. حسنا، فليموتوا بغيظهم الآن. سوف أحكم من خلال حزب كولورادو فقط، الذين لا أكن لهم كذلك إخلاصًا مطلقًا، إلى أن أسيطر مجددا على تمرد سلاح الفرسان والشرطة. بعدها سوف أمنح البلاد الحكومة التى تستحقها. كل مرحلة ولها حكومتها التى تعبر عنها.

العسكريون المنتصرون فى يونيو ١٩٤٦، يشعرون الآن بأنهم هزموا وخدعوا. فى اللحظة التى يمنح فيها مورينيجو السلطة لحزب كولورادو، انتشرت فى البلاد شائعات قوية: هناك انقلاب على وشك الوقوع. فى أسونثيون كان اختفاء سيارات الأجرة من مواقف المحطات، إشارة قوية على وجود مؤامرة مستمرة مع تكالب المواطنين بكثافة على محال بيع الوقود. لابد أنها مؤامرة بالغة الطرافة لأنه لا يوجد متآمرون.

- لكن الثورة...

– نعم، نعم، الثورة تنفى وجود متآمرين؛ لكن الشاهد، هؤلاء ظهروا حينما حانت اللحظة، أو بعد قليل من وقوع الانقلاب فى كونثبثيون، والذى كان حدثا عرضيا، كرصاصة طائشة.

– انتظر لعلى أفهم...

– لا تحاول تفهم الأمر قبل أن تعرف الخلفيات. ولدت ثورة ١٩٤٧ من رحم الخطأ، وخطيئة مصادفة مأساوية. بعد مناورة مورينيجو لصالح حزب كولورادو، معتقدا أنه سيكون أكثر أمانا إلى جانبهم، تفجرت الشائعات حول المؤامرة العسكرية التى وصلت بدورها لمسامع العميد بارتولومى أراوخو، قائد فيلق كونثبثيون، الذى كان بالصدفة متواجدا فى العاصمة، بالتزامن مع أحداث الثالث عشر من يناير. خلال شهرى يناير وفبراير، تلقى العميد أراوخو، من مصادر مختلفة، نبأ الاستعدادات لشن انقلاب، دون أن يطلعه أحد على المكان أو الزمان الذى سينطلق منه، أو من سيتزعمه، ولكنه قد يتلقى الإشارة فى أية لحظة. إزاء الروايات التى تواترت كمطر الصيف، العميد أراوخو، صاحب السجل المشهود له بين رفاقه، وعد بعضا منهم بمبادرة لمحو إساءتهم للقوات المسلحة. فى الأسبوع الأول من مارس، أقنع العميد أراوخو أكثر من نصف الضباط، وهو عدد كاف للاستيلاء على أسونثيون الكبرى. فى هذه الأثناء، التقى العميد أراوخو بالكولونيل الفريدو راموس، وكان يعمل بوظيفة إدارية فى إحدى الجهات عقب تقاعده من القوات المسلحة. وافق الكولونيل راموس على وضع خبراته فى خدمة الثورة. بهذا الوعد عاد إلى المزرعة. بعد يومين، بحلول الليل، سمع العميد أراواخو فى المذياع أن قيادة الشرطة المركزية، فى أسونثيون، تعرض للهجوم بالرصاص ذاك الصباح من قبل مجموعة من ثلاثين شخصا.

بدون انتظار مزيد من الإشارات، استقل العميد أراوخو دراجته ووصل إلى وحدته، حيث أعلن العصيان. لم يكن للهجوم الذى تشهده العاصمة أى علاقة بالمؤامرة العسكرية الغامضة، والتى لم تكن لتتحقق لولا حاد التصادم العرضى مع الشرطة، حيث كانت الحكومة على دراية بالفعل بالترتيبات التى تجرى فى كونثبثيون. كانت مسألة أيام، بل ساعات لكى يتم إجهاض الانقلاب. عندما انتشر خبر الثورة ظهر السياسيون، وكان بعضهم فى ذات الوقت، من أبطال حرب التشاكو. أما أنا فكنت فى بدرو خوان كاباييرو لبعض الشئون العائلية. بصفتى ليبراليا، لم أتردد ولو ثانية واحدة فى الانضمام للقوى

الثورية، وخاصة بعد أن علمت أن الكولونيل الفريدو راموس، أحد أبطال معركة التشاكو كان فى كونثبثيون تحت إمرة القيادة الثورية التى ولته قيادة فيلق الفرسان الأول. سرعان ما هدته قريحته العسكرية لتحقيق المفاجأة الأولى: الانتصار فى تاكواتي، سان بدرو، الذى كان ليحسم مصير الثورة لصالحنا، لكن الأنانية أو الحماقة، أو أسباب لا أدركها عن القيادة، حال دون تكليل الكولونيل لمأثرته بالنصر منطلقا خلف العدو ليقضى عليه. فى صباح الحادى عشر من يونيو، المطر البارد، لم نقدم لقوات الدكتاتور الفرصة فقط لكى تعيد توحيد صفوفها، بل للتزود بالرجال والعتاد والسلاح أكثر بكثير منا. عندما انتبه القادة لمناورة السلطة لمحاصرتنا فى كونثبثيون، اتخذوا قرارا بفرارنا بحرا، تاركين العدو خلفنا لنستولى على أسونثيون، وهو ما يعنى انتصار القوى الثورية. خلال المواجهة مع قوات العدو فى منتصف الطريق، جرح الكولونيل راموس، ولم يكن هناك مفر من تركنا. هذه الخسارة الكبيرة، بالإضافة إلى الخلافات بين القيادات على مشارف أسونثيون، حسمت مصيرنا. فى بييتا وصل الأمر، إلى "فلينقذ كل واحد نفسه" - ولم يكونوا كثر من نجوا - إزاء الوحشية العنيفة التى اتسمت بها قوات مورينيجو مع المهزومين الذين أخذوا يلقون بأنفسهم فى الماء، حتى الذين لا يجيدون السباحة، سعيا للنجاة بعمرهم على الضفة الأخرى من النهر، أى الأرجنتين، حيث تمكنت من النجاة وأمضيت فترة طويلة بائسة. تنقلت بين رسيستنثيا، تشاكو ثم بوينوس أيرس، حيث حصلت على عمل أفضل. من هناك اتصلت أو اتصلوا بى مجموعة من الرفاق الذين شاركوا فى خطة الإطاحة بالدكتاتور. كانت حركة ١٤ مايو. قاطعتهم زوجة مانويل مونخيلوس لتعلن أن المائدة قد أعدت، وحذرتهم - "لكى نحظى بهضم جيد" - بتجنب الخلافات. تحدثوا على العشاء عن العيد الوطنى القادم، عن آمال الشعب وعن السلطات المحلية التى تم توجيه الدعوة إليها. بدون الاسترسال فى الموضوع، نهض رايموندو فلوريس وأعلن عودته إلى المنزل على وعد بالرجوع "فى غضون الأيام المقبلة".

أثناء الطريق، وعلى الإيقاع البطىء المنغم لسير الفرس، خمن رايموندو أن الخلافات بين القيادات كانت السبب فى هزيمة الثورة أكثر من المساعدات الأرجنتينية. كما فكر أنه ربما كان النصر ليؤدى لتعميق العداوات، وتحول سريعا إلى نسخة مكبرة، ربما، من

الحكومة الائتلافية المضطربة التى دمرت البلاد. فى المنزل تناقش رايموندو فلوريس مع مارتينا حول ما دار بينه وبين ابن عمه. اتفقا على أن ثورة ١٩٤٧ ليست النموذج الأمثل للمنظمة السياسية العسكرية. فى هذه الثورة – علق رايموندو – تشاركت البطولة العديد من الأيديولوجيات والتوجهات الحزبية. فتلاشى سريعا الطابع الوطنى الذى كانوا يريدون إضفاءه عليها، بين جماعات سياسية متناحرة. إذا تمكنا من بلوغ مرحلة الكفاح المسلح، فسيكون ذلك بعد تعزيز منظمة متناغمة. أعتقد أن النموذج، على حد علمي، يجب أن يكون على غرار حركة ١٤ مايو، بمعنى، الميليشيات المسلحة. حرب أهلية من نمط ١٩٤٧، بدأت من الثكنات وامتدت إلى المدنيين. أما نحن فعلينا التفكير بشكل معكوس: البدء بالمدنيين وصولا إلى الثكنات. يحب العسكريون الانحياز لجانب المنتصر. نعم، هجمات الجبهة الموحدة للتحرير الوطنى و١٤ مايو لاقت مصيرا مأساويا، وأقر بأن المنظمة السياسية العسكرية ستؤول إلى نفس المصير. لكى نتجنب ذلك علينا تحاشى ارتكاب نفس الأخطاء.

فى نفس الأسبوع، عاد رايموندو فلوريس إلى مانويل مونخيلوس، حيث وجده مستعدا للحديث عن تجربته مع حركة ١٤ مايو، التى نشأت بمبادرة من الشبيبة الليبرالية فى المنفى، كانوا قد التفوا حول تيار من الحزب الليبرالى يدعى آلون. عاش مانويل مونخيلوس لفترة فى رسيستنثيا التابعة لمقاطعة التشاكو الأرجنتينية، حيث عقد صداقة مع العميد بارتولومى أراوخو، مالك ورشة متواضعة لصناعة الطوب اللبن. انتقل بعد ذلك إلى بوينوس أيرس بصحبة منفيين آخرين. بدأ العمل كعامل بناء "لكسب العيش بصعوبة"؛ بعد عامين عينوه أمين مخازن لمستودع أخشاب. كان يلتقى كل ليلة تقريبا فى كافيتريا الحى الحادى عشر بالمنفيين الجدد، وكان بينهم رفاقه فى الثورة. ساعدت هذه اللقاءات على تخفيف نزعة الحنين للوطن من خلال حوارات عن الحياة السياسية والاجتماعية فى باراجواي. كانت الأنباء تؤكد قناعاتهم بأن الدكتاتور لن يسمح بعودتهم. انطلاقا من هذه الحوارات توصلوا إلى فكرة تحرير الوطن من القمع الذى لن يقام أى شيء مفيد تحت نيره.

عثرت مارتينا بين أوراق زوجها على الملاحظات الأولى الخاصة بمشروع "المدارس الفلاحية"، المواد الدراسية المقترحة ورسم تخطيطى للائحة خاصة بالمعلمين الذين كان سيطلق عليهم " بيتى فوهارا"، وتعنى الذين يساعدون، حسبما تقرر فى أحد الاجتماعات التى تذكر مارتينا أنها قد حضرتها. فى تلك المناسبة، وغيرها، دار نقاش حول إدراج

معالجة مشكلات الفلاحين، مثل الفقر، معوقات التنمية الاقتصادية، تنمية الذات، التضامن، العمل المجتمعي، ضمن البرامج الدراسية. اقترح ألا تكون "المدارس الفلاحية" مكانا لتفريخ المزيد من المستهلكين أو المستغلين، بل أخوة جدد من منطلق القيم الفلاحية والقوة التحررية للعقيدة المسيحية. أما فيما يتعلق بتحديد الأهداف، فقد عقدوا اجتماعات أخرى لاختيار "بيتى فوهارا" المستقبليين والأماكن التى تصلح لأن تقام بها مدارس فلاحية. وقد تم حل المسألتين بسهولة. فقد أعربت الكثير من السيدات والرجال عن استعدادهم للتعاون بعد تأهيلهم. وبخصوص الأماكن، فستكون فى منازل الأعضاء وأماكن أخرى ستشيد بأسلوب العمل التضامني. أما النفقات فسيتم تغطيتها من حاصل العمل المجتمعي. فى ذلك الاجتماع، طرحت فكرة – لا تتذكر مارتينا إذا كان من طرحها هو القس أم أحد المدعوين إلى دورات التأهيل – بأن المدارس الرسمية لا تعلم بل توجه. بل بالتربية. علاوة على أنها تعلم بصورة سيئة لأنها تسد المجال أمام التفكير النقدي، معرفة البيئة الاجتماعية، الجغرافية، الثقافية للدارسين. "نحتاج – قال المتحدث – إلى تربية تحررية تنبع من ذاتنا".

أجبر إقبال الفلاحين الواسع على تعليم أبنائهم ليصيروا مواطنين السلطات التربوية، بالتعاون مع أقسام الشرطة، على الاجتماع بأولياء الأمور للتحدث معهم حول أهمية التعليم الرسمي، السبيل الوحيد القادر على تأمين مستقبل الطفل. قيل لهم إنه بدون هذا التعليم، فلن يفلتوا مطلقا من براثن الفقر، لأنهم فى أحسن الأحوال، سيعيشون طيلة عمرهم مقيدين إلى المجرفة والمنجل. تلبية لدعوة شفهية من مفوض الشرطة، بدت أشبه بأمر، اجتمع أولياء أمور بلدة باريريتو ظهيرة يوم سبت مشمس فى مصلى الكنيسة، ليستمعوا، فى البداية لموجهة التعليم فى إقليم ميسونيس، التى امتدحت اهتمام الحكومة بحصول جميع أطفال القرية على التعليم. "يجب أن نتعاون مع هذه الجهود، لأنها ستعود بالنفع على حضراتكم وعلى أبنائكم". بعد ذلك قدم لهم أحد ابناء القرية، تخرج فى كلية الطب منذ ثلاث سنوات ويعمل فى المستشفى التخصصى وبعض العيادات الخاصة بالعاصمة. بعد التحية بلغة الجواراني، أعرب الطبيب عن امتنانه للتعليم الذى تلقاه فى المدرسة. "بدون ذلك – قال –، لكنت الآن أفلح الأرض، تحت وطأة الفقر والجهل مثل والدي. بفضل تعليمى حصلت اليوم على لقب طبيب. وأتمنى هذا النجاح أيضا لأبنائكم، أريد لهم أن يصبحوا مثلي".

معذرة – قال رايموندو فلوريس واقفا من جلسته – مع كامل احترامي، دكتور، ما نتمناه بالتحديد هو ألا يصبح أبناؤنا مثل حضرتك. لأنك منذ رحلت لم تعد ولا حتى لرؤية والديك. لقد نسيتهم ونسيت قريتك. لم تأت مطلقا للسؤال عن أحوال أبناء بلدتك، وما يحتاجون إليه، وكيف يمكنك مساعدتهم.

أنهت المشرفة الاجتماع، مؤكدة استعداد الحكومة لاحتضان الأطفال وصولا لمستقبل مزدهر عبر مسيرة التعليم.

لم يتفاجأ أحد، حينما طلب رايموندو فلوريس الكلمة فى نهاية أحد الاجتماعات، ليعلن أنه ومارتينا قررا الزواج "السبت المقبل" بالتزامن مع افتتاح مقر أول مدرسة فلاحية فى باريريتو، أنشأتها التعاونيات، والتى ستمتد بعد ذلك إلى مناطق أخرى. كانت عبارة عن جمالون بسقف من القش مقام على أرض أحد أعضاء التعاونيات، متعهدين بمواصلة العمل لحين تحويله إلى مكان ملائم. بدأت المدرسة نشاطها بـ٢٧ طالبا. كانت مارتينا فلوريس أول معلمة. بعد ذلك بعدة شهور، ليلة أحد، لم يتمكن الأهالى من إخماد النيران التى التهمت المقر على عجل. لم يساور أحد شك فى أن الحريق كان متعمدا، وأكد ذلك تعهد العمدة ساليناس بفتح تحقيق موسع، حينما تلقى البلاغ. استمرت الحصص فى مصلى الكنيسة. شجعهم تدمير المقر على مواصلة الخطة الأصلية التى تنص على منح الأطفال تعليماً تحرريا ينبع من بيئتهم، تنمية إبداعهم، حسهم النقدي، العمل المشترك، المسئولية. برغم كل المعوقات، سرعان ما انتشرت المدارس الفلاحية فى مقاطعة ميسونيس وغيرها من المقاطعات. وظلت الحكومة تتسامح معها حتى ذلك الوقت، باستثناء بعض القمع الانتقائى لتأكيد معارضتها، التى لم تفلح فى تثبيط عزيمة الفلاحين. على العكس، ردوا على الإجراءات الاستبدادية باحتجاجات سلمية فى الميادين والشوارع. جعلها غياب الخطب الحماسية أكثر جماهيرية.

كان الداعمون الرئيسيون لهذا المشروع التربوى يجتمعون كل شهرين فى قرية مختلفة للحديث عن تجاربهم، والتعلم من تجارب الآخرين. كانوا يشعرون أنهم تحت عين مخبرى الأمن، سواء عن بعد أو مندسين وسط الفلاحين خلال الاجتماعات. فى تلك المناسبات كانوا يقصرون المناقشات على موضوعات سطحية لا تعرض للمساءلة. إذا كان لديهم محاضر ضيف، كان ينتهز الفرصة ليلقنهم نماذج الشخصيات التاريخية فى

الحكومة مثل دكتور خوسيه جاسبار رودريجث دى فرنسا، الذى تميز بحمايته للطبقات العامة، حياته المتقشفة، نزاهته ودفاعه عن استقلال الوطن.

فى أول لقاء بينه وبين "لويسون"، كان رايموندو فلوريس يتمتع بالفعل بخبرة ممارسة تنظيمية عريضة. فكر أنها ستجدى نفعا مع تجربته الجديدة. كان يأمل أنه شيئا فشيئا تزداد الرغبة فى تغيير الخريطة السياسية للبلاد. كانت هناك عجلة، ولكن ليس بالدرجة التى تدفع للتصرف بنفاد صبر. فيما بعد، حين سمح له بالنفاذ إلى عمق المنظمة السياسية العسكرية، أدرك أن الكوادر كانت لا تزال بعيدة عن أن تصبح قوة لديها إمكانيات تناطح الحكومة. بدا له أن بعض الأعضاء – الذين أخذ يتعرف عليهم شيئا فشيئا – يتعاملون باستخفاف مع مسئولية إنقاذ البلاد من دكتاتورية تعطى انطباعا خاطئا بأنها تتداعي. كان يثق فى شخصية "لويسون" القوية، فى ذكائه، وبصفة خاصة فى قدرته على تدشين عهد جديد. العصر الحالي، فكر، انحصر فقط فى الإحباط. كان التزامه نحو المنظمة السياسية العسكرية، يشمل تجنيد المزيد من العناصر. منذ وقت طويل، كان يعرف بصورة كافية من، كانوا يعملون من أجل حلم الحياة بلا خوف، بلا قمع، بلا ظلم، لكنه لم يكن يعلم مدى استعدادهم للانخراط فى منظمة تتفق أهدافها فى كثير من جوانبها مع أهداف التعاونيات الزراعية، بالرغم من اختلاف الأساليب. وفقا لـ"لويسون"، العدد المبدئى يمكن أن يكون ثلاثة قادة فلاحين، يتولى كل واحد منهم بعد ذلك مهمة تجنيد ثلاثة رفاق، وهؤلاء بدورهم، يجندون آخرين غيرهم وفق نظام الخلايا، حتى إذا أوقعت الشرطة بمجموعة بقى الآخرون فى أمان.

قرر رايموندو فلوريس بدء مهمته بتجنيد ديوينيسيو روخاس، فبجانب كونه ابن أخيه، كان محل ثقة وتقدير كقيادى محلي. فى صباح يوم أحد، عقب القداس، اجتمعا فى الدهليز الصغير الساكن لمصلى الكنيسة. بعد ديباجة مختصرة – أغرت ديوينيسيو بسبب الجو الغامض غير المألوف من جانب عمه – تخلى رايموندو عمًا تصوره حذرا مبالغًا فيه مع أحد أقاربه، تاركا العنان لأفكاره تتدفق بحرية. أوضح له أن المنظمة لا تزال فى مراحلها الأولى، ولكن الأهداف التى تثير حماسهم، نضجت منذ زمن بعيد. إنها هى عينها، -قال- التى كثيرا ما دعمناها، أنت، أنا وباقى الرفاق، وضحينا من أجلها منذ فترة طويلة ولكن بلا نتائج كبيرة. ما رأيك؟ أشاح ديوينيسيو ببصره بعيدا دون أن يجيب إلا بعد فترة

صمت طويلة. فى البداية، قال، يبدو لى أمرا جيدا، لكن قبل أن أعطيك جوابي، يجب التفكير فى الانتقال من التعاونيات الزراعية إلى الميليشيات المسلحة، ليست مجرد مسألة التزام فقط.

– فى العمق، ديوينيسيو، داعب رايموندو ذقنه وأخذ ينتقى كلماته من بين غصن شائك –، ما نقوم به نحن أيضا سلوك ميليشيات. هذا ما يتصوره النظام ولهذا يلاحقنا. حسنا إذن، إذا كانوا يعتبروننا ميليشيات مسلحة، بدون أن نكون كذلك، لماذا إذن لا نفكر ولو مرة واحدة أن نصبح ميليشيات. أفعال المنظمة السياسية العسكرية لن تبدأ غدا. إنها ما زالت حتى اليوم فى طور المشروع، فكرة، حلم. التسرع لن يفيد فى شىء. سنفكر ونخطط ونتدبر لكل شىء. أمننا الشخصى يأتى فى المقام الأول، وإذا لم تمض الخطة قدما فسنتخلى عنها.

مد ديوينيسيو ذراعه وانتزع ورقة من شجرة البرتقال ووضعها فى فمه ومضغها بعنف. ازدرد ريقه ثم أجاب: دعنى أفكر.

– يبدو لى أمرا جيدا. لسنا فى عجلة من أمرنا، سيتم كل شىء عندما يحين موعده. حتى ذلك الحين، سأوافيك بالمستجدات.

– سأتشاور مع إيسابل، فهى يجب أن تعرف.

– بالتأكيد، أنا أيضا تشاورت مع مارتينا.

– هل وافقت؟

– فى البداية، لا؛ ولكن تفهمت بعد ذلك أنه لا يوجد سبيل آخر للخروج من هذا الجحيم. نعم، لقد جعلتنى أقسم على أن أحيطها علما بكل شىء.

غادرا الدهليز بعد الشد على الأيادي. توجه ديوينيسيو إلى منزله بينما اتجه رايموندو فلوريس إلى منزل رامون سيجوبيا، فوجده يعلق النير للثيران تأهبا للخروج للطريق.

– أرى أنك تستعد للخروج.

– سأذهب لحظة لجلب بعض البضائع.

– سارافقك – اقترح رايموندو.

– ياللحظ الطيب! اصعد.

تحدثا أثناء الطريق حول القلق المتزايد فى التعاونيات بسبب ممارسات الحكومة، التى أصبحت أكثر تكرارا وعنفا. علقا على قمع الأسبوع الفائت فى بلدة بيربيبوى وطرد يسوعى آخر من مدرسة كريستو رى فى العاصمة بسبب تورطه فى مشروع فلاحي. كان رايموندو فلوريس يعى أنه لا يجب الظهور بصحبة رامون سيجوبيا. كان يعرف بما فيه الكفاية أفكاره وطبعه الحاد مما سهل عليه إطلاعه على كل المعلومات التى لديه عن المنظمة السياسية العسكرية.

– تروقني. أجاب بتصميم.

– نريدك معنا، رامون.

– اعتمد علي.

– ستكون مهمتك الأولى تجنيد رفيقين آخرين، لن يعرف أحد اسميهما سواك.

– اتفقنا.

عند مدخل القرية، ودع رايموندو فلوريس صديقه بعد إخباره أنه سيبقى لبرهة للحديث مع صديقه عضو التعاونيات الزراعية، إنريكى دياث.

أثناء تفريغ العربة الكارو، حكى رامون سيجوبيا بحماس ما دار بينه وبين رايموندو فلوريس. استمعت كريستينا غير مصدقة تفاصيل – مع كثير من الإضافات – مشروع غير منطقى وغير قابل للتنفيذ فضلا عن خطورته، لكنها تركته يسترسل فى الحديث لكى لا تقاطع حماسه. سرعان ما ستحين فرصة إبداء الاعتراض عليه، التى تسنح حينما يجلسان لاحتساء المتة فى ظل الشجرة.

– إنه مشروع جيد – أكد رامون سيجوبيا، واضعا ساق على ساق –. ينصف أعضاؤه من التعاونيات الزراعية والنصف الآخر من الطلبة...

– لم توفق فى شيء – قاطعته كريستينا على أمل كبح جماح زوجها.

– كنتِ بالنسبة لى أفضل مما أتمناه فى أحلامي.

– لا يتعلق الأمر بى هذه المرة.

– أراك فى كل شىء أقوم به.

– لا تقحمنى هذه المرة. هذا جنون.

– فى البداية تكون كل المبادرات العظيمة ضربا من الجنون – كان يرغب فى إضافة شىء آخر ولكنه سكت لكى يرى سوسيدى عند الباب الخلفي.

تفضل – دعاه رامون سيجوبيا وهو متكئ على مقعده. وبعد أن أصبح أمامه، وبعد التحيات الحارة بالشد على الأيادي، أضاف: لقد ناديتك لتساعدنى فى تغيير بعض الألواح الخشبية.

– ولم لا، فى التو حالا؟

– حسنا، الآن، – تدخلت كريستينا – سوف نحتسى المتة، وبعد ذلك سنتناول الغداء، ثم نستريح لبرهة... وإذا تبقى وقت،

– قاطعها رامون سيجوبيا – فسنعمل.

– العمل تكليف من الله – قال سوسيدى.

– والراحة أيضا– أجاب رامون سيجوبيا. عمل ستة أيام ثم ارتاح إلى الأبد. أتصور أحيانا الرب جالسا فى السماء دون الانشغال بشىء سوى التطلع إلينا بملل، وبلا مبالاة، وبرغبة قوية فى التثاؤب. أتصور أن بقية المهام التى كانت عليه تركها علينا، البشر، لكى ينجزوها.

– أنكمل نحن عمل الرب، سيد رامون؟ – سأل سوسيدى متحيرا.

– لا سلام، ولا عدالة، كما تعوزنا أشياء أخرى كثيرة – صاح رامون سيجوبيا محتدا – ومن ثم فنحن مجبرون على الحصول عليها

– رامون! – زجرته كريستينا.

– نعم، هيا بنا نتناول الغداء.

لم يكن من الصعب على رايموندو فلوريس تجنيد إنريكى دياث، الذى أطلق سراحه من أسبوع، بعد شهر تقريبا فى الحبس، بتهمة انتقاد الحكومة أثناء اجتماع للفلاحين الشبان نظمته أسقفية إقليم ميسونيس. وعندما تصدى محامى لجنة الكنائس للدفاع عن القضية، أجاب العمدة: إن الموقوف انتهك المادة رقم ٧٩ من الدستور. "فرض حالة الطوارئ مسئولية السلطة التنفيذية".

يبلغ أنريكى دياث من العمر اثنين وثلاثين عاما، يمتلك اثنى عشر هكتارا من الأراضى الزراعية، كان أبوه قد تركها له قبل خمسة عشر عاما قبل السفر إلى الأرجنتين بعد أن ضجر من السلطات الأمنية والحزبية التى منعته من ممارسة حقوقه المدنية والعمالية. انضم فور وصوله إلى بوينوس أيرس، إلى مجموعة من أبناء وطنه كانوا ينظمون حركة ١٤ مايو، ورحل معهم إلى إقليم إنكارناثيون، حيث لقى مصرعه خلال تبادل عنيف لإطلاق النار مع فرقة من قوات النظام كانت تترقب وصولهم منذ أسبوع. هذه الواقعة العائلية، فضلا عن طابعها الذى يكشف عن التمرد، سرعان ما جعلت من إنريكى دياث مستهدفًا أمنيا. انضم للتعاونيات الزراعية المسيحية قبل إنهاء خدمته العسكرية. حينما عاد للحياة المدنية بعد أربع وعشرين شهرا، أسس لجنة قادها على أسس الانضباط، العمل الجماعى بين الرفاق، أدت الغيرة إلى أن ينعته بعض رفاقه بـ "ابن أحد رجال الميليشيات" خلف ظهره حينما كان يعترض فى الاجتماعات الموسعة على الاقتراحات التى تبدو له مهادنة للسياسات الحكومية. كان يحظى باحترام وحب أعضاء لجنته، وغيرهم من لجان أخرى كثيرة، لتفانيه من أجل التنظيم. كان ينخرط بحماس فى المبادرات التضامنية إلى أن يراها تتحقق. صاحب مبادرة ويتحلى بعزيمة لإنجازها، حتى فى أصعب المواقف. يتصف بالكرم والنزاهة، على الرغم من أنه حتى فى هذا الشأن هناك من يتهمونه بأنه لا يفعل شيئًا بدون أن يكون له غرض من ورائه. نقطة ضعفه – مصدر قوتى كما يقول هو – هى النساء. دخل فى عدة مغامرات عاطفية ونجح فى التخلص منها ليقع فى غيرها. تنسب له الكثير من الغراميات والعلاقات العابرة، دون أن يكترث لتفنيدها، مدركا أنه لا يستطيع محو سمعة مكتسبة، حتى ولو كانت بطرق مشينة. يرجع الكثيرون تصرفاته إلى حقيقة مؤكدة وهى أنه يروق للنساء. لم يكن وسيما على الإطلاق، لكنه كان لطيفا، طلق اللسان، شجاعًا وعنيدًا. "لديه ومضة"، كانت هذه إجابة إحدى الفتيات، عندما وبختها أمها، عندما وجدتها متأبطة ذراع إنريكى دياث بصورة لاهية، أثناء تأدية إحدى الخدمات العامة.

تعهد إنريكى دياث بالمشاركة فى الأمن، قال، بأنه يساعد قدر استطاعته لكى يتحقق حلم أن تنعم البلاد بالحرية. "يتعلق الأمر - أضاف - بقطع الخطوة الأولى. ستتبعها خطوات أخرى حاسمة. ربما نعرف إذا كانت هذه الدكتاتورية جبل، كما يصورورها؛ هناك سنجد أن أساسها بالكاد حفنة رمال، كما أتصور حقيقتها".

منذ فترة، كانت خواطر إنريكى دياث يستوقفها بين الفينة والفينة، الحاجة لمشروع جاد يقضى على معاناة الفلاحين. الآن، صديقه رايموندو فلوريس وضعه بالقرب من الفرصة، وإن كانت لا تزال أبعد من أن تغير مصير البلاد. يدرك الخطورة التى يعنيها المشروع، لكن سيان، إذا لم نفعل شيئا، فإننا سنكون عرضة للعقاب بسبب أية بادرة تتم من وراء ظهر السلطة. ساعده سجله مع التعاونيات الزراعية على تجنيد المزيد من العناصر لصالح مشروع محدد الأهداف، ولكن دون أن يقترب ولو قليلا من الكيان الذى سيدعمهم. هناك الكثير من المرشحين المحتملين. إنهم كل أولئك الذين عانوا بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من سياسات النظام الأمنية الترهيبية. يدرك إنريكى أنه ليس كافيا لكى يثق فى أحد لمجرد أنه تعرض لمشاكل مع الشرطة. الكثيرون أصبحوا لا مبالين حيال الملاحقة الأمنية التى يتعرض لها رفاقهم، أو أصبحوا مهزومين أمام جلاديهم. يستمرون فى التعاونيات الزراعية ولكن بدون الحماس الأول، فيما تخلى آخرون عن المشروع برمته.

عاد ديوينيسيو روخاس وزوجته معا، قرب منتصف النهار إلى منزل مارتينا أرملة فلوريس. كانوا قد تعهدوا بتناول الغداء سويا معها فى يوم يعد عيدا بالنسبة لكثيرين. بالنسبة لآخرين، مثل حالة مارتينا ذاتها، إنه مثار حزن يذكرهم بالكثير من المعاناة. "أتفهم حالتك المعنوية"، خاطبتها إيسابل: "ولكن عزاءك على الأقل أنك عشت بما يكفى لترين سقوط الدكتاتور". رسمت مارتينا ابتسامة تؤكد حزنها. حاولت النهوض لتعد المائدة، لكن إيسابل استوقفتها. أخرج ديوينيسيو روخاس دجاجة مشوية وطبق سلاطة ملفوفة بعناية، كانا قد أعداها صباح اليوم، وأضافا إليهما الخضار المطبوخ والأرز الذى طهته تيريسا، زوجة ابن مارتينا. كان خورخى قد تزوج منذ نحو عامين ورزق بابن، رايموندو، عمره عام، لا يغادر حضن الجدة مطلقا.

عندما أتم خورخى السابعة عشر تقدم لإدارة التجنيد بإقليم سان خوان باوتيستا لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية. فى اليوم نفسه تم توزيعه على بلدية سانتا روسا،

تحت إمرة ألبينو ساليناس. توسل للكولونيل لكى يرسله إلى أى مكان آخر، لكن القائد العسكرى لم يصغ إليه. بعد ساعتين، كان يهبط بصحبة خمسة شبان آخرين من الشاحنة العسكرية فى فناء مبنى البلدية، وسلم نفسه للضابط المناوب. كان ألبينو ساليناس فى أسونثيون. عندما تسلم الأغطية لينام على الأرض، بعد تناول عشاء مكون من طبيخ وثلاث رقاقات خبز، أخذت الخيالات المفزعة تغزو رأسه. عرف أنهم فى غضون بضعة أسابيع سيبدأون تدريبهم على استخدام السلاح، وستكون الفرصة سانحة لكى يثأر لأبيه. إلا أنه فكر أنه لن يخرج حيا من الهجوم، مما سيضاعف معاناة أمه وشقيقتيه. على أية حال، لم يكن مستعدا لتحمل وجود العمدة. قرب منتصف الليل، عندما خلد الجميع للنوم، بما فيهم الحراس، شرع فى الفرار صوب منزله، متأهبا لبلوغ منزل أحد أصدقاء والده فى أسونثيون. قبل طلوع الصبح بوقت طويل ألقى به فى شاحنة البلدية ونقله إلى معسكر سان خوان باوتيستا، ومن هناك أرسل إلى وحدة عسكرية نائية بإقليم التشاكو، حيث أمضى عامين. أما الآن فيحمل طفله بين ذراعيه، جالسا إلى المائدة، سعيدا بأنه شهد ذلك الصباح فرار ألبينو ساليناس.

بعد عودة أبناء عمومته إلى المنزل، بقيت مارتينا أرملة فلوريس وحيدة فى الممر. حينئذ فقط يبدو أنها لاحظت ببصيرة أكثر حدة المشهد الجديد الذى كان يخفى حقبة بشعة. من جانبها حاولت أن تكون تلك الليلة الطويلة أقصر. فى هذه المحاولة فقدت الزوج، والكثير من الأقارب والأصدقاء، وضاعفت جهودها حتى لا يضيع البيت أدراج الرياح السوداء. مضت قدما، كما يقال، لأن أبناءها لم ينقصهم مأكل أو ملبس وأكملوا دراستهم فى المدارس الحكومية، نظرا لأن "المدارس الفلاحية" تلاشت وكذلك الحال بالنسبة للكثير من القائمين عليها. ساعدتها على الصمود، المحاورات الممتدة مع الزوج، تحسبا لسقوط المشروع بين يدى قوات أمن الدكتاتور. كانوا يدركون مدى المخاطرة، لكنهم وجدوا الحافز فى اليقين أنهم يعملون من أجل مستقبل أفضل لهم وللآخرين. قبلوا حمل الصليب على الرغم من أنه ينتظرهم الصلب فى نهاية الطريق. عندما حل الألم، كانت مارتينا تعتقد أنها لن تتحمله. خلال المحادثات كانت التضحية موضوعا شيقا، ولكن عندما جثم الحزن على القلب شعرت بعزيمتها تخور. خففت معاناتها بالكثير من الدموع المنهمرة. فى أحلك المواقف كانت تسأل نفسها إذا ما كان بمقدورها تفادى المأساة لو عارضت زوجها، مثلما فعلت الكثير من الزوجات بعناد. لكنها كانت مقتنعة بنبل أهداف المنظمة، التى كان يتزعمها، كما اعتاد الزوج أن يذكرها مجموعة من القادة الثقاة.

جالسة فى نفس المكان، مساء يوم بارد غير معتاد فى شهر فبراير، التقت الزوج عند عودته من أسونثيون، حيث حضر اجتماع قيادات المنظمة السياسية العسكرية. عقد هذه المرة فى منزل أحد القادة بحى لامباري. وكما جرت العادة، فى المرات السابقة، أطلع رايموندو فلوريس زوجته على القضايا التى بحثت ونوقشت. قبل ذلك قدم لها نسخة من جريدة "تاتا بيريري" ، مع توصية بإخفائها بعد قراءتها، مع باقى المستندات. جرى اللقاء مع ستة أشخاص فى الفناء الأمامى للمنزل المتواضع. اعتبروا أن المبالغة فى الحيطة والحذر قد يكون لها رد فعل عكسي. كانت التوصية أن يتصرف كل عضو على طبيعته فى روتين حياته المعتاد. حذر لويسون "ألا يعن لأحد تقليد أى من أولئك المتآمرين فى الأفلام، الذين يفضحون أنفسهم مع كل لفتة". خلال هذا اللقاء تعرف رايموندو فلوريس على "مباراكايا" ، - الذى سيعرف اسمه الحقيقى فيما بعد - بلاس أرثامنديا، طالب من مدينة لا بلاتا الأرجنتينية وكان فى إجازة. وكان سبب حضوره اجتماع لامباري، يرجع إلى عدة أسباب من بينها، تلبية لقرار القيادة الذى يتعلق بإنقاذ المستندات عن طريق إرسالها إلى الأرجنتين. منذ أسبوعين دق جرس الخطر، عندما ألقى القبض على ثلاثة من عناصر المنظمة وإرسالهم إلى إدارة التحقيقات. تنفس القادة الصعداء عندما علموا أن حملة الشرطة كانت تستهدف مدرسة كريستو ري، التى كان العناصر الثلاثة المقبوض عليهم طلبة بها. كشفت هذه الواقعة مدى تراخى إجراءات الأمن التى تطبق فى مثل هذه الأحوال. وأخيرا بعد خمس ساعات عرف قادة المنظمة بأمر الاعتقال. "زمن كاف - قال "لويسون" بانفعال - لكى يقضى الأمن علينا". حينئذ تقرر أن يأخذ بلاس أرثامنديا إلى الأرجنتين المستندات التى تتضمن أسماء القيادات، سواء فى أسونثيون أو الداخل؛ مكاتبات مع "المنظمات الشقيقة" فى الخارج؛ دستور المنظمة؛ مخططاتها "من أجل كفاح ناجح ضد الدكتاتورية"؛ إجراءات الحصول على السلاح، وموضوعات أخرى متضمنة فى أوراق قليلة، تتسع لها وتفيض حافظة أوراق عادية. أما باقى المستندات مثل الإجراءات الانضباطية، العقابية، ملاحظات على السلوك الفردي، تقارير أمانة الصندوق، أصول الجريدة، فقد احتفظت بها القيادات كل فيما يخصه.

كان "لويسون" يوبخ بعنف من لا يلتزمون بإجراءات الأمن. طالب بتشديد الاحتياطات وبتطبيق جزاءات أكثر صرامة - "بما فى ذلك الإعدام رميا بالرصاص" -، قال بحسم - على من يعرضون المنظمة للضياع. تذكرت حالة طالبين شابين بمدرسة كريستو ري،

سرقوا بمبادرة عفوية طائشة آلة نسخ رسائل من مكتبة المدرسة لصالح المنظمة. قاموا بفتح النافذة عنوة، ساعة القيلولة وهو الوقت الذى يخلد فيه القساوسة والعمال القلائل للراحة. ظل الطالبان قابعين فى منزليهما لمدة أسبوع، لحين أن تخف القبضة الأمنية. حينئذ اتجها إلى منزل الشخص الذى جندهما قبل خمسة أشهر. مساء نفس اليوم، مثلا أمام محكمة السلوك – عقدت فى منزل أحد الأعضاء –المشكلة من سيدتين وثلاثة رجال، عرفوا أنفسهم بأسمائهم الحركية، وبعد توبيخ عنيف، وجهوا لهما تهديدا بالطرد، كان على وشك التنفيذ. أثناء دفاعهما، اعترف أحد المتهمين بأنه يتحمل مسئولية المبادرة، بحجة أن آلة نسخ الرسائل قد تفيد فى إصدار صحيفة "تمدنا بالأخبار وتدعم تواصلنا". كانا مدركين أنها لم تكن سرقة عادية "لكن كنا مضطرين للقيام بها". كانا انتبها إلى أن الأمن فى سعيه للحد من إنتاج "الأدب التخريبي"، يراقب كل آلة منذ دخولها إلى البلاد وصولا إلى الأشخاص أو المؤسسات التى تقتنيها. اختتمت المحاكمة بتوجيه تحذير اللهجة إليهما ألا يتصرفا بمبادرة شخصية مطلقا. حكم عليهما بالامتناع عن التدخين لمدة شهر وخمسة عشر يوما.

تذكرت واقعة أخرى أن "لويسون" لم يكن ضد عدم الانضباط بل ضد عدم الخبرة هو الأمر الذى وضع المنظمة على حافة الهاوية. منذ عدة أسابيع طُرحت للنقاش إمكانية الحصول على موارد مالية تتجاوز مساهمات الأعضاء التطوعية أو الإجبارية، التى ظلت متواضعة. تداولوا بشأن سرقة البنوك، الخطف، السطو على المنازل أو على المارة. حظى اقتراح البنوك بموافقة الأغلبية لأنه – بحسب المتقدمين به– يمكن بضربة ناجحة الحصول على قدر كبير من المال تساعدنا على الصمود. كانت المخاطرة ضئيلة. تراخى أنظمة الأمن يتماشى مع بلد لم يعتد السطو على البنوك. تم تكليف سيدتين ورجلين بدراسة البنوك ذات الحيثية. بعد أسبوعين، ناقشت اللجنة العليا بالتنظيم تقريرا مفصلا حول التوقيتات والأيام التى تشهد إقبالا كبيرا من العملاء الذين يودعون أو يسحبون النقود؛ البنك الكائن فى أفضل موقع للهروب السريع؛ أساليب التأمين، وتفاصيل أخرى على قدر من الأهمية. فحص "لويسون" البنوك التى وقع عليها الاختيار، بدون الموافقة على أى منها. بدت له – كما أوضح لباقى القيادات – أن عدم خبرة العناصر المكلفة قد تعرضهم للفشل.

إزاء هذا الوضع - نهض "لويسون" من مقعده ليضفي مزيدا من الأهمية على كلامه، قائلا : لن تقتنع الشرطة أنها مجرد جريمة سرقة عادية، من أسماء عائلاتهم. إذا لم يتحملوا التعذيب فسيعترفون بكل ما لديهم. فلنفكر في خيارات أخرى.

- تحت يدي حالة مضمونة - قال أحد الحاضرين -. آخر كل شهر يقوم القس المشرف على إذاعة راديو كاريتاس، بسحب نقود من أحد البنوك لسداد أجور العاملين. يسير بمفرده ويستقل حافلة النقل الجماعي.

حظى الاقتراح بالقبول وتم وضع الخطة وكلف بتنفيذها رجلان وامرأة. بحلول انتهاء الشهر أخضعت تحركات القس للدراسة بصورة تفصيلية: خروجه من الإذاعة، إجراءاته البنكية، والعودة. خروجه من المبنى وحتى دخوله توجد مسافة ٤٠ مترا يغطيها صف من الأشجار. حوض ورد مهجور، أصبح مكسوًا بالأعشاب الضارة تشوه بقعته السوداء جانبا من المدخل الرئيسي. في نهاية الشهر التالي كان المتآمرون يتربصون في سيارة بدون لوحات معدنية عودة مشرف الإذاعة الذي شاهدوه يخرج من البنك منذ ما يربو على نصف الساعة. بعد مرور نصف ساعة أخرى، دخلوا المبنى وقبعوا خلف شجرة، فيما تراجعت السيارة التي لا تحمل لوحات حتى البوابة. شاهد الشخص الجالس إلى عجلة القيادة القس يقترب ماضيا بثقة نحو مكتبه. عندما حانت اللحظة، غطى العضوان وجهيهما بقناعين كرنفاليين. كانت مهمة الرجل الاستيلاء على حقيبة النقود وإلقاؤها إلى رفيقته التي ستقف وراءه ببضعة خطوات. ثم في الحال تقطع الشارع عدوا لتصعد إلى السيارة التي ستكون دائرة تأهبا للفرار على وجه السرعة. عندما عبر القس إلى الجانب الآخر، شعر بجذبة قوية، فقذف الحقيبة بصورة غريزية لتستقر بين الأشواك المتبقية من حوض الزهور. وفي الوقت نفسه، صرخ مستغيثا فوصل صوته لمسامع العاملين بالإذاعة. لحق الرفيقان بالسيارة وسرعان ما تلاشيا في الشوارع المملوءة بالمطبات. وفقا لتقرير الشرطة كانت محاولة سرقة من قبل لصوص عديمي الخبرة.

- ومتى حدث ذلك؟ - سأل رايموندو فلوريس قلقا من تهور هذه الممارسات التي من الممكن أن تتحول لسلوك اعتيادي.

– منذ ثلاثة شهور تقريبا، – أجاب "لويسون". منذ ذلك الحين، لم ننفذ أى شىء بشكل ارتجالى، أو نكلف به أشخاصًا لم تتلق تدريبا جيدا على المهمة التى سيعهد بها إليهم.

– هذا أفضل – علق رايموندو فلوريس متطلعا بريبة إلى شخص يرتدى حلة سوداء، ورابطة عنق حمراء، وقصة شعر عسكرية، كان يراقب الاجتماع باهتمام ظاهر – هل نحن بخير فى الخارج هكذا؟

– أكثر أمانا من الداخل – أجاب صاحب المنزل.

عندما حل دور بلاس أرثامنديا، أفاد بشأن المهام فى لابلاتا، بوينوس أيرس وكورينتيس. أعرب عن تفاؤله باقتحام المشروع الأوساط الجامعية والدعم الذى يحظى به من قبل المنظمات الثورية.

– ربما كان حرى بنا أن ننمو أكثر – أضاف –، لكن مهام التجنيد تسير معنا على مهل بسبب كثرة عدد الوشاة المتعاونين مع الأمن الأوروجوائى والأرجنتيني. وهم منتشرون فى كل مكان، لكن توجد خطورة مع الاحتياطات التى نتبعها. مستنداتنا ستكون فى مكان آمن.

تحدثوا حول قضايا متعلقة بتوجهات المنظمة. قرب الظهيرة، اختتم الاجتماع بتوجيهات "لويسون" الدقيقة والتفصيلية بشأن الأعمال المستقبلية.

تتذكر مارتينا أن زوجها عاد من هذا الاجتماع قبل حلول الظلام. بادرها الحديث قائلا: إنه فى الطريق إلى باريريتو التقى بالعمدة ساليناس، والذى على سبيل التحية، نبهه لتكرار سفره إلى العاصمة.

– نعم، أجابه رايموندو فلوريس–، لدى قريب مريض.

دفع ساليناس الحصان بمهمازه وتابع سبيله نحو القرية يرافقه ضابطا حراسة.

بعد تناول العصيدة مع خبز المنديوكا الذى ابتاعه أثناء الطريق، وبعد السؤال عن أبنائه، قص رايموندو فلوريس على زوجته موضوعات الاجتماع. بعد أن انتهى من روايته أضاف بوجه قلق: فكرت طوال الطريق فى التصرفات المتهورة التى تكررت، ولا أحد

يدرى كم الكوارث الذى كان من الممكن أن تتسبب فيها. أنا الآن لست متأكدا إذا ما كان يتعين علينا الاستمرار فى التعاونيات الزراعية.

– هذا رأيى، رايموندو، أن ننسحب. فى مثل هذه الظروف لا يستحق الأمر عناء الاستمرار.

– بالطبع الزعيم أكد أنه لن يسمح بالقيام بأى عمل ينطوى على مجازفة. كان أكثر المنزعجين من العواقب الوخيمة المحتملة المترتبة على مهمة سيئة الإعداد. أمر أيضا بعدم مخالفة اللائحة الانضباطية. هذا العدد بالتحديد، من صحيفة "تاتا بيريري" يذكرنا باللائحة الأمنية – سأقرأ عليك – "تتيح للمنظمة إنقاذ أعضائها بأسرع ما يمكن فى حالة وقوع ظرف غير عادى لحين تقييم موقف كل فرد. لجعل ذلك ممكنا من الضرورى أن تكون هناك متابعة يومية بين أعضاء كل مجموعة. يقصد بحالة التأهب موقف تتعرض له مجموعة يتمثل فى عدم حضور أحد الرفاق لموعد محدد. يقصد بحالة الطوارئ اللحظة التى يتم التأكد فيها من أن الرفيق قد تعرض لمشكلة أو رصد قوات النظام لمكان أحد مقار المنظمة. يتسبب الغياب عن الاجتماعات فى إعلان التأهب الفورى بين المجموعات واحتمالية إعلان الطوارئ والتعبئة العامة فى المنظمة بالكامل. ومن ثم لا يوجد عذر مطلقا للتغيب عن اجتماع. يستوجب ذلك العقاب الرادع". لا يسعنا هنا تطبيق اللائحة على هذا النحو، لكننا ملزمون أيضا باتباع كل الاحتياطات الممكنة. يتعلق الأمر فى النهاية بالحفاظ على حياتنا وعلى المنظمة.

– لهذا بالتحديد... – كانت مارتينا تريد الاسترسال ولكنها كتمت.

– ماذا هناك؟ – تساءل رايموندو فلوريس وقد ساوره القلق.

– كلما تورطت أكثر فى هذا الأمر تملكنى الخوف.

– أتفهم – قال رايموندو منتقيا كلماته لتكون مقنعة – أنا أيضا يتملكنى الخوف، لكنى اعتقد أن هذه هى الفرصة التى لدينا نحن الفلاحين لكى ينصتوا إلينا سواء فزنا أم

لا. لكن إذا أحسنا تنظيم أنفسنا، كما يبدو أننا نفعل، ستأتى اللحظة التى نتخلص فيها من الدكتاتورية التى أثقلت كاهلنا.

إزاء صمت زوجته، طلب رايموندو من زوجته أن تخبئ فى "المكان الذى تعرفه" الصحيفة التى تتضمن أيضا الخطوط العريضة لسياسة التنظيم وأخبارا عن الوضع الراهن.

كان بلاس أرثامنديا على موعد مع صديقته لتناول الغداء فى أحد مطاعم وسط المدينة. بالرغم من أنه قد يصل متأخرا عن الموعد المتفق عليه، فضل الذهاب إلى المنزل ليترك المستندات المحفوظة لديه. مغلقا الحجرة على نفسه، تصفح بعضا منها على الرغم من أنه يعرف فحواها عن ظهر قلب. استوقفته فقرة من "لائحة الأمن" ليقرأ مايلي: "فى حالة انكشاف أمرك وبحوزتك مستندات تكشف بوضوح وضوح التنظيم، فليقلل من شأنها ومن حجم مشاركتنا فيها. ومع ذلك فهذه المعلومة على وجه الخصوص، وبصفة حصرية لا يجب الإدلاء بها، على الفور، بأى حال من الأحوال، بل فى غضون يومين على أقل تقدير، وبهذه الطريقة، يتاح للتنظيم اتخاذ الإجراءات التى يقتضيها الوضع. تحت التعذيب من الأهمية بمكان ما يلي: ١) القدرة على الاضطلاع بالسلوك البروليتاري؛ ٢) التحلى بروح التضحية من أجل التنظيم؛ ٣) الصمود والتفاؤل لتحمل اللحظات العصيبة؛ ٤) التمرينات الرياضية التى تمنحنا التأهيل البدنى للتغلب على هذه المواقف".

أخذ يقرأ أيضا سجل ممتلكات التنظيم: عدد اثنين آلة نسخ الرسائل، عدد ست آلات كاتبة، ٢٧ طبنجة ومسدس، رشاش PM-1، بندقيتان بماسورة طويلة عيار ١٢، مدفع رشاش ماوزر، وبعض المدافع والبنادق المتنوعة. للتنقل، كان لديهم سيارتان متهالكتان، وبعض الدراجات النارية وضعها أصحابها فى خدمة المشروع الثوري. قرأ أيضا بنود المصروفات مثل إيجارات بعض المنازل التى تستخدمها القيادات أو مخصصة كبيوت آمنة فى حالات الطوارئ.

سمع والدته تناديه لتناول الغداء. وافاها ليخبرها أنه لن يقدر بسبب موعده مع مرثيدس. عاد إلى حجرته، أعاد ترتيب المستندات خبأها في دولاب الملابس وأغلقه بالمفتاح ثم ودع أمه على أن يعود فى المساء لكى يستعد للسفر إلى لابلاتا.

فى اليوم التالى لعودته من العاصمة، جلس رايموندو فلوريس يحتسى الماتى مع زوجته فى المطبخ، كما اعتاد أن يفعل كل صباح. تمحور الحديث حول إيفا الونسو، التى تتعاون مع التعاونيات الزراعية المسيحية منذ ما يربو على العام. جاءت من أسونثيون لدراسة الحركات الاجتماعية، ولكنها تحت سحر المكان والناس، قررت البقاء، فى بلدة صغيرة تابعة لمقاطعة سان إجناثيو، تعلم الأطفال فى "مدرستها" وتؤهل معلمى المقاطعة. أثناء اجتماعات العمل مع القيادات كانت تناقش معهم المشكلات اليومية وسبل حلها أو كيفية تحملها. كانت فى الخامسة والعشرين حين عرفت بالمشروع وسرعان ما أصبحت عنصرا فعالا فى التعاونيات الزراعية. تتولى قيادة مجموعة من النساء، اعتادت القول لهن إنها تتعلم منهن أكثر بكثير مما تعلمه لهن.

– علاقتها الطيبة مع الناس ومهارتها – قال رايموندو فلوريس متذكرا إيفا ألونسو – ستكون ذات فائدة عظيمة بالنسبة للتنظيم. إنها الشخص الذى نحتاجه فى مقاطعة ميسونيس لتنشيط المشروع. لسنا فى وضع سيئ، كما تعلمين، لكن الأمر يحتاج دفعة.

– لست متأكدة من قبولها مسئولية أكبر من التى تتحملها. من وجهة نظرى...

– لن نخسر شيئا لو جربنا. أثق فى حسن تصرفها بناء على عدة مواقف لها معي. سأذهب لأراها خلال أيام قليلة.

وحل ذلك اليوم. صباح سبت بمقر إرسالية كانياديتا دى سان إجناثيو اليسوعية، حيث شاركت قيادات التعاونيات الزراعية فى ميسونيس فى دورة تثقيفية للقادة سيحاضر فيها دانييل باريوس، مهندس زراعى من إرسالية أميستدا. حرص رايموندو فلوريس على الجلوس بجانب إيفا ألونسو، حيث تحدث معها بمرح حتى بداية الدورة. عندما انتهت، لاحقا، بعد ساعة ونصف الساعة، رافق رايموندو، إيفا إلى البوابة، حيث طلب الحديث معها "فى بيتك إن أمكن؛ لأن ما أود إخبارك به شديد الحساسية".

"منزلك" كان يقصد بها منزل قيادى فى التعاونيات الزراعية وزوجته، حيث تعيش إيفا ألونسو منذ أن استقر بها الحال فى كانياديتا. جلسا إلى ظل شجرة وارفة، بادر رايموندو فلوريس بالتعبير عن امتنانه لما تقوم به من أعمال "لكى نحظى نحن الفلاحين بحياة أفضل".

– نقدر جهودك – أضاف رايموندو فلوريس – لكن كل ما نقوم به غير كاف لتحسين مصيرنا. الظلم كثير، السلطات تتعقبنا بلا سبب وبعنف غريب. قد تكون التعاونيات الزراعية الحل اليوم لمشكلاتنا، لكننا مضطرون للعمل معظم الوقت بصورة سرية أو فى الخفاء. أدرك أنه لا يجب ذكر هذه الأمور لأنك على علم تام بها، لكن من المهم تذكرها، لأخبرك، وأنا واثق من حسن تقديرك للأمور، إننى مع جماعة كثيرة العدد، على ما أظن، تضم طلبة جامعيين ومزارعين بصدد فكرة... حسنا، هناك منظمة، تمتلك قاعدة صلبة، تعمل يوما بعد يوم على تجنيد المزيد من العناصر.

– وما جدوى كل ذلك، رايموندو؟ – سألت إيفا ألونسو بعينين باسمتين مما أربك رايموندو فلوريس، لأنه لم يستوعب إذا كانت تأخذه على محمل الجد، أم أن كل ما يقوله مجرد هراء.

– أقوم باللف والدوران – أجاب رايموندو فلوريس غاضبا قليلا – لكى أخبرك بما يقال فى كلمتين: نحن نتآمر للإطاحة بالدكتاتور.

– وما اسم تلك المنظمة، أحب أن أعرف؟ – سألت إيفا ألونسو بنفس الأسلوب المراوغ، الذى جعل رايموندو فلوريس يتململ فى جلسته.

–لم يعد بوسعى التراجع – أجاب رايموندو مقطب الجبين – اسمها المنظمة السياسية العسكرية.

انفجرت إيفا فى الضحك. نهضت وتعلقت بعنق رايموندو بقوة وبحنان.

– أنا عضو فى التنظيم، أيها الرفيق!

ظلا على عناقهما عندما جاءت سيارة المهندس الزراعى دانييل باريوس الذى اقترح على رايموند توصيله إلى منزله.

– لن يتحرك أحد من هنا قبل الغداء – قالت إيفا ألونسو بنبرة لا تدع مجالا للشك فى أنها ستنفذ كلامها – سأساعد فى المطبخ بينما تواصلان حديثكما.

عندما أصبحا بمفردهما، قاما بتقييم الاجتماع – الخامس خلال الشهرين الأخيرين – وخلصا إلى أنها كانت مفيدة للغاية بالنسبة لقيادات التعاونيات الزراعية.

– لدينا مشروع آخر فى إرسالية أميستاد – قال دانييل باريوس – مماثل أو قد يكون أفضل، سيساعد على تأهيل الناس ثقافيا، وأخلاقيا، وبالتأكيد إنسانيا. إنه فريق مسرحي...

– إلى المائدة ! قاطعتهما إيفا ألونسو بنبرة وإيماءة آمرة مفتعلة.

أثناء الغداء استرسل دانييل باريوس فى حديثه عن الفريق المسرحي، وتجربته فى كثير من الأماكن التى قدموا عروضهم بها، المناقشات التى تنشأ بين الجمهور بعد العروض، الأفكار التى تثرى النص بعد كل عرض.

– هذا الفريق – أضاف دانييل بحماس واضح، يتميز بأن القصة التى يقدمها على خشبة المسرح مستوحاة من المواقف الطريفة التى يعرفها الناس أو عاشوها فى مجتمعاتهم. يعد الفريق العمل المسرحى هذه المواقف ويعيدها إليهم، إلى أصحابها، الذين يرون أنفسهم على المسرح كما لو كانوا ينظرون فى المرآة. إنها ممارسة ممتعة للتفكير بصورة جماعية. حسنا – شدد على كلماته عندما رأى تحمسهم للفكرة – يمكننى تدبر نزول الفريق المسرحى هنا، وفى أى مكان آخر تختارونه. تكفى فترة من عشرة لاثنى عشر يوما لكى تنجز الفرقة نص العمل، عقب المقابلات التى سيجرونها بصورة فردية أو جماعية. ادرسوا الفكرة، وإذا لاقت قبولا فنحن مستعدين.

تحدثوا أكثر عن المشروع الفني، إلى أن أعلن رايموندو فلوريس أنه يتعين عليه الرحيل.

فى الطريق، بعد فترة صمت طويلة، وبدون العثور على سبب بعينه لبدء حوار، سأل رايموندو فلوريس رفيقه:

– كم عمرك؟

– ٣٢ عاما – أجاب دانييل باريوس، مندهشا إلى حد ما من فضوله المفاجئ –. هل أبدو لك أكبر عمرا؟

– لا، يبدو لى أن ٣٢ عاما هى السن المناسب للزواج.

– ماذا! ماذا! راقته المزحة – أتزوج؟

–لقد رأيت كيف كنت ترمق إيفا ألونسو بنظراتك. وسأقول لك أكثر من ذلك – وخزه بمرفقه فى صدره –، بعد أن تتركنى سوف تعود إلى منزلها لاستعادة حقيبتك التى "نسيتها" عن عمد فوق المقعد.

ملأت ابتسامة دانييل باريوس التى تشى بمراوغته السيارة، ثم استدار عائدا أدراجه إلى كانيابيتا.

– حظا طيبا – صاح رايموندو فلوريس وهو يدلف إلى منزله.

بعد أسبوع من هذه الأحداث، جاء إلى سان إجناثيو "لويسون" واثنان آخران من القادة. أصدرت القيادة العامة أمر السفر بناء على طلب من رايموندو فلوريس الذى كان يرغب فى وجود تواصل أكثر قربا بين قيادة العاصمة قيادات الإرساليات اليسوعية. نزلوا فى عدة منازل مختلفة، كانوا ينطلقون منها إلى اجتماعاتهم الليلية. خلال هذه الاجتماعات طرحت الأسئلة التى كانت تنم عن قلق مشترك، حول: مدى تماسك التنظيم، التأمين، الإنجازات، التاريخ المحتمل لبدء العمليات الأولى، أعداد المقاتلين والتسليح...

– بخصوص هذه النقطة – قاطعهم "لويسون" – يجب إخباركم بأن معنا الكثير من المقاتلين. نحن الآن بصدد تنظيم المجموعات القتالية. فى غضون بضعة أسابيع أخرى، ستوجه لحضراتكم الدعوة لقيادة هذه المجموعات. يمكننى القول إننا ازددنا كثيرا. فى أسونثيون أصبح أمرا واقعا تشكيل النواة الأساسية التى تضم طلاب الثانوى والجامعة. ستتبعها كيانات مماثلة أخرى فى العاصمة وفى الداخل. أما بخصوص السلاح، فيتعين على إخباركم بأنه ما زال ينقصنا. لم نحصل سوى على القليل منه. نعتقد أنه قريبا، سيمنحنا العدو ما نحتاجه منه وبكميات كبيرة. نعمل على مقترح مهاجمة إحدى وحدات الجيش. النقطة الثانية: عدد المقاتلين. لدينا فى الوقت الراهن ٤٠٠ عنصر، وهذا عدد يبدو

غير كاف لنحقق النصر. لكن لدينا ميزة أن غالبية الشعب منهك من الدكتاتورية.. ندرك الحاجة إلى شرارة لتحفيز الناس. هكذا كان الأمر دائما.. جميع ثوراتنا بدأت بالقليل من الجنود، وسرعان ما انضم إليهم حتى الذين كانوا يعتقدون أنهم من أنصار النظام. هذه المرة الفرصة أفضل بكثير، لأنه لم يحدث أن عانت البلاد من دكتاتورية متوحشة أثقلت كاهلها كل هذه المدة. فشلت المحاولات التى بذلت للإطاحة بها، لأنها لم تحظ بتخطيط جيد، بداية من مسألة حيوية للغاية: عنصر الزمن. ثاروا قبل أو بعد الموعد المناسب.

بعد ذلك، تحدث رايموندو فلوريس، أعاد كلمات "لويسون" بلغة الجواراني، مضيفًا إليها بعض النكات، خففت من حدة التوتر الذى علا وجوها ارتسمت عليها تعبيرات قلق عميق. امتد الاجتماع لنصف ساعة أخرى، تركزت حول طرح الأسئلة والرد عليها.

حينما نهضوا للوداع، رأى رايموندو فلوريس من النافذة رجلا واقفا عند البوابة، راوده شعور بأنه يراقب منذ برهة الحركة فى المنزل. تبادلوا وجهات النظر حول الخطوات التى سيقدمون عليها، ووجدوا أن أفضل شىء هو أن يخرج صاحب المنزل ليستطلع الأمر. وقد كان وعلى الفور تحقق من أنه كان سوسيدي.

– ماذا تفعل هنا؟ سأل بنبرة ارتياح.

– أرسلتنى مارتينا خلف دون رايموندو. تقول إن الأمر عاجل.

– ادخل.

أوصتهم مارتينا ألا يخرجوا من المنزل تلك الليلة، وأن يبيتوا عندهم كيفما اتفق. أحاطتهم علمًا بأنه فى ذلك المساء تم طرد ثلاثة يسوعيين من البلاد، كما ألقى القبض على بعض قيادات التعاونيات الزراعية المسيحية من إقليم كورديبرا، واحتمال من بعض المناطق الأخرى. جعلتهم هذه الأنباء المقتضبة يفكرون أن الأمر يتعلق ببعض اليسوعيين الذين يساعدون الفلاحين. أما فيما يتعلق بقيادات التعاونيات الزراعية، فربما كان بعضا منهم، أو كلهم ينتمون للتنظيم.

– هذا أمر خطير– علق رايموندو فلوريس – بالرغم من أنهم لا يعرفون معلومات مهمة.

– لكن القليل الذى يعرفونه – تدخل "لويسون" يمكن أن يفيد الأمن فى ضربنا. أكرر لكم إن منظومتنا الأمنية تكاد تكون معدومة. هناك قدر كبير من التراخي، وعدم انضباط كبير. هذا الموقف الذى نحن بصدده، يعتبر دليلاً آخر على ذلك. ربما تمت الاعتقالات هذا الصباح ولم ندر بها سوى الآن. من يدرى إذا كانت منازلنا أو مقرنا لم تتعرض للمداهمة الآن. رايموندو، يجب التواصل مع أسونثيون.

– مستحيل، فى ساعة كهذه. إنها العاشرة والنصف ومكتب شركة أنتلكو للاتصالات يغلق فى الثامنة.

– تليفون خاص.

– إن هذا أكثر خطورة من استخدام تليفون مقر البلدية نفسه.

– إذن – قرر "لويسون" – سنخرج للطريق وسنستقل أول حافلة ركاب.

– إنها مسيرة تمتد لعدة كيلومترات على الأقدام وبدون حراسة لكى تبلغ ميتغاك. فى ظروف كهذه رجال مفوضية الحكومة، ورجال ألبينو ساليناس وأعوان الحزب لا يغمض لهم جفن

– ماذا إذن؟ – سأل "لويسون" بضجر.

– انتظر حتى يطلع النهار.

– هل يستطيع رسول زوجتك الرجوع...؟

– لا يخطر ذلك على بالك حتى. ستجده هناك منزويا على نفسه، ميتا فى جلده من شدة الخوف.

– الخوف؟

– من الشرطة، إنها قصة طويلة.

فى اليوم الثالث، – بحسب ما هو متفق عليه – حضر رايموندو فلوريس اجتماع القادة بمقر القيادة العامة بالعاصمة. أعرب "لويسون" عن دهشته من كم التصميم الذى

أبدته قيادات ميسونيس، "إنهم، قال، نموذج للرفاق من الأقاليم الأخرى التى عملنا بها". وأضاف أن: تضاعف حجمنا يمثل أيضا مشكلة بالنسبة لنا. نحتاج لوجود بعض الرفاق من مناطق كورينتس، بوينوس أيرس ولا بلاتا، لأنه ليس لدينا ما يكفى من القيادات لتولى مسئولية العناصر المستجدة. كما يجب حمايتهم من العصابة الإجرامية التى تطلق على نفسها (Triple A) التى تقوم بتصفية أعداء النظام. يمكن للرفاق أن يأتوا واحدا واحدا. اقترح أن يكون الأول بلاس أرثامنديا.

سيجرى التصويت على هذا الاقتراح لإقراره. فكرنا فى أفضل موعد، ووجدنا أنها الأيام التى تسبق أسبوع الآلام، نظرا لكم الأشخاص الذين يرجعون إلى البلاد ويمثلون عبئا على نقاط التفتيش.

على غرار ما حدث فى مواقف مشابهة، قرأوا جريدة "الوطن"، فلم يجدوا فيها نفس أفكار النظام المكررة فحسب، بل تحذيرات من حملة أمنية على السياسيين من المعارضة والتنظيمات الاجتماعية المستقلة. كما يتضمن الإعلان انتقادات عنيفة لعمليات مزعومة ضد دولة القانون. عنونت الصحيفة افتتاحية العدد "من أجل القانون والعدالة" ويتناول المقال مشكلة الأراضى الزراعية. وفيما يلى نص إحدى فقراتها:

فى محاولة لـ"دعم وتشجيع الفلاحين"، من المهم أن تحظى مشكلة الأراضى الزراعية باهتمام خاص، وهو أمر لا غبار عليه، ما دام أن سبل حل المشكلة لن تتضمن طرح المقترحات التالية: ١) خلق مشكلة، نشوب نزاع مع شاغلين غير قانونيين، فرض أمر واقع والانتقال من السرية إلى العلانية؛ ٢) العمل فى هذه المرحلة على حشد جميع وسائل الاتصال الاجتماعى من أجل "توعية الرأى العام"، بشأن ما سيجرى تحديدا مع رواية "المتضررين" وإسكات الوجه الآخر للمشكلة، ماهية الموقف القانونى للأراضى وجدوى أو عدم جدوى الانتفاع بها اقتصاديا واجتماعيا؛ ٣) تفاقم المشكلة بسبب الحملة الدعائية والتلاعب بالرأى العام، استقطاب المصالح السياسية لأحزاب المعارضة والمنظمات العالمية لحقوق الإنسان، وتشجيع مناخ تحريضى يصور البلاد كما لو كانت "عشية اندلاع ثورة"، كما "تدين" فى الوقت نفسه، الانتهاكات الخطيرة لتلك الحقوق من قبل النظام؛ ٤) ضم،

بقدر ما يسمح به التحريض، "حركات اجتماعية" أخرى موالية، يمكن أن تكون طلابية، مهنية أو من أى نمط آخر، من أجل تسريع وتيرة اندلاع الفتنة، وهذا فى صلب المخطط؛ ٥) إطلاق "النضال الثوري"، والذى سيكون على حسب الاحتمالات إما من خلال مواجهة مكشوفة أو سريا، ولكن سيعتمد دوما على العنف كوسيلة أساسية، التضليل لزعزعة الرأى العام، مع إطلاق الشائعات بشكل ممنهج لتشويه صورة البلاد والنظام فى الخارج.

– حسنا – نهض "لويسون" من مقعده معلقا – بالنسبة للنظام لم يعد أحد خارج دائرة الاتهام. كان التعليق غامضا على أية حال وغير محدد على الإطلاق. طالنا شيء من التلميح إلى ذلك "النضال الثوري"، إلا أن هذا مجرد تخمين بشأن القضايا المقترحة يخلو من أى دقة. إنه منطق الدكتاتورية المعروف. من أجل مصلحته، يضخم الأشياء أو يهون من شأنها. هذه هى طريقته.

– ولكنها تجدى معه – تدخل رايموندو فلوريس.

– نعم، – أجاب "لويسون" – لأنه يحتكر القوة، ومن ثم لا يحتاج اللجوء لإجراء أى حوار. وإن فعل من أجل المحافظة على المظهر الديمقراطي، الذى يواجه تهديدا، يزعم أنه يتصدى له.

تأكدوا من أكثر من مصدر من أنباء طرد اليسوعيين، اعتقال العشرات من قيادات التعاونيات الزراعية المسيحية. فى الوقت نفسه، وردت إليهم رواية عن مصرع سكرتير عام الحزب الشيوعي، ميجل أنخل سولير، وقائد شبيبة الحزب، درليس بيياجرا، تحت التعذيب. بعد ذلك بسنوات طوال، سقوط هؤلاء الضحايا وغيرهم تحت التعذيب سيميط اللثام عنها بعد العثور على "أرشيف الرعب" الخاص بدكتاتورية الفريدو إستروسنر.

كان أول إجراء أقرته القيادة العامة إعلان حالة التأهب القصوى، وهو القرار الذى سيلغى بعد ذلك بأسبوع بسبب التيقن من أن قيادات المزارعين المعتقلين لم يشوا بالمنظمة. على أية حال، أخذت هذه التجربة بعين الاعتبار، والتى لو تكررت لقضت على المنظمة وأدت بها لأسوأ مآل. مبدئيا، فرض على أعضاء التنظيم لقاء يومى فى الطريق العام مع الرفيق ذى المكانة التراتبية الأعلى أو صاحب الأقدمية. إذا تغيب أحد يطلق إنذار الطوارئ على الفور. أثناء مراجعة إجراءات التأميم، وصلتهم أنباء الانقلاب العسكرى الذى قاده رفائيل فيديلا فى الأرجنتين.

– إذا كان نظام حكم إيسابل بيرون قمعيا مع المنظمات المناضلة من أجل العدالة الاجتماعية – علق "لويسون" – فإن نظام فيديلا سيكون أسوأ. لحسن الحظ، اقترب حلول أسبوع الآلام وسرعان ما سيصل الرفاق إلى هنا.

بعد أربعة أيام من طرد القساوسة واعتقال قيادات المزارعين، أصدرت وزارة الداخلية "بيانا للرأى العام"، نسخة مكررة من بيانات سابقة بشأن حوادث مماثلة. ألقى باللوم على اليسوعيين لتدخلهم، وهم أجانب، فى الشئون الداخلية للبلاد، وعلى الفلاحين لاشتراكهم فى مؤامرة مناهضة للديمقراطية تدبرها أحزاب سياسية غير شرعية. حملت الفقرة الأخيرة التحذير المعتاد: "إن الحكومة لن تسمح بالاعتداء على السلم، والمصالح العليا للجمهورية".

برغم قلقهم من الأحداث الأخيرة، تنفسوا بارتياح لأن البيان لم يشر إلى التنظيم. القيادات التى كانت مختبئة عادت إلى منازلها، كما عادت الأمور إلى طبيعتها، ولكن مع مزيد من الحيطة والحذر. وقع الاختيار على ثلاثة من الأعضاء لجمع الأخبار الرسمية بشكل يومى وكذلك الشائعات حول القضية، التداول بشأنها، إجراء تحليلات وتقديم مقترحات. اقتصرت المعلومات الرسمية الحكومية على "البيان"، على الرغم من استمرار حديث أبواق الصحافة الموالية للحكومة عن مؤامرة كبرى. من جانبها رأت "الشعب" جريدة المعارضة الوحيدة أن الأمر لا يعدو أن يكون واحدة من مناورات الحكومة لترهيب منتقديها.

أما فى ميسونيس فقد اجتمع رايموندو فلوريس بصورة عاجلة مع قيادات التعاونيات الزراعية، والتنظيم فى نفس الوقت لتقييم مستجدات الأحداث السياسية. فى النهاية، تقرر إلغاء اللقاءات اليومية "لحين إشعار آخر".

– أسبوع الآلام – علق رايموندو فلوريس – يداهمنا، ومن ثم سنرجئها إلى ما بعد ذلك. فى غضون ذلك، سنتوخى أقصى درجات الحذر.

فى لا بلاتا، كان بلاس أرثامنديا يتأهب للعودة إلى أسونثيون. عقد اجتماعات كثيرة ومطولة مع الرفاق من مواطنيه، الذين يحظون بدعم الأرجنتينيين والتشيليين. اتفقوا على مداومة الاتصال مع دراسة إمكانية قيام عناصر أجنبية أكثر خبرة بالكفاح الثوري، بتدريب مقاتلى التنظيم فى العاصمة الأورجوائية وباقى البلاد. فى غضون ذلك تزايد

القمع العسكرى والأمنى فى الأرجنتين صدى ممارسات النظام لم يصل للرأى العام. كان بلاس يتصل كل ليلة بصديقته ليعبر لها عن سعادته بلم الشمل، يحكى لها عن الوداع الذى لا ينتهى لأصدقائه ورفاق الكلية، وكيف استمتع بدراسته، والتى سيستكملها فى جامعة أسونثيون الوطنية. كانت آخر مكالمة ليخبرها أنه متوجه لمحطة حافلات الركاب فى بوينوس أيرس ويأمل أن يراها فى محطة أسونثيون. "لن أتمكن فى الساعة التى يتصل فيها" – أجابته مرثيدس –، ولكن سأتصل بك فى المساء. على أية حال، ستكون والدتك هناك، تحدثنا طويلا مساء أمس. قبلاتى يا حبي، نلتقى غدا، رحلة سعيدة".

– لكن لماذا الصوم فى الجمعة المقدسة ما دمنا كنا نتناول الطعام طيلة الأسبوع إليس كذلك إيسابل؟ – سخر ديوينيسيو روخاس من مأدبة الطعام التى تقام كل خميس من أسبوع الآلام ويلتف حولها فى بيته بعض "الحواريين"، كما حضر أيضا رايموندو فلوريس ومارتينا بصحبة سوسيدي، الذى جعلوه يقسم ألا يحكى قصة أسونثيون.

– حسنا، دون رايموندو – أجاب سوسيدى –، حضرتك يجب العلم أن...

– لا يجب أن أعلم شيئا – اعترض رايموندو فلوريس بصوت يحمل نبرة توبيخ زائفة

– هلم بنا.

قرب منتصف الغداء جاءهم نبأ اعتقال رامون سيجوبيا وأنه موجود حاليا بمقر البلدية. خرج ديوينيسيو ورايموند مع رفاق آخرين على عجل متجهين صوب القرية. التقوا فى الطريق بمجموعة من منشدى أغانى آلام المسيح متجهين نحو الكنيسة يرددون أناشيدهم الحزينة بلغة الجواراني. سيعودون عند حلول الليل حيث يتوقفون من بيت لبيت، حاملين مذبحا وصلبانًا مزينة تذكر بآلام وصلب يسوع.

–وماذا عن هؤلاء؟ – تساءل رايموندو فلوريس عندما رأى مجموعة من المدنيين يترجلون من شاحنة شرطة عند مبنى البلدية –. لعلهم لم يأتوا بحثا عن رامون.

تبدد القلق عندما استعاد رامون سيجوبيا حريته، بعد قضاء ساعات طويلة فى الحبس والمظاهرة الاحتجاجية التى نظمها رفاقه.

بعد انتصاف نهار الجمعة الحزينة شديد الحرارة والرطوبة، تتابع وصول الحواريين إلى الكنيسة من أجل الحدث الرئيسى فى أسبوع الآلام. تتمثل مهمتهم فى تثبيت صورة المسيح بالمسامير على الصليب ثم إنزالها من أجل الموكب. عند الانتهاء من قراءة "العبارات السبعة" التى تلاها يسوع عند صلبه، ارتسمت الدهشة على وجه رايموندو فلوريس حين رأى القاضى ساليناس وأربعة مدنيين يرافقونه، قد جلسوا فى الصف الأول، فى دلالة واضحة على عدم رغبتهم مواصلة المشاركة فى مراسم الاحتفالية. تسبب الحضور الغريب فى إثارة قلق، تساؤلات، وخوف. عقب انتهاء ديونيسيو روخاس من قراءاته المسهبة، غادر الزوار المكان بنفس الإيماءات المتغطرسة التى اتسموا بها عند دخولهم. أخذ القس الموضوع فى اعتباره وقرر التقدم بشكوى إلى مفوض الحكومة أو لوزير الداخلية، لكن هذا الموضوع لن نسكت عليه، فكر بينما كان يستعد لصعود المنبر.

مع هبوط الليل، دون أن تهبط درجة الحرارة، قفل الحواريون الثلاثة عائدين إلى منازلهم فى باريريتو، وهم يتساءلون عن الأشخاص الذين اقتحموا مراسم الاحتفال. وأد ديونيسيو روخاس التكهنات قائلا: "سرعان ما سنعرف لماذا جاءوا". بعد أن مكثوا لوقت طويل عند منزل رامون سيجوبيا، وصل رايموندو فلوريس إلى منزله حيث تلقفه نبأ سؤال العمدة ساليناس عنه. عملا بتوصية مارتينا، قررا الانزواء فى حجرتهما وإغلاق باب منزلهما عليهما قبل الساعة المعتادة. قرب منتصف الليل أطفآ الأنوار وآويا إلى الفراش، بحواس منتبهة مع شعور قوى بالخطر. بعد قليل سمع صوت فرملة عنيفة لسيارة. قفزت مارتينا نحو النافذة وهى تصرخ فى زوجها لكى يهرب من الباب الخلفي.

إيفـــا ألونـــسو

فى حجرة نومها بمنزلها الكائن بشارع كونتور سجاتان رقم (٤٢) بالمدينة الجامعية بـ أوبسالا في السويد، انتفضت إيفا ألونسو من نومها عندما رن جرس الهاتف فجر ذاك اليوم كدوى أجراس ضخمة. تمكنت بالكاد وهى مرتعدة أن تنطق بـ كلمة "ألو". بالمثل استيقظ زوجها تتسلط عليه نبوءات مشئومة مشفوعة بصرخة أطلقتها زوجته فيما لايزال الهاتف لصيق بأذنها.

– سأل الزوج ما بين الخوف والهلع : ماذا يحدث ؟

– أجابت المرأة بصوت غلبت عليه مشاعر البهجة : سقط إستروسنر.

– هل أنت متأكدة، أليست مجرد صيحة كاذبة من تلك التى يطلقونها ؟

– متأكدة تمامًا. لقد هاتفنى ليفيو جونثالث من باريس. جعلوه يسمع الخبر من الراديو الذى أعلن نجاح حركة التمرد.

مازال الوقت مبكرًا، لذلك نهضت إيفا من الفراش وأخذت تبحث فى دفتر التليفونات الخاص بها عن أرقام أبناء بلدها لتنقل إليهم الخبر. لقد علم الكثيرون منهم الخبر وأغلبهم من المقيمين فى باريس ومدريد. جو الحجرة الدافئ يتعارض والجو بالخارج، طبقات من الجليد الكثيفة تكسو الشوارع والأشجار وأسطح المنازل والسيارات المتوقفة. يسقط الثلج بلا توقف أبيض ورائق. تعيش إيفا مع زوجها الشيلى الجنسية فى شقة بالطابق الثالث لبناية تتألف من أربعة طوابق. تزوجت منذ خمس سنوات. يسكن الحى الذى يقطنان به أغلبية من العمَّال وصغار الموظفين وبينهم الكثير من المواطنين من أورجواى والذين تم نفيهم، بالمثل من الأرجنتين وشيلى. وصل أغلبهم إلى العاصمة السويدية مثلهم مثل نظرائهم من باراجواى عن طريق مساعدة الصليب الأحمر الدولى أو الأمم المتحدة.

حددت إيفا لقاء مع اثنين من مواطنيها مقيمين فى الحى، سيكون ذلك فى الساعة التاسعة والنصف بإحدى الكافيتريات. دعت أيضًا صديقين أرجنتينيين، وصديقا شيليًا واثنين من أورجواى، يتشاركون جميعًا أمل أن تستتب الديمقراطية فى بلادهم فى أسرع وقت. تبدى السلطات السويدية تضامنًا مع المنفيين من قبل دول تسيطر عليها الدكتاتوريات، بالرغم من ذلك، فلا شيء قادر على تعويض شعور الألم بالحياة بعيدًا عن الوطن. امتلأت الكافيتريا بأشخاص يتبادلون العناق والضحكات والنكات. فالنبأ الذى طال انتظاره، انتشر فى ربوع السويد والعالم أكمل، بدا أن إيفا قد تذكرت شيئًا فهرعت لتتصل تليفونيًا بصديقها إريك أولسون الصحفى بجريدة "أسفنزا دا جبلاديت". أخبرته بدون أية مقدمات المستجدات التى اطلعها عليها الصحفى من خلال التليفون. اتفقا على اللقاء اليوم التالى فى تمام الساعة الواحدة ظهرًا فى نفس الكافيتريا لإعداد ريبورتاج.

أصبح هم جميع المنفيين البارجوائيين شراء تذاكر الطيران إلى بلادهم وهم على يقين أنهم سيجدون البوابة مفتوحة. إلا أن حماسهم جانبه الفتور عند التفكير فى صعوبة ما جدَّ عليهم من تكوين عائلات جديدة، فكيف سيقدرون أن يقتلعوا هذه الجذور دون ألم ودون إحساس بالحنين، ماذا عن الزوجة والأبناء الأجانب؟

تعيش إيفا فى السويد منذ أكثر من عشر سنوات. ووجب عليها دراسة اللغة السويدية بتكليف من السلطات لمدة ست ساعات يوميًا من الاثنين إلى الجمعة، بالإضافة إلى قوانين البلاد وعاداتها. وهو نفس ما خضع له جميع المنفيين من دول أمريكا اللاتينية، الذين تم نقلهم من مطار "أرلاندا" إلى معسكر اللاجئين المؤلف من مجمع سكنى يقع فى مدينة "ألفستا" الصغيرة، مكون من حجرات منفصلة تشترك معًا فى المطعم وقاعة الجلوس. فى ذاك الوقت احتشد بالمكان ثمانمائة لاجئ أمريكى لاتينى، غير أنهم جميعًا غادروا بعد انقضاء ستة أشهر ليبدأوا كسب عيشهم من خلال وظائف تم توفيرها لهم فى أماكن متفرقة بالبلاد.

أول عمل مارسته كان فى إحدى دور المسنين تابع للدولة، وهو ما مكنها من استئجار مسكن صغير مؤثث، وكانت تتجول لتتعرف على معالم المدينة الجذابة، وخاصة الفنية والثقافية والتاريخية، وبينها الجامعة التى تأسست فى القرن الخامس عشر والكاتدرائية قوطية الطراز فى القرن الثالث عشر. ساعدتها هذه النزهات أن تخفف من ذكرى الأيام

التعيسة التى عاشتها فى باراجواى خلال سنواتها الأخيرة هناك. كان يغالبها الحنين الخالص لمعرفتها باستحالة تخيل الزمن اللازم كى تعود إلى أراضيها. كانت فى السابعة والثلاثين وعمرها كان يؤكد لها، وإن كان احتمالاً ضعيفًا عودتها إلى بلادها حين تتغير الظروف السياسية. وصلت إيفا إلى السويد فى فصل الخريف وذكرها ذلك بشتاء بلادها القارس. اتخذت من البرد ذريعة لتقبع فى حجرتها بعد الانتهاء من مهامها الإجبارية، ذلك أنها كانت فاقدة الحماس لأى شىء. أخذت تفكر فى التعقيدات التى مرت بها فى حياتها العاطفية حين كانت على وشك يتحقق حلم كثيرا ما تملكها.

لم تكن المرة الأولى التى تراه فيها بعين مختلفة. تتذكر تلك القيلولة برفقة رايموندو فلوريس حين وصل. بعد ذلك خرج ودخل مرة أخرى ليبحث عن حقيبة ظهره التى نسيها فوق المقعد. تحدثا بشأن الرابطات التعاونية وعن الصعوبات المتنامية الناتجة عن ضغط الشرطة والجيش، وعن شئونهما هما الاثنان، وكلما خفت الحديث، عاودا النقاش عن أنشطتهما فى "ميسونيس". من جانبه كان يحاول أن يطيل فترة اللقاء ويُطعمه بحرص شديد ومكر بإيحاءات تقبلتها هى برفق. ودعها بعدما شعر بأفكاره متضاربة واتفقا على اللقاء يوم السبت كما هو معتاد، ثم أضاف أنه قد يمر الأربعاء لأن لديه بعض الأعمال المعلقة مع زملاء اللجنة، إلا أنها التزمت الصمت. شعرت إيفا بارتباك فى عواطفها، أدركت أن هناك سعادة عابرة، وسريعة الزوال تخفق فى قلبها. بعد انقضاء ساعتين من وداعهما، جعلا يترقبان حلول يوم السبت.

ومثلما هو معتاد فى كل صباح، يقوم الصحفى إيريك أولسون بنشاطه الروتينى اليومى الذى يبدأ فى الثامنة صباحًا، يشاهد التليفزيون ويغتسل ويعد إفطاره المؤلف من عصير فاكهة، وقهوة سوداء وشريحة خبز. يعيش بمفرده منذ أن انفصل هو وطليقته التى تعمل فى نفس الصحيفة التى يعمل بها منذ أكثر من عشرين عامًا.

لفت انتباهه خبر فيما يوشك على الخروج من المطبخ : تنازل الدكتاتور آلفريد إستروسنر عن الحكم، وتم التحفظ عليه من قبل سلاح الفرسان. ارتدى ملابسه على عجل متوجهًا إلى الجريدة حيث بدأت تتواتر الأنباء من الوكالات المتعددة، رن جرس التليفون لحظة خروجه وكانت صديقته إيفا ألونسو.

الشارع يكاد يخلو من السيارات فهو يوم سبت وما زال الوقت مبكرًا، غير أن الجليد لا يسمح له بالسير بسرعة. بعد ساعة، أوقف السيارة فى الجراج التابع للجريدة، وصعد فى المصعد إلى الطابق الثانى حيث صالة التحرير. حاول خلال الطريق أن يُرتب أفكاره وعناصر الريبورتاج الذى سيعده عن الأحداث فى باراجواى، البلد الذى زاره عدة مرات خلال عمله مراسلاً صحفيًا فى منطقة المخروط الجنوبى فى أمريكا الجنوبية وتحديدًا بوينوس أيرس. كان قد غطى أحداث تمرد بينوشيه عام ١٩٧٣ ضد حكومة سلفادور ألليندى، وأيضًا الانقلاب العسكرى بقيادة رفائيل فيديلا فى الأرجنتين علم ١٩٧٦، والتبعات المأساوية الطويلة التى أعقبت هذين الحدثين.

زار باراجواى عام ١٩٧٥ ليغطى أحداث اقتحام مستعمرة "جيجوى" التى داهمتها عناصر الشرطة والجيش التى اعتقلت وعذبت وطردت ما يزيد على ثلاثمائة مزارع كانوا قد استقروا هناك. وكان من بينهم كاهن باراجوائى وأسقف من الولايات المتحدة الأمريكية. زارها مرة أخرى عام ١٩٧٦ حين تم الإطاحة بـ الرابطات التعاونية والتنظيم السياسى العسكرى، فى تلك المرة تم اعتقاله ومصادرة آلة التصوير ودفتر الملاحظات الخاص به، فى منطقة سان خوان باوتيستا، ثم رُحل إلى قسم التحقيقات بالعاصمة. أُفرج عنه فى اليوم التالى بعد التدخل الحثيث الذى قامت به سفارة بلاده. عاد شهر مارس ١٩٨٠، وصلت إليه ذاك الحين أنباء عن طريق صديقه العضو فى لجنة الكنائس، عن المذبحة التى تعرض لها المزارعون فى مستعمرة "كاجواثو"، حيث قُتل عشرة مزارعين اختفت جثثهم بالكامل بعد ذلك، كما اعتقلوا اثنى عشر شخصًا آخرين بينهم طفلة فى العاشرة من عمرها وفتاة فى الخامسة عشرة تعانى اضطرابًا ذهنيًا. رجع مرة أخرى إلى أسونثيون شهر سبتمبر ليعد مجموعة من التحقيقات الصحفية بشأن اغتيال أناستاسيو سوماثا، الدكتاتور السابق لنيكاراجوا الذى لجأ إلى باراجواى فى أعقاب ثورة الجبهة الساندينيستا.

ترك منذ خمس سنوات مهمة المراسل فى بوينوس أيرس، غير أنه ظل مهتمًا بالأحداث فى أمريكا الجنوبية. بدأ بمراجعة ملفاته باهتمام بمجرد الدخول بينما صالة التحرير لا تزال شبه خالية. لديه مادة غزيرة تكفى لسلسلة من التحقيقات، يختار منها الموضوعات التى سيطرحها على مدير التحرير. يعاود قراءة ملاحظاته عن قضية "أكارايامى" التى أولاها اهتمامًا خاصًا. كثيرا ما بدا له أن الممارسات القمعية لم تكن مكافئة للأحداث، بل

تجاوزتها : بدأت الأحداث بشكوى تقدم بها عشرون شخصًا بينهم نساء وأطفال إلى "معهد الرعاية الريفية" في العاصمة بحق زوجة أحد رجال الجيش والتي حالت دون أن يمارسوا زراعة أراض بعينها مدعية أنها ملكية خاصة لها، وفي الثامن من شهر مارس أجبروا فجر ذاك اليوم على مغادرة الأرض. وبعد مسيرة ساعتين وصلوا إلى الطريق السريع وقرروا ركوب سيارة النقل لتقلهم إلى العاصمة التي تقع على بعد مائتين وخمسين كيلو مترًا. كان بينهم أحد قيادات الرابطات التعاونية وحمل معه مسدسًا، بعد انطلاق الحافلة.

أوقف السائق العربة بناء على أوامر من مركبة شرطة نزل منها عناصر مسلحون، اعتقدوا أنه سوف يحال دون أن يذهبوا إلى هدفهم، فطلب زعيمهم من السائق ألا يطيع الأوامر. حين بدا جليًا امتناع المجموعة عن الانصياع للأوامر وعزمهم على الوقوف أمام العربة ليحولوا دون التقدم، أطلق المزارع المسلح الوحيد النيران. توقفت سيارة الشرطة وانطلقت الحافلة. بعد عشرة كيلو مترات ترجّل الراكبون خوفًا من أن يلحق بهم فريق من إمدادات الشرطة.

حاولوا الوصول إلى الجبل ليحتموا به حتى الفجر، لينطلقوا بعد ذلك عائدين إلى المستعمرة من خلال طرق بديلة، غير أنهم لم يتمكنوا من فعل ذلك، أحاطت بهم فرق من الجيش والشرطة والميليشيات مدججين بالرشاشات. اعتقدت الحكومة أنهم عصابات مسلحة، فيما خلط الفلاحون بين عربة اللجنة وسيارة الشرطة التي وجهت لاعتقالهم.

في منتصف النهار، حصل إريك أولسون على التصريح اللازم من رئيس التحرير لينشر أربعة تحقيقات. وسيكون الخبر عبارة عن حوار مع إحدى اللاجئات من باراجواي والتي تقيم في "أوبسالا".

أعطت الأمطار الغزيرة التي هطلت في ذاك السبت الانطباع بأنها ستواصل الانهمار ساعات متواصلة أو ربما أياما. جعلت إيفا تتأمل الرياح وهي تدفع بالمياه. وفجأة خطر ببالها أن سوء الأحوال الجوية سيحول دون أن يتحرك من أسونثيون، سيواجه استحالة اللقاء بالمزارعين الذين لن يخرجوا من منازلهم. حاولت تحليل أفكارها بشكل موضوعي، وجدت أنها لا تزال معجبة بالرجل الذي بدأت تخرج معه منذ وقت. هي علاقة لا تتسم بالجدية لكنها تحولت مع الوقت إلى ما يشبه الارتباط الملتزم. والآن هطول المطر الذي

غالبًا ما يجعلها فى مزاج طيب، يشغل بالها تفسير هذه العلاقة التى تحاول حل عناصرها وإماطة الشك عن طبيعتها،

لم تبد لها مكتملة، وإن كانت فى طور الاكتمال فى لحظة قريبة. إذًا ما الذى جعلها تترك المائدة صباحًا دون تناول إفطارها ؟ لقد أرادت أن يحضر يوم السبت، ولكن فقط من أجل مناقشة بعض المهام، ما الذى سيحدث إذا تأجل هذا اللقاء ؟ لن يتم إلغاؤه، بل ربما سيمتد. وإذا تم إلغاؤه، فماذا ؟ كم من الوقت مضى وهى تعمل إلى جواره، وهو يفعل المثل بجانبها ؟ لقد تقابلا فى العديد من المرات معًا، كانا يتبادلان الحديث فى أوقات الراحة، وقعا وثائق دعم الرابطات الزراعية، التقيا خلال أحد التجمعات المنددة بالاعتقالات، ولا شىء أكثر من ذلك.

لا شىء يربط بينهما بشكل شخصى، وما تفعله لا تفعله من أجله، أو من أجلها. يجمعهما هدف رئيسى يدافعان عنه من أجل الجميع. لم تتساءل أبدًا عمًا يفعله بحياته بعد انتهاء الاجتماعات، ويقينًا أنه لا يتساءل عما تفعله هى أيضًا.

دائمًا ما تخبر صديقاتها أن خطيبها "ما بين قوسين"، جذاب وهادئ، تسير حياته بسلاسة مياه جدول الماء، بلا ضجيج مثل ذاك الذى تلاحظ فى العلاقات الأخرى. لم يحدث أبدًا لها ما يعكر الصفو، لكنها تخشى مما قد تسببه انفجارات الغيرة مثل آخرين. لن تسمح بأن يكون هناك مجال لذلك وبالمثل هى لا تعرف كيف تتصدى لمثل هذه الأشياء.

تتساءل مرة ثانية، ولماذا كل هذه الأفكار ؟ ما هذا الضوء الأحمر الذى يخترق وعيها بشكل متواصل ؟ إن خطيبها "بين قوسين" أو المحتمل يوحى بحبه الأكيد وهى على يقين من ذلك، لكنها ترغب فى أن تأخذ هذه العلاقة شكلاً رسميًا فى نطاق مجتمعى، وهو ما ظلت تفكر فيه كثيرًا. بصفته طبيبًا أو مجرد مواطن عادى فلابد أن يكون لديه أنباء عن القمع بالتفصيل والذى تمارسه الشرطة بقسوة وبشكل مستمر بحق أعضاء التعاونيات الزراعية المسيحية.

فى المقابل يلتزم الصمت. ويحاول تغيير الموضوع. وذات مرة، وكان اللقاء الأخير بينهما بعد قرار إيفا أخبرها : "وما أدراك ما الذى يفعلونه"، لا يعمل من أجل النظام، ولكن انغلاقه على نفسه من أجل الدراسة أبعده عن العالم الواقعى حوله، أجابته: "ولكن الأشياء

فى عالمنا تجعلنا نفكر ونشعر ونرى ونحكم ليس على أنفسنا فقط، بل للآخرين أيضًا". لم تتعرض علاقتهما لأية توترات باستثناء مثل هذه التصريحات. من جانبها رغبت فى داخلها أن يلقى نظرة من شرفته ليرى "الأشياء فى هذا العالم". إذا لم يرها فلن يشعر بها بل ما هو أبعد من ذلك، لن ينخرط فيها. هو لا ينقصه أى شىء فهو شريف مجتهد فى الدراسة، جاد فى عمله وسيكون ربًا جيدًا لأسرته وزوجًا طيبًا، ولكن... مجددًا يظهر الضوء الأحمر الذى يعكر مزاجها "ألم أعد أنتظر أن يكون هذا هو الحب الذى كثيرا ما حلمتُ به ؟".

تراجع انهمار المطر بعد الظهيرة إلى قطرات بسيطة تتساقط من سحب شفيفة. استمعت فى الراديو أن الأمطار هطلت بغزارة منذ الفجر ثم امتدت إلى أغلب ربوع البلاد.

جلست إلى المائدة لتناول الغداء مع أصحاب المنزل، بعدها ستعمل على الانتهاء من التقارير التى ستقدمها إلى لجنة الآباء بشأن المسيرة الخاصة بالإدارة والتعليم فى "المدارس التعاونية"، بما تحمله من تحليل دقيق واقتراحات. اعتبرها الجميع "المُراقبة" لحماسها واجتهادها ومعلوماتها الغزيرة. تُشدد على قضية "التعليم والمواطنة"، كما تساهم فى إعداد كوادر المعلمين، لأنها على قناعة تامة بأن إصلاح المجتمع أساسه البدء بالأطفال.

ومرشدها الأول هو "باولو فريرى" البرازيلى المؤسس لفكرة التعليم الحر الإنسانى والذى يفترض أن "لا أحد يُعلِّم أحد، وأيضًا لا أحد يتعلم بمفرده، وأن الإنسان يتعلم بين الآخرين فى إطار العالم". وبين مجموعة الـ "بيتيفوهارا"، يتناقشون ويدرسون ويحللون كتب "فريرى" مثل كتاب "التعليم كممارسة للحرية"، و"تعليم المقهورين"، و"الثقافة من أجل الحرية". وإضافة إلى ذلك كتب مارجريت دوران وخوسيه لويس كارافياس، إضافة إلى ملاحظات المزارعين فى الاجتماعات الأسبوعية. وغالبًا ما يحضر تلك الاجتماعات الفنيون فى مجالات متعددة تُصب جميعها فى الزراعة. وهكذا عينَّت "إرسالية الصداقة" المهندس الزراعى دانييل باريوسى لتوعية ورفع كفاءة اللجان فى "ميسونيس". فعلى الرغم من صغر سنه، إلا أنه تشكل مهنيًا وعلميًا بشكل ممتاز فى البرازيل والأرجنتين وكولومبيا وبوريرتوريكو. وكان المهندس الزراعى الوحيد الذى أبدى اهتمامًا بالمزارعين وأراضيهم المحدودة. أدرك أن مشكلة هؤلاء المزارعين لا تقتصر على قلة المساحة المتاحة للزراعة وحسب، بل أيضًا فى الأسلوب التآمرى الذى يمارس بحقهم وحق زراعتهم وإذا

ما تم تكثيف الجهود وتوحيد العمل الجماعى سيتمكنون من القضاء على مشكلة الحيازات الصغيرة، وهى السبب الأساسى لفقر الفلاحين. وجد المهندس فى التعاونيات الزراعية المناسبة المواتية ليصنع أفكاره محل التطبيق.

وبعد رفع المائدة، تفاجأت إيفا برؤية المهندس يوقف سيارته إلى جوار باب المنزل، ثم توجيه التحية لهما فيما تبدو على وجهه ابتسامة عريضة. أشارت له بالدخول، فلم يتردد.

– بدأته إيفا بالتحية : لم أنتظرك هذه الساعة؟

– كذب المهندس : فى أسونثيون كان المطر قطرات معدودات.

– لم تعتد إيفا المسامحة فى الكذب، لكن الكذبة أسعدتها هذه المرة.

التحقيق الأول الذى أعده إريك أولسون يعرض بيانات عن الانقلاب ومقدماته التى تجلت بوضوح فى مشاهد المقاومة الطلابية وقيادات المعارضة السياسية. أبرز الصحفى "الحالة الغريبة" لدكتاتورية عاشت مختبئة بعيدًا عن النظرة العالمية لسنوات طويلة، دعمتها وتواطأت معها دول ديمقراطية أخرى.

أما التحقيق الثانى فأشار إلى حالات الاختفاء لسياسيين وقيادات من المزارعين، اختفوا بالكامل بعد أن داهمتهم الشرطة. من جانب آخر، لم يتمكن ذووهم من الوصول إلى حل عبر القضاء، إذ إن القضاة لم يهتموا بالدعاوى المقدمة. من جانبها فإن مؤسسات حقوق الإنسان القومية والدولية تمكنت من لعب دور محدود بنشر هذه البلاغات بين السلطات المحلية واقتصر رد فعلهم على الصمت أو توجيه الإهانة والسخرية.

يعاود قراءة التحقيق ويختار الصور، ثم يخطر رئيس التحرير وينزل إلى الجراج. يقود سيارته فى الطريق السريع المتوجه إلى "أوبسالا"، على بعد ثمانين كم من أستوكهولم. كان يوم الأحد والجليد يغطى كل شىء. يسير فى الطريق بصعوبة، غير أن الريبورتاج الذى سيقوم بإعداده يستحق المشقة.

فى النهاية انتهى الأمر، وجالت بخاطره الأوقات العصيبة التى قضاها فى أسونثيون. تمكن فى النهاية من اجتياز متاهات الطريق فى المدينة، خلال ذلك عنَّت له فكرة إعداد كتاب عن حقبة دكتاتورية إستروسنر. فكرَّ أن الكتاب من شأنه عرض وجهة نظر موضوعية ومختلفة، فلديه كم كبير من الوثائق والمخطوطات وإن كانت غير مكتملة تمامًا.

سيتوجب عليه السفر إلى باراجواى ليحدث مادته من خلال لقاءات مع قيادات المقاومة والتى ستعود بلا شك إلى بلادها. حتى إنه ممكن التواصل مع بعض المواطنين المنفيين إلى بلاده.

يفكر فى حميمية اللقاء، والتخطيط للمستقبل والتوقعات الخاصة بالحكومة الجديدة، وجراح الماضى، كل هذه العناصر ستشكل المادة التى سيحتضنها كتابه. قد لا يجد إجابات لبعض التساؤلات أو قد تكون إجابات مجتزئة، لكنه سيبحث عن سر ترسخ هذه الدكتاتورية على هذا النحو خلال تلك الفترة الزمنية الطويلة.

هل شكل الفزع والفساد والخوف أسبابًا لقهر الملايين أم أن هناك أسبابًا أخرى لم تُدرس بدقة، فتم إغفالها عن عيون الباحثين ؟ تأمل أيضًا زعامة إستروسنر، وتساءل: كيف يتمكن شخص يفتقر إلى ملكة الفصاحة من السيطرة على الآخرين، مثل جميع الشخصيات الديماجوجية التى عرفها التاريخ ؟ هل نجح فى ذلك نتيجة لتطبيق هذه الماكينة الدعائية ؟ على سيارته بعد أن دخل المدينة فى مكان هادئ حتى يتمكن من تدوين أفكاره فى دفتره. ما زال لديه عشرون دقيقة قبل ميعاده.

ينطلق بالسيارة مجددًا متوجهًا إلى شارع "كونكسجاتان" حتى يصل إلى مكان اللقاء. جانبه الحظ ووجد مكانًا ليوقف السيارة على بعد خطوات من مقصده. دخل وجال ببصره إلى أن لمح إيفا، فرفع ألونسو يده مشيرًا لها، ما زال المكان شبه فارغ، وهو الأنسب لحميميته، كما يقع فى الطابق الثانى. كان اللقاء حارًا. تعانقا بشدة تعبيرًا عن الابتهاج الذى يشعران به للأحداث التى كثيرا ما انتظراها.

قالت إيفا وهما يعتدلان فى مجلسهما: تحدثت مع زوجى بشأن التحقيق الرائع الذى نشرته، أعجبت برصانته، كما أنه موضوع مثير يلقى بالضوء على الحقيقة.

أجابها الصحفى: نعم، الحقيقة المزينة تثير الانتباه لكنها غير مقنعة. وهناك بعض الزملاء يكتفون بعنصر الإثارة وحسب.

– هل نشرب شيئًا ؟

– ماء.

– سأطلب النبيذ التقليدى، فهو طيب للغاية، وماذا ستأكلين؟

– لا أنظر إلى قائمة الطعام هنا، أطلب الأطباق الصغيرة الأربعة، هى المفضلة لدى.

– نعم، "فيرا سماراتر"، سأطلب نفس الطبق.

بعد أن طلب الطعام، أخرج إريك أولسون من حافظته الجلدية دفترًا وبدأ يدون ملاحظاته.

سألته إيفا ألونسو : ألا تستخدم جهاز تسجيل ؟

– لا أستخدم التسجيل أبدًا لأنه يقتل الإبداع و يجعل أداءه آليًا وروتينيًا. أما تسجيل الملاحظات فيبقى الشخص يقظًا وقت الصياغة.

– ولكن، ألا تنسى بعض الأشياء ؟

– إننى أدون ما يجب علىَّ تذكره.

– تزاول المهنة منذ وقت طويل ؟

– حوالى ثلاثين عامًا.

– إذًا بدأت فى شرخ الشباب.

– ليس كثيرًا، إننى فى الخامسة والخمسين. سأكون على المعاش قريبًا.

– من المؤكد أنك ستفتقد الصحافة.

– ربما أقل مما يبدو. إننى على قناعة بأن الصحافة مثل دراكولا.

– سألته إيفا وقد أعجبها التعريف : كيف ذلك؟

– الصحافة تتغذى على الدماء الشابة.

– والخبرة ؟

– فى حالتى سأجعلها تصب فى شكل كتب. لدى بحث مطول عن الدكتاتورية فى شيلى. وفى طريقى إلى هنا كنت أفكر فعل نفس الشىء عن دكتاتورية إستروسنر دون أن أهجر الصحافة. فالصحافة ستهجرنى.

ختم حديثه بضحكة انتقلت إلى رفيقته.

بينما يتناولان الغداء، انصب حديثهما على حياة إيفا ألونسو ما بين باراجواى والسويد.

طمأنها الصحفى : لا تقلقى بشأن التتابع الزمنى، سأقوم بالتنسيق فيما بعد. فهذه هى مهنتى.

– هذا هو، أحب الإشارة إلى إحساسى الأول فى هذه البلاد، كان إحساسًا قويًا ترك بصمته علىَّ بصفتى فى المنفى، عملى الأول الذى تلقيت عليه أجرًا كان فى دار مسنين حكومية.

جعلنى فى هذه المهنة مدير الدار الذى عاملنى بكل لطف، وأقام فى الدار ما بين خمسة وعشرين وثلاثين من الذكور والإناث كبار السن. أخبرنى أن هناك امرأة أخرى من باراجواى فى الدار تعمل منذ أقل من عام. أردت بشدة التعرف عليها ومعرفة أخبارها. وعرفت على الفور. كانت أرملة لأحد المنفيين إلى السويد، والذى بحث عن الحرية والعلاج لعمليات التعذيب التى تعرض لها. كان قد أضرب عن الطعام ثمانية وأربعين ساعة بعدما تدهورت صحته بالكامل، فأطلقت الشرطة سراحه. كان ذلك حين تواصل مع الصليب الأحمر الدولى وطلب اللجوء إلى السويد فرارًا من العذاب وطلبًا للعلاج، وخاصة فيما يتعلق بمحاولة استعادة القدرة على الحركة. جاء مع زوجته وابنته. وقضى نحبه فى العام الثالث. أتساءل لماذا هزتنى هذه القصة بعنف، لأن الرجل وزوجته كانا قريبين لأسرة صديقة، وهما كريستينا ورامون سيجوبيا، كانا شخصين متميزين ومحبوبين فى التعاونيات الزراعية المسيحية. ولسوء الحظ فإن أحد أبناء عمومتهما تعرض أيضًا للتعذيب وشارك فى الإضراب عن الطعام لنفس الأسباب وتحت نفس الظروف.

توفيت السيدة بعد قضاء عامين فى دار المسنين واختارت الابنة أن تواصل حياتها فى السويد، وكانت الأولى التى حادثتها بالأمس لأنقل إليها خبر سقوط الدكتاتورية، واتفقنا على اللقاء غدًا، هى تعمل فى معمل صيدلى.

بينما يحتسيان القهوة، تواصل إيفا ألونسو سرد قصتها، ونشاطها فى التعاونيات الزراعية المسيحية. يتخلل حكيها وقفات لتجيب على الأسئلة أو تستدعى عواطفها. ينتهى اللقاء بعد قرابة ساعتين، يودع كل منهما الآخر فيما يحل الظلام مبكرًا.

ركز التحقيق الثالث على الإطار الذى شكل الدكتاتورية، ومثال لذلك الانضمام الجبرى إلى الحزب الحكومى من قبل الشرطة والجيش والموظفين بالدولة، كان ما يشبه تكوين شبكة واسعة ضاغطة من المخبرين من كل شرائح المجتمع، إضافة إلى الحصانة والمصالح الاقتصادية للمتعاونين وقمع من يقوى على الانتقاد.

وخصص إريك التحقيق الرابع لـ إيفا ألونسو، ونشره فى العدد الثامن من فبراير الموافق يوم الأربعاء، فتحدث عن نشاطها الاجتماعى والسياسى والظروف التى مرت بها، وعن آرائها بشأن انهيار الدكتاتورية وتوقعاتها عن الحكومة الجديدة، وخططها القريبة على المستويين العائلى والشخصى، وفى إطار الوضع الحالى، وركز على التنظيم السياسى العسكرى.

حكت إيفا ألونسو أنها التحقت بالتنظيم عام ١٩٧٥ والذى اكتسب شعبية وقويت شوكته بانضمام المزارعين له، قالت : كان من السهل الانضمام إليه لأنه كان المشروع الوحيد القادر على إحداث تغيير مجتمعى تاريخى.

المعارضة الرسمية كانت تتسلى بلعبة الانتخابات التى لن تفوز بها أبدًا لأن الحكومة كانت تجزل العطاء وتجعلهم يدورون فى حلقة مفرغة معتمدين على الخبرة. ارتكزت فكرتنا الأساسية فى التنظيم على مواجهة القوة بالقوة.

لم يكن لدينا وسيلة أخرى. وأبعدنا هذا التفكير عن رفقاء كثيرين طامحين أيضًا إلى التغيير ولكن بخطى السلحفاة ومن خلال طريق يقود مجددًا إلى نقطة البداية. أو بعبارة أخرى السير فى دائرة مغلقة لا تحول دون وقوع الأخطار نفسها. وبالمثل فإن العديد من هؤلاء الرفقاء لم يسلموا من السجن أو التعذيب، خاطروا بحياتهم دون التسبب فى تهديد حقيقى للنظام.

سألها الصحفى : وهل هاجمتم أنتم بصفتكم أعضاء التنظيم السياسى العسكرى الدكتاتورية ؟

– لا، لأننا كنا فى طور التشكيل حين قضت الشرطة على التنظيم بأكمله. ربما كنا سنتمكن من تشكيل جبهة مضادة للدكتاتورية بعد جهد عامين أو ثلاثة، فتتولد احتمالية القضاء عليها.

– وإذا كان ذلك قد تحقق، تُرى هل كنتم ستؤسسون نظامًا ديمقراطيًا حرًا مقابل الدكتاتورية اليمينية ؟

– ذلك كان ليصبح مثل أن تنقذ البلاد من قِدر نار لترمى بها فى الجحيم نفسه. هدفنا تأسس على فكرة الديمقراطية الاشتراكية، ولا تنسى أن فكر التنظيم مستمد من حكومة سلفادور ألليندى. إلا أن المناقشات الأيديولوجية لم تشغل حيزًا كبيرًا فى اهتماماتنا، لأن هدفنا كان تقوية قاعدة التنظيم وشوكته، لم نكن لنؤسس المنزل من السقف.

– علّق الصحفى : إن متانة البناء تعتمد على متانة البنية الأيديوجية لـ "عامل البناء".

– لا تغفل أننا كنا جامعيين، مُدربين على الدراسة والنقد والجدال...

– وهل كان الفلاحون على نفس مستواكم الفكرى، أم مجرد جنود ينفذون الأوامر ؟

– أستطيع إخبارك أنهم كانوا يتمتعون بوعى ثورى رفيع، وقفوا خلفنا فى أغلب الأحيان. وقبل أن يتم الحديث عن التنظيم داخل صفوف التعاونيات، تدرب اثنان من أعضائه بالفعل فى "الجيش الثورى الشعبى" على استخدام الأسلحة.

– ولماذا فشل التنظيم ؟

– لم يفشل، لا يا سيدى... حسنًا، فيما يتعلق بجانب التسليح نعم، ولكن على الصعيد السياسى أشعل الأمل فى نفوس الجميع كما أنه أقلق الدكتاتورية، لذلك واصلوا القمع الوحشى.

– هل أتى ثماره معك ؟

– نعم.

– كيف ؟

تنهدت إيفا ألونسو بعمق وطلبت قهوة للمرة الثانية، فيما تنظر إلى الجليد المتساقط من زجاج النافذة ثم ترد بصرها إلى الصحفى وتبتسم تلك الابتسامة الملغزة، لا تعبر عن سعادة أو رباطة جأش، أو ألم أو امتعاض. بل ربما استسلام لفعل لا علاج له، أو لنسيانه.

بعد لحظات تنطفئ ابتسامتها الدائمة فى كل حال، بدأت حكيها المتواصل، وفى مرات عديدة تشعر بالكلمات تتجمد فى حلقها.

حال المطر دون توجه قيادات التعاونيات إلى اللقاء فى إبراشية سان إجناثيو لاجتماعهم الأسبوعى بالمهندس الزراعى دانييل باريوس.

وفكروا أنه لن يحضر. أصبحت السماء صافية منتصف الظهيرة تتخللها سحب بيضاء صغيرة بدأت تتداخل كأنها تلهو فيما بينها، غير أن الطرق ظلت زلقة إثر المطر. قضى دانييل باريوس المساء برفقة إيفا ألونسو. كما رافقها خلال اجتماعها بالمعلمين والمعلمات فى المدارس القريبة. وكما هى العادة تحدثت عن تحسن مسيرة التعليم فى هذه المدارس معربة فى الوقت نفسه عن قلقها من السلطات المحلية التى تعتبر المبادرة معارضة للحكومة. أخبرته أيضًا أن من أهداف اللقاء إدماج الآباء وتقريبهم من العملية التعليمية لأبنائهم، التوصية الدائمة لـ إيفا هى مواصلة الدفع لإقناع الجميع بالانضمام إلى الفكرة مشيرة "أنها أفضل إجابة نقدمها" وهكذا تختتم الاجتماع.

بعد أن أصبحت بمفردها فى المنزل، جعلت إيفا تتأمل وتدرس ملاحظاتها بشأن تعامل المهندس الزراعى معها منذ أن وصل ذلك اليوم إلى منزلها. جعلت تتساءل لماذا كذب عليها ؟

وتوصلت إلى إجابة منطقية واحدة، كان قادرًا على البقاء فى أسونثيون، لكنه سافر وهو على يقين أن المطر شديد الغزارة فى "ميسونيس"، وذلك وفقًا لهيئة الأرصاد، ولن يكون من المواتى الاجتماع بقيادات التعاونيات ولكن سيقدر على رؤيتها هى. لا تدرك السبب فى أن فكرة أنه مغرم بها لا تفارقها، بل هى تسعدها. "هذا هو ما يقال، إنه مغرم بى، ولكن ماذا عنى ؟ لماذا أسعد بإعجابه بى ؟ تذكرت نظراته الحالمة إليها فى الاجتماع، وقالت فى نفسها: فنظراتى الموجهة له كانت تصطدم بنظراته والتى بدا أنها تنتظر إجابة منى. إن نظرته كانت باسمة توجه إلى حديثًا، نعم كأنها تحادثنى".

خبأ دانييل باريوس كلماته، أو ربما حوَّلها إلى إشارات يعبر بها عن مشاعره، بدت كلفة تسببت فى حيرة إيفا ألونسو وأجبرتها على البحث عن استنتاج لما يحدث، وتساءلت: "لماذا لا يخطو خطوة للأمام ؟" ثم تفكر "ربما يقترب منى ليوقعنى فى شراكه وأكون لحظتها عاجزة عن التراجع ؟".

قبل أن ينطلق دانييل بالسيارة سمع إيفا تقول: إنها ستسافر إلى العاصمة منتصف الأسبوع.

– أي يوم ؟

– الأربعاء.

– أحب أن أراك... إذا كان لديك الوقت الكافى بالطبع.

– طبعًا، سأتصل بك فى المكتب.

– سأنتظرك، إلى اللقاء.

تلقت إيفا ألونسو دعوة يوم الاثنين لحضور أحد اجتماعات التنظيم "فى الساعة والمكان المعتادين".

نبرة صوت دانييل وهو ينطق بعبارة "سأنتظرك" جعلتها على يقين من حبه لها. هناك تعبير واحد لا تخطؤه النفس بعيدًا عن الكلمات، مثل نبرة الصوت التى تكشف مكنون القلب. تشعر بالمثل بصفاء مشاعره، لكنها فى الوقت نفسه تشعر أن الأفكار تتقلب فى رأسها.

تحادث نفسها "يجب علَّى حل مشكلتين، أولاهما إنهاء العلاقة مع خطيبى المفترض، أقص عليه ما حدث، ثانيهما أن يعرف دانييل التزامى تجاه التنظيم. الطبيب يحبنى بالفعل، كما أنه ينظم حياته بناء على وجودى. لا أعرف ماذا سيكون تعليق دانييل على التنظيم، لكن يجب علىَّ إخباره مدفوعة بثقتى فى فطنته وحبه. المسألة هى التوقيت.هل يجب إخباره الآن، أم أنتظر نضوج علاقتنا ؟ أعتقد أنه من الأفضل الإسراع بالأمر".

أجابت على تساؤلها إلا أنها عادت وترددت، "نعم، وإن الوقت مبكرًا، وإذا لم يعجبه ذلك فلا شىء يمنعه أن يتركنى. إذا تأخرت فى إخباره، مع الأخذ فى الأعتبار لمشاعره، ربما يكون من الصعب عليه أن يفعل، وسأشعر بالذنب لأننى تأخرت فى إخباره".

ظلت هذه المتاهة تدور فى نفسها، وتصحبها عبارة "فى الساعة والمكان المعتادين". تبقى فى الناصية لدقائق وتبدى تصنعًا مدروسًا فيما تراقب الشوارع حولها. لم تر سوى كلبين يتعاركان للفوز بـ كيس بداخله بقايا طعام. تسير حتى البناية الرابعة وتضغط

الجرس، وفقًا لما هو متفق عليه فى تلك اللحظة، يُفتح الباب ويستقبلها لويسون ويصافحها بقوة. تدخل إلى الصالة الصغيرة فتجد ستة أشخاص جالسين تحت مروحة تصدر ضجيجًا أكثر من تحريك الهواء. فى تمام الخامسة عشرة و"بالدقة الثورية" كما يقول لويسون، بدأ بتقديم لورينثو، شاب فى الخامسة والعشرين اشترك فى "الحركة المستقلة" لشباب المدارس الثانوية وطلاب الجامعات. تقوضت هذه الحركة حين درس خط سيرها أحد "الإصلاحيين"، وأعتبرها غير كافية لمواجهة الدكتاتورية التى لن تسقط "إلا من خلال السلاح".

انضمت إيفا ألونسو قبلاً إلى "الحركة المستقلة" لكنها انفصلت حين تعرضت للانقسام. وكان قد ضايقها العنف والحدة بين الرفقاء أكثر من مسألة الانقسام. وظلت على موقفها المستقل إلى أن انضمت إلى التنظيم السياسى العسكرى، بعد عام واحد من انضمامها إلى التعاونيات الزراعية المسيحية.

أعلن لويسون أن لورينثو سوف يتحمل مسئولية مكتب العلاقات مع الفلاحين بناء على اعتذار المسئول الحالى، مشيرًا "لقد اختار جانب الأعداء". ولم يفصح إلى أى منهم على وجه التحديد، ربما قصد الحكومة أو أى قطاع "محافظ" أو "مضاد للثورة".

طلب من إيفا ألونسو، واسمها الحركى باسيليا أمامهم، أن تتعاون مع لورينثو بشأن قضايا الفلاحين فهو "القطاع الذى نما كثيرًا مؤخرًا، ويستحق أن نحيطه بالرعاية اللازمة، يجب مد يد المساعدة له كما يجب". ثم أضاف : "فى سانتا روسا لدينا روبرتو"، فى تلك اللحظة تفكر إيفا أنهم لديهم رايموند وفلوريس أيضًا الذى يعمل فى جبهات متعددة وبأداء ممتاز.

وبعد اعتبارات عامة ينتقل إلى النقطة التالية : "ماذا نفعل مع الناشطين ؟" زاد عدد وحماس المنضمين الجدد وخاصة من قطاع المزارعين. قال أحدهم : "إننا فى حالة حرب صامتة، ولكننا غير قادرين على الانتقال إلى المرحلة الثانية وهى فاصلة، ذلك بانضمام الناشطين المتطوعين، فليس لدينا حاليًا الاستعداد الأيديولوجى أو العسكرى.

هذا هو الوضع القائم. كل ذلك لأن تنظيمنا توسع نحو الخارج وليس نحو الداخل، بمعنى آخر نفتقر إلى كم القيادات المناسب للقيام بالتجنيد إذا ما استخدمنا المعنى العسكرى.

سأله لويسون : وماذا تقترح ؟

– اقتراحى أننا فى حاجة أن ينضم إلينا آخرون ليعملوا مع من هم موجودون بالفعل. وبعد ذلك وفقًا للنتائج.

– قاطعه لويسون : أفكر فى أننا قد نرتكب خطأً فادحًا إذا ما قمنا بتحجيم من ينضمون إلينا، وإن كان ذلك بشكل مؤقت. منظمتنا فى اللحظة الراهنة تتطلب الدعم من خلال أكبر عدد ممكن من المقاتلين.

فالأعداد فى الوقت الحالى هى التى ستقرر مستقبلنا، فإذا ما أغلقنا الطريق فى وجه من يريد الانضمام الآن، فإننا سنفقده إلى الأبد. أما النقطة الثالثة وهى ما لم نتطرق إليه فهى آلية التنظيم.

بعد جدال طويل تمت مناقشة حالات عدم الالتزام وتم إقرار لائحة عمل جديدة.

وقاطع لويسون الحديث قائلاً : وفيما يتعلق بلائحة العمل، فإننا سنعمل على إدراج من يرغب فى الانضمام إلينا، وأوكد لهم أن من شأن هذا الأداء يمنحنا بلدًا جديدة.

انتشرت فى الأوساط الجامعية أنباء مشروع جديد دفع به المزارعون ويُطلق عليه "التعاونيات الزراعية المسيحية"، يتلقون فيه دعم قساوسة الكنيسة الملتزمين بـ الدور الاجتماعى للكنيسة، وتحديدًا كنيسة كونشيليو فاتيكانو الثانى. ومنذ سنوات طويلة بدأت التعاونيات فى التوسع فى مناطق متعددة فى البلاد. وذاع صيتها بالتزامن مع التنديد الذى أطلقته منظمات حقوق الإنسان مثل اللجنة الوطنية ولجنة الكنائس والإرساليات التى نددت جميعها بقمع الشرطة والاعتقال وحالات التعذيب والمداهمات. أرادت إيفا ألونسو التعرف على الإرساليات الصديقة، التى تدعم المزارعين فى الجانب التقنى بين جوانب أخرى فاقتربت منهم وقدموها بدورهم إلى المهندس الزراعى الذى يعمل فى مشروع التأهيل الخاص بـ الاستخدام الرشيد للأراضى الزراعية.

قدم المهندس نفسه : إننى دانييل باريوس.

مدت يدها : إيفا ألونسو.

– تفضلى بالجلوس، كيف أستطيع مساعدتك ؟

– أولاً أتمنى ألا أكون قد قاطعت العمل.

– على الإطلاق.

– ثانيًا، أتساءل عمّا كنت تستطيع إمدادى بمعلومات عن التعاونيات الزراعية أو الشخص أو المجموعة المنوطة بذلك.

– إننى الشخص المعنى – أجابها دانييل مبرزًا ابتسامته – أعمل فى هذا الحقل منذ أربع سنوات مع المزارعين فى التعاونيات.

– إذن فأنت تعرف جيدًا...

– عن ظهر قلب. بدأت معهم منذ التأسيس. ومهمتى تأهيل المزارعين على زراعة الأرض.

– استيقظ فضولى منذ أن قرأت من أسبوعين فى الصحافة عن بيان لوزارة الداخلية...

– أضاف دانييل : بيان لا أصل له من الصحة.

– هذا ما بدا لى. حصلت على لقب محامية مؤخرًا، وفى آخر لقاء لى بطلاب من كليات أخرى تمت مناقشة الواقع الحالى للبلاد، وطُرح موضوع التعاونيات الزراعية. وفى أحد اللقاءات الطلابية تمت دعوة أحد القيادات، لا أتذكر اسمه تحديدًا، لم أستطع الحضور لأننى كنت مريضة.

– أعتقد لقبه، على ما أذكر فلوريس.

– نعم، رايموندو فلوريس، إنه قائد ممتاز. إننى أعمل حاليًا مع مجموعته فى منطقتهم الزراعية. أترغبين فى فنجان قهوة ؟

– إذا أمكن، لا أرغب فى إهدار وقتك...

– لقد حضرت لتستعلمى عن التعاونيات، وسوف ترحلين بعد أن تعرفى كل شىء.

– شكرًا جزيلاً.

واصلت إيفا الاستماع إليه بابتسامة فى عينيها وعلى شفتيها، فيما واصل دانييل الحديث عن التعاونيات الزراعية بالتفصيل منذ فكرة نشأتها منذ التبشير اليسوعى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وبعد ساعتين قالت إيفا : أعتقد أن هذا يكفى، لقد جعلت منى خبيرة.

– ستصبحين خبيرة بالفعل حين تتعرفين عليها من الداخل، فتتحدثين مع قيادات وما يفعلونه وتستمعى لطموحاتهم وآلاتهم.

– إننى أذهب أيام السبت صباحًا، وأحيانًا يومًا آخر، لو وافقك أن...

– إذا أعطيتنى رقم الهاتف...

– طبعًا... تفضل.

– سوف أحادثك يومًا عن هذه الأمور.

ابتسمت إيفا مجددًا، وألهبت ابتسامتها الغامضة قلب دانييل.

– هل بالإمكان اصطحاب صديق ؟

أجابها وكأنه يتنهد : بالطبع.

عاد المهندس الزراعى إلى مكتبه، ولكنه ليس الشخص الذى كان عليه منذ قليل، الساعتان السابقتان كانتا كافيتين ليشعر بشىء مثل شوكة نتأت فى قلبه. شىء يقلقه ولكن يدغدغ حواسه. بدلاً من مواصلة عمله، جعل يفكر فى الشىء الذى يشعر بهذه النشوة. نعم إنها جميلة، ولكنه عرف نساء كثيرات أكثر جمالاً، إلا أنه لم تتمكن واحدة منهن من إخضاع روحه على هذا النحو، وخاصة فى هذا الوقت القصير.

يتلهى بأن يسترجع ابتسامتها ونظراتها وكلماتها، وإيماءاتها، محاولاً إيجاد سر تلهفه على هذه المرأة التى ظهرت فجأة فى حياته. وربما لن يعاود رؤيتها مجددًا. لم تؤكد إذا ما كانت ستسافر معه، وإذا ما فعلت سيرافقها صديقها، ربما يكون خطيبها. يشعر أنه لوقت طويل سترافقه ذكراها السحرية المضيئة. ومنذ ذلك الحين يسأل كلما دخل المكتب إذا ما كانت قد أتته مكالمة تليفونية.

تجيبه السكرتيرة : هذا يلائمنى تمامًا.

أراد مواصلة الحديث غير أنه خشى أن يبدو ثقيل الظل. بالمثل لم يسألها إن كان صديقها سوف يرافقها، لا يرغب أن تسيء تفسير سؤاله. خاطب نفسه، "على كل محاط بالمعجبين وأن من بينهم الشخص الأثير".

ذهب دانييل باريوس يوم السبت فى تمام الساعة السابعة والنصف فى المكان المتفق عليه. رأى إيفا لأول وهلة وكانت بمفردها عند باب المنزل. اعتقد أنها ستطلب منه المرور على صديقها ولكنها لم تفعل.

وصلوا إلى "باريريتو" قبل انتصاف الظهيرة، وقضيا استراحة قصيرة فى فيا فلوريدا. نزلا بمنزل رايموندو فلوريس، وأصرت زوجته مارتينا على أن يتناولا معها طعام الغداء. بعد تناول الطعام أخذت إيفا تسأل عن تفاصيل إنجازاتهم والخطط الموضوعة للتعاونيات الزراعية المسيحية. بعد الأسئلة والملاحظات التى وجهتها أكدت اهتمامها بالمشروع الذى لم تكن على دراية بتفاصيله.

استمعت إلى المهندس الزراعى ثم زارت موقع "المدارس" التى حدثتها مارتينا عن طبيعتها بحماس شديد فقالت لها : "إنها الطريق الحقيقى ليسترد أطفالنا أنفسهم"، نطقت كلماتها بقناعة واضحة مصحوبة بأمل وحماس جديد، بدا الإخلاص الذى يأمل فى تغير اجتماعى أكيد تترسخ بذوره بثبات. أخذت تفكر فيما شاهدته خلال طريق العودة، وتعهدت فى العودة قريبًا "مع هذا السيد أو بمفردها"، نطقت جملتها الأخيرة بخفة غزت قلب دانييل باريوس فقال لنفسه "فليكن ذلك".

بعد أربعة أسابيع كررت الزيارة بصحبة دانييل. وحين وصلا إلى سان إجناثيو طلبت إليه أن يقلها إلى منزل مارتينا فى "باريريتو"، فبقيت برفقتها فيما ذهب دانييل مع رايموندو فلوريس إلى "كانياديتا". وحين مالت الشمس للغروب عاد المهندس مع رايموندو ليواصل رحلته إلى العاصمة مع إيفا ألونسو، غير أنه عاد بمفرده لأن إيفا أخبرته أنها ستبقى لتعيش فى "ميسونيس".

تكيفتُ على الفور. ساعدتنى إجادتى للغة الجوارانى التى اعتدنا الحديث بها فى المنزل، وتعرفى على شخصيات ممتازة مثل رايموندو فلوريس وزوجته مارتينا وديوينسيو

روخاس وزوجته إيسابل، ورامون سيجوبيا وزوجته كريستينا، إضافة إلى أشخاص آخرين أخذوا على عاتقهم كل يوم تقويض الحكومة والقضاء على الدكتاتورية. دعانى الزوجان أنطونيو ليثكانو ورافائيلا سانابريا للإقامة لديهما لكى أقوم بالإشراف على المدرسة التابعة للرابطة الزراعية بمنطقة "كانيابيتا". دربنى على العمل أحد القساوسة ومجموعة من أولياء الأمور والمعلمين، فيما بعد سأصبح أنا نفسى المدربة لهم بناء على طلب منهم. انصب اهتمامى ونشاطى على العمل فى المدرسة. اشتركت فى الاجتماعات المحلية ودعونى بعد ذلك إلى عقد اجتماعات بشكل جماعى على مستوى أكبر. رفيقتى الأولى فى كانيابيتا كانت راهبة كرسَّت نفسها منذ أكثر من عامين من أجل الآخرين. كانت تعمل مع الرجال والنساء والأطفال. علمَّت الجميع متخذة من نفسها مثالاً على العطاء والكرم والتضامن ونبذ الأنانية.

هى امرأة من هذا العالم، دخلته بثقة ورغبة فى الاندماج، أحبت أحد رجال القيادات التعاونية، رجل استثنائى أحب هذه المرأة الفريدة تحدى التقاليد وعاش حبه بكل جوارحه دون أية تعقيدات، ووجهًا لوجه. ثم حدث أن وقع عليها عذاب الأرض بأكمله حين فاجأوها بجثة الرجل الذى أحبته ممثلاً بها. كان قد اعتقل قبل أسبوع فى معتقل أبراهام كوى. اعتبرت القرية بأكملها أن اغتيال الشرطة له ليس إلا عقاب السماء من الرب الذى رفض هو نفسه ترديد اسمه. لا يسوقك الاعتقاد بأن الجميع قد تضامن. فالعديد من المزارعين لم يرغبوا فى معرفة أى شىء عن خطة العمل التى طُرحت من أجل عملهم اليومى: العيش كأخوة.

كيف كان ذلك ؟ آه، إن خبرتى الأولى فى هذا المجال كانت صباح يوم السبت. اجتمع ثلاثون شخصًا فى منزلنا بهدف تشكيل لجنة تتابع أمام الحكومة إعادة توطين عائلات كثيرة فى منطقة البارانا، ذلك أنه لم تعد هناك أراض للزراعة فى "ميسونيس". كنا نناقش الأمر حين داهم المكان بعض رجال الشرطة لإلقاء القبض على صاحب المنزل لأنه لم يستخرج تصريحًا للاجتماع. اقترح أحدهم استكمال الاجتماع أمام مقر الشرطة، وهو ما نفذناه بالفعل. انضم إلينا مائة شخص للمطالبة بالإفراج عن المعتقل وبالأرض ليزرعوها.

أصدر رئيس مركز الشرطة الأمر بتشغيل مكبرات الصوت وبث موسيقى هادرة طغت على صوت المتظاهرين. لم نتمكن من الحديث فجعلنا نغنى أغانى التعاونيات الزراعية

التى يغنيها الفلاحون أنفسهم. أذكر أن بعض الأبيات كانت بلغة الجواراني وترجمتها : فلنرفع سواعدنا فليعانق كل منا الآخر لأننا أشقاء دون أن نعرف كان طريقنا طويلاً وشاقًا وجدناه بمشقة وكانت هذه الفكرة الجميلة طافية منذ وقت طويل.

وبالحديث عن هذه الأغانى أتذكر مشهدًا ظل محفورًا فى ذاكرتى.

ذات صباح باكر مررت وبرفقتى ثلاثة من قيادات التعاونيات متشابكى الأيدى أمام اثنين من رجال الشرطة المسلحين. كانت هذه ظاهرة معتادة، لكن أن يغنى المعتقلون تلك الأغانى، فهذا هو ما لم يكن معتادًا. سرت برفقة زملائى وجعلت أغنى. أتذكر بعض جميل الأبيات :

قمنا لنصيح هو وقت الصحوة كثيرًا ما ظللنا نيامًا سنحطم معًا القيود التى كبلت أقدامنا.

أتذكر أيضًا يوم تمت دعوتنا من لجنتى "باريريتو" و "كانيادتيا"، لنحضرمواجهة مع الإدارة المحلية فى "سان خوان باوتيستا".

وكان ذلك من أجل الإفراج عن اثنين من أكثر القيادات المحبوبة وهما رايموندو فلوريس ورامون سيجوبيا. كنا حوالى ثلاثمائة شخص. أردنا الاقتراب قدر الإمكان من البوابة الرئيسية على أمل أن يلتفت إلينا المحافظ، إلا أن العديد من الجنود وقفوا فى صف طويل للحيلولة دون مرورنا شاهرين أسلحتهم صوبنا.

وفجأة فرق الصمت صوت امرأة اقتربت منهم وصاحت :

"اقتلونى أيضًا إذا ما كنتم ستقتلون إخوانكم". كانت أم أحد العساكر الذى يؤدى الخدمة الإلزامية. وقف الشاب زائغ العينين، وبدا وكأن بندقيته ستسقط من بين يديه. فى نفس هذه الليلة بعد أن تم تحرير قياداتنا، تحدثت إلى المرأة، أخبرتها برقة أنها قست على ابنها بشدة، بينما لم يفعل سوى تنفيذ الأوامر. اعتذرت لى، علمت بعد ذلك أنها فعلت نفس الشىء مع ابنها. وأدركت أن الجنود ضحايا مثلهم مثل المعتقلين.

أتذكر أيضًا فصولاً وضّاءة ولطيفة كانت تساعدنا فى مقاومة اللحظات الصعبة. وهكذا صرنا نخيط بالأبيض والأسود منظمتنا التى انضم إليها الآلاف. كان ذلك بلا شك

بفضل القيادات الذين صمدوا أمام قوتين : الأولى المحاولات الشيطانية لرجال السياسة وثانيها انتهاكات الحكومة. أراد السياسون إلهاءهم بالعطايا أو القمع فى حالات أخرى.

قلت لك إنــنى قد انضممتُ إلى التنظــيم الســياسى العســكرى بعد عام من التحاقى بـ التعاونيات الزراعية. وكلا التنظيمين كانا يدفعان إلى أهداف متشابهة وإن اختلفت طرق تحقيقها.

حققت التعاونيات نجاحات صغيرة، ولكن بمجهودات فائقة. وباتباع هذا الطريق الذى احتشدت فيه العقبات، كان من الصعوبة بمكان تحقيق إنجازات نافذة قادرة على تغيير مصير المزارعين. سيظلون يدفعون بالعربة هذا صحيح، ولكن مرهقين من حمولة كبيرة وبلا أمل أن تتغير الأوضاع. اعتقدت فى ذاك الحين، وما زلت على قناعتى حتى الآن، أن مشروع التنظيم السياسى العسكرى كان هو بديل الحكومة التى تشل جوانب البلاد، شللا حاولت أن تصدره تحت قناع كلمتين "السلام والتقدم". كنا على وعى بالخطر لكننا لم نجد حلاً آخر غير ما قمنا باختياره. لم يطل أى بصيص ضوء للتغيير فى ظل الأحزاب السياسية الأخرى لأنهم أنفسهم شكلوا جزءًا من المشكلة. هذا ما دفع بنا للبحث عن وسيلة أخرى، محاولة للهرب من هذا الوضع وطرق سبيل آخر.

ما حدث بعد ذلك أننا سقطنا فى أيدى الشرطة ودُفن حلمنا فى دِلال الماء حيث غطسوا رؤوسنا والتعذيب بالكهرباء، وسجن "إمبوسكادا"، وحالات الاختفاء والنفى. حاربت الحكومة نياتنا وليست أفعالنا. وبمرور الوقت قصفت التعاونيات الزراعية لتبيدها عن آخرها.

متى اعتقلونى؟ يوم السبت المقدس فى أسونثيون منذ يوم الأربعاء لأرافق والدىّ فلم يكن بمقدورهما الانتقال إلى "ميسونيس" مثلما خططا. وحين جلست إلى المائدة هبت رياح سوداء حركت ستارة حجرة الطعام، فى تلك اللحظة هاتفنى أحد أعضاء التنظيم ليخبرنى أن شيئًا ما يجرى بمنزل لويسون، وأن علينا الذهاب للتحقق وأنه سيمر على برفقة ناشط آخر. لم نكن قد استخدمنا الهاتف منذ أسابيع تحسبًا لأن يكون مراقبًا من الشرطة. فلم نتمكن من الاتصال. حين ذهبنا إلى المنزل، قمنا بجولة حوله من بعيد. لم نلحظ شيئًا غريبًا فقررنا العودة مرة أخرى ودخول المنزل. فى تلك اللحظة ظهرت فرقة غاضبة من الشرطة

المدنية وساقتنا بعنف إلى سيارة الشرطة. كنا أربعة، وأنا المرأة الوحيدة بدأ الضرب بعنف لحظة دخولنا قسم التحقيقات. قال أحدهم، وبدا أنه الرئيس: إنه كان بانتظارنا "المزيد من الإرهابيين". بمجرد أن تم إلقاؤنا بالفناء شاهدنا زملاءنا من التنظيم السياسى والتعاونيات ملقين على الأرض ينزفون، يتلوى بعضهم من الألم، وآخرون شبه موتى أو فاقدون للوعى. رأيتُ نفسى فى كل واحد منهم. لم أشك لحظة أننى سأتعرض لنفس العذاب بعد دقائق أو ساعات. قدرى الأكيد سيكون مثل زملائى الملقين على الأرض. كنا قد تدربنا على مواجهة مواقف مماثلة، إلا أنه فى ظل مشهد الألم فى هذه الحقيقة الصارخة أول ما يختفى ويموت.

وصلنا إلى هذا الموقف فالنظرية هى نتيجة سلسلة متتالية من الإهمال. جميع إجراءات الاحتراز التى تدربنا عليها حتى فى أحلامنا، لم تخدمنا فى شىء. لم يعرف أحد أن "بلاس أرثامنديا" قد تم إلقاء القبض عليه منذ ثلاثة أو أربعة أيام فى مقر التحقيقات. الفضل يرجع إلى "بلاس" فى تضليل الشرطة فى الفترة الماضية وعدم التعجيل بالإيقاع بنا، كان مسئولاً عن وثائق التنظيم، وتلاعب فيها بالقدر الذى سمح بتضليل الشرطة. قضى المعذبون على بلاس بعد أن أوسعوه سخرية بشأن التنظيم السياسى العسكرى.

أشرقت الشمس يوم السبت، ولم نكن قد عرفنا بعد أنهم قتلوا لويسون واعتقلوا رفيقه وزوجته اللذين كانا برفقته، قتلوا الرفيق فى مقر التحقيقات. بعد انقضاء ثلاثة أشهر تحت وطأة التعذيب ثم ترحيلنا إلى سجن "إمبوسكادا" بافتراض أننا تحت تصرف العدالة. صدر بحقنا حكم بالسجن ثمانية عشر شهرًا، تم الإفراج عنا بعد انقضائها... حسنًا، أذكر ذلك على سبيل القول وحسب. لقد طردونى إلى الأرجنتين، والتى جئت منها إلى ممن لم يحالفهم الحظ فترة أطول فى السجن امتدت لستة أشهر. طُبقت عليهم فقرة فى الدستور تقضى بأن رئيس الجمهورية لديه الحيثية ليقرر مصيرهم، وبناء على هذا، استمر اعتقال آخرين لفترة تجاوزت عشرين عامًا. والآن أجد نفسى هنا فى مواجهة موقف غاية فى التعقيد. سألت نفسى منذ عشر سنوات : ماذا سأفعل هنا ؟

والآن أسأل نفسى، ماذا سأفعل هناك ؟ هنا بيتى وفى باراجواى لدى منزل. أستطيع جعل منزلى هناك بيتًا وسكنًا لى، ولكن سيكون علىَّ أن أحفر من الجذور. ليس من السهل أن يرجع الإنسان طريقًا قطعه حتى وإن عرف أن حسن الطالع بانتظاره هناك. بالأمس

غمرتنى السعادة بحلم الرجوع إلى باراجواى، كثيرًا ما حلمت بذلك على مدار ليال طويلة لم يغفل لى جفن وينهشنى الحنين إلى العودة.

إلا أننى أستيقظت اليوم وأنا أوجه لنفسى أسئلة لم يخطر ببالى أبدًا أننى سأوجهها لنفسى يومًا ما. وماذا عن ولدى، أحدهما فى الخامسة والآخر فى الثالثة، هل لدى الحق أن أحرمهما من مستوى تعليم لن يحصلا عليه أبدًا فى بلادى ؟ الأمرلا يقتصر فقط على المدرسة والجامعة والمعهد، فكل شىء هنا يجعلنا نشعر أننا بشر ويدفعنا إلى مستوى أكثر رفعة. نعم، ولكن ماذا عن الوطن الذى سكبنا دموعنا من أجله ؟ هل تكفى الراحة والرخاء الذى نشعر به هنا لننسى الدماء والبكاء المبذولين، ننسى الحب والألم ؟ شعرت بمعاناة شديدة مثل بقية الضحايا، ولكننى أنا وقع على عاتقى حمل أكبر. إنها أمور تقبع فى قلبى وسأحتفظ بها لنفسى.

بعد حوالى ساعة من تلقى إيفا المكالمة التليفونية، قابلت دانييل باريوس فى الكافيتريا التى اختارها. جلس المهندس الزراعى قبل الموعد بقرابة خمس عشرة أو عشرين دقيقة فى موضع يتيح له رؤية من يدخل المكان. وأفقدته لهفته إحساسه بعامل الوقت. اعتقد أنه تجاوز الساعة المتفق عليها وقال فى نفسه : "أتكون قد ندمت على اللقاء، أو ربما هو الزحام المرورى؟ لماذا لم أعرض عليها اصطحابها من المنزل ؟ كان لدى إحساس أننى أتسرع إذا ما عرضت عليها ذلك، نعم، هذا هو، لم أرغب أن أجشمها عناء الرفض". ظل فريسة لأفكاره إلى أن رآها أمام الباب تحييه بذراع مرفوعة. حاول دانييل أن يتماسك ويظهر بحضور رصين كأنه غير مهتم، إلا أن إيفا استطاعت ملاحظة محاولته المبذولة ليدارى ارتباكه الذى فاض وظهر.

– سألها وهو يجلس : كيف حالك.

– بخير، كنت فى اجتماع مع بعض الأصدقاء. وأنت كيف تسير أمورك؟

– أحيانًا تصدر تعقيدات فى العمل هنا فى المكتب، ولكنه أمر طبيعى نظرًا لطبيعة العمل نفسها.

نطق دانييل بعبارته وهو متوتر قليلاً. طلب الاثنان قهوة باللبن الساخن. وتجنب الاثنان الحديث عن التعاونيات بشكل تلقائى، لأنه لم يجد جديدا بشأنها، كما أنه لاعلاقة لها بلقائهما، هناك هدف لم يتم التصريح به لكنه يخيم على حضورهما.

تعرف أحدهما على الآخر منذ عامين وتبادلا الإعجاب بشأن ما يقوم به كل منهما بحماس، وتضامن وتنافسية إيجابية، لكنهما غريبان فيما يخص الشأن الشخصى لكليهما. فمعرفة كل منهما عن الآخر مستمدة من معارف مشتركين لهما.

خلال منعطف الحديث فى مواقف عدة، رغب دانييل أن يزج بالتعليق الذى ذكره رايموندو فلوريس بشأن عمره، وأن الوقت حان ليتزوج بها متناسيًا الملفات التى وضعها على المقعد إلى جواره. سيخبرها فيما يشبه المزحة، ويتصنع الضحك، لكنه عدل عن قراره فى اللحظة الأخيرة خشية أن تتضايق وتعتقد أنها طريقة ماكرة يعبر بها عن حبه. هل يعرب لها عن حبه؟ ولا ؟ ألم يتردد منذ وقت طويل ليعرج لها ؟ لماذا يتردد الآن إذا كانت اللحظة مواتية ؟ إذا انتظر لقاء آخر سيكون مثله مثل لقاء اليوم. أخذ يفكر، ما أجملها. هل رداؤها هذا جديد ؟ هل غيرت طريقة تصفيف شعرها ؟ هل هاتان الشفتان والعينان جديدتان؟ هل سبق ورأيتها توجه لى هذه النظرة ؟ أهى جديدة أيضًا ؟ أعتقد أن الشىء الوحيد الذى أراه بلا تغير هو ابتسامتها. حسنًا، هل استشعرت أننى سأعترف لها بحبى ؟ هل تنتظر أن أفتح لها قلبى ؟ يا إلهى، أشعر باضطراب هائل. ما هذه الأشياء التى تعصف بذهنى ؟ أين الإشارة لأن قلبها مثلى ينتظر المكاشفة ؟ سأترك الأمر لمناسبة أخرى. إذا قبلت دعوتى لها مرة أخرى، فمعنى ذلك أنها تتقبلنى، حينها ستتبدد هذه الشكوك التى تبعث فى نفسى الأسى واليأس وفجأة، نطقت بشىء أعجب إيفا جدًا. وحين رأيت ضحكتها وقد رفعت ذقنها قليلاً واضعة يدها على رأسها، فيما تنظر إليه، انطلقت من فيه هذه الجملة : أرغب فى طلب الزواج منك ؟

لفظ عبارته وشحب وجهه لكنه شعر بحمل ثقيل يسقط عن كاهله.

- لكن، إننا حتى...

- أعرف ما ستقولينه.

– إذن ؟

سألته دون أن تغضب أو تطلب إليه أن يذهب إلى الجحيم أو حتى وقفت لتغادر.

– إذن ؟

سألها بدوره وقد اجتاز مرحلة الشحوب إلى إحمرار الوجه وقال : إذن سيكون عليك أن تخبرينى بالرفض أو الإيجاب!

– أليس من الممكن قول فلنر ! لا أعرف ماذا أقول ؟

– أتفهم تفاجؤك وطلب إجابتك بهذه السرعة، لكننى أؤكد لك أن الأمر ليس مخططًا له، لم أقم بدعوتك بنية قول ذلك، لقد انزلقت العبارة رغمًا عنى. كيف أفكر أو أحلم، أو لا أدر بالضبط ماذا أقول، ولكن ها قد قمت بالأمر، وأزحت عن كاهلى هذا العبء.

– وهل تشعر براحة ؟

– نعم، أشعر بخفة.

– وأنا، هل فكرت فى ؟ هل خطر ببالك أن... ؟

تنبه دانييل شاعرًا بقلق نتيجة لتصرفه وقال لها يائسًا وهو يبحث عن كلمات مناسبة:

– المعذرة، الأمر أن... لا أعرف ماذا أفعل ؟ تكون لدى هذا الشعور منذ وقت... ليس مجرد انفجار عاطفى لحظى، أهوج ولكنها عاطفة أخذت تنمو...

– يكفى ذلك أرجوك.

بدا صوتها عطوفًا بلا أدنى شعرة غضب، إلا أنها شرعت تتحدث عن تلاميذها، وعن المهرجانات الفولكلورية واللافتات التى كانوا يعلقونها فى كليهما. وبينما تتحدث، يطلب منها دانييل أن تذكر له تفصيلة ما، ربما ليتحقق من وجوده، بالرغم أن الموضوعات لا تحظى باهتمامه. فذهنه مشغول تمامًا بفك طلاسم المناورة التى تقوم بها بحمله إلى موضوعات أخرى. وفجأة سمع جملتها التى لم ينتظرها : يجب أن أذهب.

– أجابها دانييل بنبرة رقيقة تبدو فيها رغبته فى بقائها : طبعًا.

– ثم أضافت، بابتسامتها التى أضاءت المكان : إن لم يكن ذلك يضايقك؛

بينما تشاهد التليفزيون فى المنزل، أو ربما اعتقدت أنها تشاهده، جعلت إيفا تفكر أى شيطان دعاها لتتظاهر بشىء يناقض رغبتها الحقيقية. سحبت يدها مرتين حين احتكت يد دانييل بها وكأنه لا يقصد ذلك. وتساءلت لماذا تجاهلت دعوة الزواج بها بدلاً من مواجهتها بالنضج الواجب اتباعه، هذا النضج الذى تنتهجه فى التعامل فى القضايا الاجتماعية والسياسية. تعزت قائلة لنفسها :"ستكون لدى المناسبة المواتية لأصلح الوضع وأرتب أوراقى". وأتت الفرصة بعد مضى أسبوعين فى "سان إجناثيو"، فى أمسية يوم سبت.

اصطحبها دانييل إلى منزلها، بعد أن قاما بمراجعة الأنشطة، ففتح المهندس موضوع الزواج مجددًا. أجابته إيفا باحترام كامل : أفكر فى الموضوع.

تشجع دانييل هذه المرة بموقف صديقته الجديد وقال: أرجو ألا يطول التفكير. أعرفك وتعرفيننى منذ وقت طويل، بالرغم من أن مقابلاتنا محدودة، ولكن ليس هذا بمهم، لأن أصدقاءنا المشتركين لا يكفون عن الحديث عن الأنباء الطيبة بشأننا وأكثر من بالغ فى اعتقاده صديقنا رايموندو فلوريس.

– أهو من أوحى إليك بالفكرة ؟

– لا، سلوكى تجاهك هو ما أوحى له بذلك وجعله يشعر بإحساسى نحوك وكيف بدا أننى أخفيه.

– نعم، لدينا أصدقاء يتحدثون عنا بكل خير. إذن أنت تعرف أن لدىَّ ما أعتدت تسميته أنا "شبه خطيبى".

– نعم أعرف، ولكن "شبه خطيب" لا يعنى أنه خطيب بالفعل، إنه ليس بوثاق يُصعب حله، وإذا كان معقودًا فلا شىء يحول دون التخلص منه.

– لا شك فى ذلك، ولكننى تركته يتعلق بى.

– وهل تعلقت به بالمقابل ؟

– لا تسألنى.

– على كل حال إننا نتحدث عنا نحن الاثنين.

– ولكن هناك شخصًا ثالثًا.

– فعلاً ؟

– أدين له بأجمل لحظات حياتى. وشعورى بأننى شخص مرغوب فيه يرجع إليه. سأرى كيف سأتمكن من الخروج من هذا المأزق ولنتحدث يوم السبت المقبل. ما رأيك ؟

بعد انتهاء الحديث، توجهت إيفا موراليس للقاء بعض الرفقاء فى مطعم بيتزا قريب فى شارع باسكالاجاتان تحدثوا بشأن الأوضاع الجديدة فى البلاد بناء على معلومات كثيرة وصلت إليهم عن طريق مكالمات هاتفية من أسونثيون. وصل الجميع فى الساعة المحددة وعلى رأسهم خمسة من لجنة "الأمريكيين اللاتينيين"، والتى تأسست لمساعدة المنفيين والتنديد بالممارسات الدكتاتورية للحكومة التى طردتهم من البلاد. أبدوا جميعًا سعادتهم لإمكانية العودة إلى بلادهم، علمًا بأنهم يدركون حجم المشقة لكى يتحقق ذلك.

يعرفون أن البعض سيتعرض لكسر وحدة عائلته، وهو نفس ما تعرضوا له حين غادروا بلادهم الأم. على كل الأحوال فإنهم يعيشون هذا اليوم السعيد التالى لحلم قد تحقق. حتى إن البعض يحكى تجربة سجنه واعتقاله من قبل الشرطة بنبرة احتفال، ما عدا اليوم الذى اعتقدوا فيه أنهم لن يخرجوا أحياء من ذاك المكان. بينما يتذكرون الفصول الماضية لكل منهم، تتذكر إيفا ألونسو ذاك اليوم الذى حرقوا فيه روحها.

قبل حلول يوم السبت المقرر لمناقشة موضوع الزواج، اجتمعت إيفا فى منزل أسونثيون بالطبيب بعد أن هاتفته تليفونيًا وأخبرته : "أريد التحدث معك منتصف هذا الأسبوع". كانت نبرة صوتها حنونة وطبيعية، غير أن صديقها - مثلما حكوا لها بعد ذلك - شعر بقلق بالغ وبأن هناك أمرًا مهمًا. ما هو الأمر العاجل، إلا إذا كان أمرًا خطيرًا ؟ ربما شيء يخص علاقتنا ؟ ربما، لأننا أراها منذ فترة وكأنها غائبة.

أرادت إيفا ألونسو أن تجتث الشوكة التى تؤلمها دون توقف. فعلى الرغم من أن علاقتها بالطبيب ليست ملزمة أو رسمية لكنها ترى أنها ملزمة بوضع نهاية لها. وجدت الطبيب قلقًا وتبدو عليه علامات العصبية التى لم يستطع أن يسيطر عليها، وهو ما ينبؤها بأنه استشعر سبب اللقاء. لا ترغب أن تسبب له أى أذى لصدق مشاعره نحوها. اختارت كلماتها كأحسن ما يكون وأخبرته أنها عازمة على الزواج، بالرغم من ذلك فليست هناك كلمات قادرة على تخفيف وطأة ألم القلب لمحب انتظر لنفسه ما يكافئ حبه.

- لم أعرف أنك كنت مخطوبة؟

- لست مخطوبة!

- ولكنك تقولين أنك ستتزوجين.

- هذا هو.

- لا أفهم!

قالت له : الأمر يستحق الشرح. فأنا نفسى لم أفهم الأمر تمامًا عندما تقابلنا المرة الأولى، قررنا فى لقائنا الأخير فقط، حين أخبرنى برغبته فى الزواج منى. بعد ذلك توجهت إلى البيت، وتضاربت مشاعرى ما بين الغضب والدهشة والإعجاب، انتهت إلى أننى أيضًا... منذ وقت طويل حين التقينا...

قاطعها الطبيب : هذا ما توقعته. منذ فترة ليست بقصيرة وأنت تذكرينه بسبب وبغير سبب.

قام وتوجه إلى الباب قائلاً : حسنًا!

– هل أرافقك؟

– وقف الطبيب وقال: لا، الأمر ليس جيدًا !

– بالنسبة لى هو كذلك.

– وماذا عنى ؟

– كان على الاختيار.

– وبالطبع قد اخترتى.

– نعم.

سألها الطبيب بنبرة بين الغضب والألم : أليست أنانية مفرطة ؟ إنك تستحقين مشاعر من تريدين فقط لإرضاء أهوائك.

– سيكون من الأسوأ أن أقسم حياتى نصفين بسبب الوفاء لهذه المشاعر. لن أقدر على التحمل.

أول من علم بنبأ زواجهما بعد الأقارب، كان رايموندو فلوريس وزوجته مارتينا، وبعدهما ديوينيسيو روخاس وإيسابل، ثم رامون سيجوبيا وكريستينا، وجميع أصدقائهم فى باريريتو.

– أخبرهما رامون سيجوبيا : كنت أحب أن أفعل مثلكما، أتزوج أولاً، ثم أمر بفترة الخطوبة ثانيًا، كنت لأتجنب وقتها النهاية العاصفة اللذيذة لخطبة طويلة غير أكيدة.

– أجابته كريستينا محذرة بأصبعها : ولكن الأمر انتهى نهاية سعيدة.

وبعد أن فحصوا النتيجة فحصًا دقيقًا وحددوا يوم الزفاف ليكون خلال ثلاثة أشهر، السبت الأول من أسبوع الآلام المقدس فى كنيسة سان إجناثيو. قررا أن يكون احتفالاً بسيطًا بوجود مدعويهم الأقربين، ثم يتوجهان لقضاء بضعة أيام فى "التيرول" بمنطقة إيتابوا. استأجروا منزلاً فى سان خوسيه لمتابعة أنشطتهم، واستقبال الأطفال القادمين

من المدرسة التى تشرف عليها إيفا، ومثلها دانييل باريوس الذى يواصل معها كل أنشطته فى التعاونيات الزراعية المسيحية، وكان من بينها تنظيم التظاهرات الدورية التى أخذت تتزايد يومًا بعد يوم أمام مقار الشرطة للتنديد والمطالبة بإطلاق سراح المعتقلين. ولسبب لم يفهموه، شددت الشرطة الإجراءات المتعسفة ضد المزارعين المنتمين للتعاونيات.

عملت أجهزة الدولة على نشر الخطاب المندد بخطورة التعاونيات الزراعية، داعيًا المواطنين إلى اتخاذ موقف معادٍ لها، قلة قليلة من المعارضة تمكنت من إدانة الحملة التى شنتها الحكومة. يتوقعون مزيدًا من القمع فى أقرب مناسبة، وسيتحقق ذلك بركوب موجة من الرياح السوداء. من جانب آخر، زادت مشاعر الحب – إن كان يمكن لها أن تزيد عما هى عليه – ما بين إيفا ودانييل، وانتظر بشوق اللحظة التى ستربط بينهما إلى الأبد، أصبحا وكأنهما وحدة واحدة. وبحلول أسبوع الآلام المقدس، يقرران مواصلة العمل حتى يوم الأربعاء، ويقرران أن يفعلا شيئًا مختلفًا، إذ يعتزمان السفر إلى أسونثيون بقية الأسبوع من نصائح أصدقائهم لهم باللقاء فى ميسونيس. مرا على باريريتو ليقدما التحية على شاهدى زفافهما : رايموندو فلوريس، ورامون سيجوبيا وديونيسيو روخاس وزوجاتهم. وجدوهم فى الكنيسة مشغولين لتجهيزات احتفال قداس الخميس المقدس بأغنية "عيد فصح سعيد"، يتعانقون بشدة على وعد اللقاء يوم الاثنين.

حين يصعدان إلى السيارة، رامون سيجوبيا لـ دانييل : "سوف أبتهل أن تتحمل الجلجلة"، فأجابته إيفا ألونسو : "الجلبة ستكون من أجلى". انطلق الخطيبان وقد أطلقا ضحكة كبيرة فيما يتصاعد غبار الطريق الأحمر فى الطريق السريع. وبعد أن تركها دانييل فى المنزل أربع ساعات، دعاها ليتقابلا يوم السبت على الغداء.

داهمت سيارة الشرطة منزل لويسون يوم السبت فى الواحدة فجرًا وسمع دوى طلقات الرصاص العنيف. كان قد توجه إلى فراشه يملؤه القلق الذى يلازمه منذ أيام بسبب ندرة الأخبار عن رفيقه بلاس أرثامنديا. سيحاول الاتصال صباحًا بـ بوينوس أيرس. إن لم يتمكن من محادثته سيحاول التواصل مع أصدقائه المقربين. يحاول التهوين على نفسه، يفكر فى أدواته الخاصة بشأن الاحتياطيات حين يستشعر أجواء الخطر "حين تفوح رائحة ما"، وهو ما يقوله فى تلك الأجواء. اعتكف فى حجرة نومه، بعد ذلك بقليل استيقظ على أصوات ضوضاء اعتقدها خاصة بالجوار. شعر بالقلق حين أدرك أن أحدهم

يزعزع الباب، قفز إلى جوار النافذة فوجد مجموعة من الجنود المسلحين يقتحمون حجرته وعلى وشك إطلاق النار.

سمع على الفور اندفاع الشرطة، حاول الهرب فيما يطلق النار من مسدسه، يحاول الهرب بأقصى سرعة ليختبئ بأحد منازل الجيران، إلا أن رصاصة تعاجله فى رأسه فيسقط جريحًا مضرجًا فى دمائه. تضاربت الأقوال التى أدلى بها بعض أعضاء التنظيم ظهيرة ذاك اليوم. ولم يصدر بيان رسمى. سادت رغبة فى التعتيم أن المتورطين حاولوا الهروب من كمين اكتشفه رجال الشرطة بالصدفة. فأولوه عناية خاصة.

نسقت التحقيقات عملها مع الاستخبارات العسكرية ووزارة الداخلية. ومع كل كشف جديد على ضوء الوثائق التى عُثر عليها واعترافات بلاس أرثامنديا يتم إعداد تقرير مباشر لرئيس الجمهورية الذى يشدد بدوره على إجراءات سريعة وحملة اعتقالات موسعة.

فجأة ظهر أربعة من عناصر الشرطة المدنية، أحاطوا بالسيارة المتوقفة أمام منزل لويسيون. يأمرون الجميع بالترجل عن السيارة وهم إيفا وثلاثة آخرون، يأمرون بأن يضع كل منهم ذراعه خلف عنقه وأن يستلقوا على الأرض، ثم يتم الزج بهم فى شاحنة تغادر المكان فى الحال. أغلقت المنازل والمتاجر أبوابها ونوافذها.

فقط يمكن التكهن بوجود أصحابها خلف النوافذ وقد أخرسهم الفزع، فى انتظار أنباء عمّا جرى، أثناء ذلك شاعت فى الحى التكهنات. شاهد أحدهم صبى الجرائد يتم إلقاء القبض عليه حين ترك الصحيفة أمام المنزل الذى تمت مداهمته، وشاهد أيضًا أحد المدرسات التى تسكن بالشارع تجرى بسرعة لتحتمى ببيتها. لا يسمع غير أصوات تدل على الحياة عن بُعد مثل أبواق السيارات، ونباح الكلاب ولا شيء عدا ذلك سوى الصمت الموحش.

توقفت عربة الشرطة أمام مقر التحقيقات فيما تدوى صفارة الإنذار كصرخات تطلب الغوث. يبدو ذلك لبث الرعب فى قلوب المواطنين أكثر من إفساح الطريق، للتذكرة بأن الشرطة موجودة فى كل مكان وفى أية لحظة. وبمرور الوقت، كان على المواطنين أن يرهفوا السمع للتمييز بين صوت عربة الإسعاف والشرطة والمطافئ. يتم الدفع بالمعتقلين الأربعة إلى ممر ضيق يتلقون الأمر بالجلوس على مقعد خشبى والتزام الصمت التام.

وبعد قرابة ساعة يساقون إلى مكتب فيلتقطون لهم صورًا فوتوغرافية ويسجلون البيانات الشخصية والمهنية والأيديولوجية بعد تسجيل بصماتهم على كروت، يعودون إلى المقعد الخشبى مرة ثانية. بعد مرور ساعتين، يتم الإلقاء بالذكور إلى الفناء مدفوعين بلكمات لا قبل لهم بها من بيلوتو. فيما بقيت إيفا بمفردها. ضاعفت الوحدة من خوفها، فضلاً عن صرخات الألم الصادرة عن كل مكان حولها. حاولت تمييز أصوات رفقائها، ولكن يصعب عليها لهول الصرخات المنبعثة. تهدأ قليلاً حين تتراجع الصرخات لدقائق. إلا أنها عادت تدوى أكثر حدة. أخذت تصلى من أجل رفاقها ومن أجل نفسها. تحاول جاهدة الصلاة، لكنها غير قادرة على المواصلة. اهتمامها منصب بالكامل على الفناء وزملائها فى التعاونيات الزراعية. تلتهب حواسها حين تسمع صرخة ألم طويلة تبدو لأمرأة شابة. مر أمامها فى طريقه إلى الفناء رجل متوسط العمر، يرتدى سترة بيضاء ويحمل حقيبة وسماعة طبيب معلقة فى عنقه. تفكر إيفا حين تتأمل مشيته المزهقة أن المريض لا يهمه فى كل الأحوال. لم تعرف كم من الوقت مضى حين ظهر أمامها ضابط وطلب إليها أن تتبعه. تركها فى حجرة مغلقة على مسيرة خطوات من المكان الذى كانت فيه.

بعد دقائق بدت طويلة دخل شاب فى حوالى الثلاثين من عمره، يرتدى كنزة صوفية ورابطة عنق، مملوء الجسد ولطيف الوجه. يطلب من إيفا الجلوس قبالة المكتب.

قدم نفسه :– أدعى بيثنتى توراليس، محام لست من رجال الشرطة. لدى أصدقاء هنا فى التحقيقات وأزورهم من وقت لآخر لأسباب تتعلق بالعمل. الرئيس يريد التحدث إليك لكنه مشغول للغاية، طلب إلى أن أطرح عليك بعض النصائح التى ستكون ذات نفع كبير لك وشأنها الحيلولة دون وقوع أشياء خطيرة.

– تفضل.

– انظرى يا آنستى...

– إيفا ألونسو.

– إيفا، أى حواء، إنها الأم الأولى التى انحدرنا جميعًا منها.

كسى وجه إيفا تعبير أبعد ما يكون عن الابتسام، وهو ما بدا له سوقية مغلفة بظرف مصطنع.

واصل من يدعى أنه محام : إنك تعرفين سبب وجودك هنا.

– لم يخبرنى أحد أى شىء.

– هذا مجرد إجراء شكلى. أنت تعرفين لماذا أتوا بك هنا، تعرفين تمام المعرفة. إن لم تكونى قد عرفتيه فى المنزل الذى كان ينام فيه رئيسك فستعرفينه هنا جيدًا. هناك وثائق وشواهد أخرى فى حيازة الشرطة تجرمك بشدة. أنصحك ألا تخفى شيئًا حين يخضعونك للتحقيق. تعاونى معهم وسوف تتم معاملتك بشكل جيد، فذلك سيجبر الآخرين على الاعتراف.

– سأقول كل ما أعرفه.

– عن التنظيم السياسى العسكرى والتعاونيات الزراعية.

– نعم، بالطبع.

– يعجبنى ذكاؤك، وهو ما يجعلنى أتساءل، ما الذى زج بك فى هذا الطريق الخطر. التآمر لإسقاط الحكومة.

– ليست أية حكومة.

– اتفق معك أن الديمقراطية هى الطريق الأمثل ولكن ليس من خلال هذا الأسلوب. آنستى، العنف ليس هو الحل للتعبير عن المطالب، حتى إذا كانت مشروعة من عدمها.

– العنف، لو سمحت لى...

– تفضلى.

– العنف يأتى من الحكومة. نحن لا نمارس العنف، إنما نتجاوب أو ربما نرغب فى الرد على هذا العنف.

– والمزيد من العنف هل سيجعل الحكومة... ؟

– لكى ينتهى العنف تمامًا ونتمكن من العيش فى سلام.

– السلام يفيض لدينا، انظرى حال البلاد المجاورة لنا.

الشعب هنا لديه الحرية ويحتشد كل خمس سنوات للتصويت واختيار الحكومة التى يرغب بها.

– لو سمحت لى...

– تفضلى.

– هذه الانتخابات لا تعنى شيئًا. إذا كانت نظيفة ونزيهة وحرة، فإن الشعب سوف يشارك بوعى أكبر والتزام واضح وبإحساس بالوطنية. أحب قول أشياء أخرى...

– تفضلى.

– لا شك أن كل كلمة أقولها سوف تضعف موقفى، لا أعتقد أن حضرتك محام. أرى فيك رجل الشرطة من أعلى رأسك لأخمص قدميك.

– ستعرفين رجل الشرطة وقت التحقيق. لن يكون مثلى، لن يتحدث إليك كما أفعل أو يستمع إليك مثلى الآن.

– أفترض ذلك.

تحدث الرجل الذى يدعى أنه محام وبعد صمت مدروس : بالطبع، لا تعرفين أنت أو زملاؤك شيئًا عن تدخل الشرط الذى بدأ بالفعل يوم الثلاثاء الماضى. بعد ثلاثة أيام وتحديدًا أمس الجمعة بدأت الاعتقالات. كان الهدف من التأخير ضمان عدم هروب أى شخص. تم تأمين الحدود كأحسن ما يكون، وتم التعرف على القيادات الأساسية. لم يتم القبض عليهم على الفور لأنهم تظاهروا بعدم معرفة همزات الوصل بين التنظيم السياسى والإرهابيين الأرجنتينيين. لفت انتباهى التحاق أفراد ذوى قدرة هائلة وتدريب متطور، لكنهم أغفلوا أهم شىء فى مثل هذه التنظيمات : الاحتياطات الأمنية.

انظرى، لقد سقط واحد، ويتبعه الآخرون جميعهم.

-أجابت إيفا : لا أعلم، ما هى الفكرة التى تكونت لدى الشرطة عن التنظيم السياسى العسكرى؟

- قاطعها المحامى : وماذا عن التعاونيات الزراعية ؟

- لا نشكل خطرًا على الحكومة.

- ربما اليوم، ولكن لو أتيحت لكم الفرصة لتتوسعوا... إن جهاز شرطتنا وقائى، قبل أى شىء. أمر يثير فضولى... منذ متى التحقتى بالتنظيم السياسى العسكرى ؟

- منذ وقت قليل.

- وخطيبك ؟

- تجمدت إيفا ألونسو، لم يخطر ببالها أنهم سيذكرونه.أجابت مرتعدة : هو ليس عضوًا فى التنظيم.

- لكنه يخبرنا بالعكس، أنه هو العضو فى التنظيم وليس أنت.

- إنه يكذب لينقذنى.

- أو تكذبين أنت لتنقذيه. أو كلاكما يكذب. على كل حال ستتضح الأمور. فبعد السيطرة على الأمر لن تكون هناك مشاكل. تستطيعين الخروج إلى الممر. أكرر مرة ثانية، التزمى بما أقول لأن ذلك فى مصلحتك.

لمحت إيفا ألونسو الطبيب وهى فى طريقها للخروج من المبنى بنفس الخطوات المتكاسلة غير العابئة. فى تلك اللحظة لم تعد تسمع الصرخات التى أرعبتها. ترتعش حين تتخيل نفسها فى هذه الزنزانة، ولكن أكثر ما يحزنها أن يتعرض خطيبها لهذا التعذيب دون أى ذنب.

تتساءل فى نفسها "تُرى متى تم الزج به؟ حينما كنت هنا أم قبل ذلك ؟ إنه حتى لا يعرف ما هو التنظيم السياسى العسكرى، اليوم فقط فكرتُ أن أصارحه خلال لقائنا، لكن..."، تسمعهم ينادون اسمه فتنتفض واقفة.

تقع قرية إمبوسكادا على بعد خمسة وأربعين كيلو شمال العاصمة أسونثيون. كان اسمها الأصلى فى القرن الثامن عشر النمور الأحرار فى إمبوسكادا، وذلك لأن أغلب سكانها كانوا من الأفارقة ومن اختلطوا معهم، وتقع على بعد كيلو متر واحد من نهر باراجواى، وكانت وظيفتهم الأساسية التصدى للسكان الأصليين وقمع حملاتهم فى منطقة الشاكو. وعلى بعد أربعة كيلو مترات من القرية، شُيد مبنى من الحجار يبرز منه برجان للمراقبة كان يستخدم لأهداف عسكرية فى القرن التاسع عشر.

وبالمثل استخدم كمعتقل للسجناء السياسيين خلال حقبة دكتاتورية بـ دكتاتور فرنسا وحكومته التالية حتى عام ١٩٠٨، وأغلق فى أعقاب حركة تمرد للمساجين أجبرت السلطات على ذلك. وتم فتحه بعد مرور ثلاثين عامًا كمدرسة إصلاح وتأهيل للصغار، يتعلمون فيه الحرف والفنون. ثم سيطلق عليه مركز التعليم فى إمبوسكادا حتى عام ١٩٧٦، بعدها نُقل الثلاثون الذين بقوا فيه إلى إصلاحية "بانشيتو لوبيث".

ظل معتقل بامبوسكادا مغلقًا فترة قصيرة جدًا. الوقت اللازم فقط لصيانته وتجديده، تم تخصيصه للسجناء السياسيين فى حقبة الدكتاتور ألفريدو إستروسنر.

وفى عام ١٩٧٦ بعد القضاء على التنظيم السياسى العسكرى وامتداد الحركة إلى التعاونيات الزراعية المسيحية، ذلك أن السجون قد اكتظت بالمساجين وكان لابد من البحث عن بدائل. امتلأ السجن فى أسابيع قليلة بقرابة خمسمائة معتقل من الرجال والنساء والأطفال. وهنا واجهت الحكومة مأزقًا، إذ إن السجن لمن صدر حكم بحقه من قبل العدالة، وكما هو معتاد فى هذه الحالات، كان لابد من المحافظة على المظاهر. صدر حكم بحق هؤلاء المعتقلين ما بين السجن والإعدام استنادًا للقانون رقم (٢٠٩) المنصوص عليه بحق المعارضين. وتولى أمر المحاكمات الجنرال فليكس جراو الذى عُرف بقمعه وعقوباته المشددة. الجميع يتذكر دوره فى التصدى لمقاتلى حركة "فولنا"، وحركة (١٤ مايو)، فى عامى ١٩٥٩ و١٩٦٠ على التوالى، وكانت موجهة ضد المزارعين المتمردين فى سان إستانيسالو ومديرية سان بدرو عام ١٩٦٦. وذاعت شهرته فى البلاد الراجعة لقيامه بحرق أصابع المعتقلين أو أياديهم بالكامل، وفقًا لدرجات المقاومة، وحصوله فى المقابل على مزرعة سكر. عادت الحكومة وتذكرته عام ١٩٧٤ ليتصدى لحركات المقاومة فى مستعمرة "سان إيسيدرو" و "خيخى" حيث قويت شوكة التعاونيات الزراعية المسيحية وترسخ وجودها.

وصل المعتقلون إلى السجن فى الأيام الأولى لشهر سبتمبر ١٩٧٦ فى إمبوسكادا، بعد ترحيلهم من أقسام الشرطة فى العاصمة، ومن مقر الداخلية والثكنات وغيرها، وبالمثل من كانوا فى قسم التحقيقات الذين توجب عليهم الرحيل ليتسع مكانهم لآخرين أتوا من ميسونيس يوم الجمعة المقدسة والأيام التى تلتها. وزاد عدد نزلاء إمبوسكادا فجأة ليتجاوز الخمسمائة فى مساحة السجن رباعية المساحة هناك زنازين للرجال وفى الجهة المقابلة نظيرتها للنساء والأطفال حديثى الولادة فى السجون الأخرى أو هؤلاء الذين لم يجدوا من يقوم برعايتهم بعد اختفاء الأمهات وبقاء الآباء والأخوة الكبار. ويعيش الرجال بمعزل عن النساء بأمر من المدير. لذلك رسموا خطًا وهميًا يقسم الفناء لا يستطيع أحد الاقتراب منه بل البقاء على بعد ثلاثين خطوة على الأقل من الجانبين. وانتصبت فى المنتصف شجرة وارفة تلقى بظلها على جانب النساء حتى الثالثة عصرًا، ثم تنتقل لجانب الرجال، بحسب دوران الشمس، وفى الأيام المطرة يلتزمون البقاء فى الزنازين، فيشعرون حينها أنهم فى سجن مزدوجة.

وبمرور أسبوع يتوافد المساجين مثل موجة متنامية تغمر جميع الأنحاء. وأتت معهم إيفا ألونسو من قسم التحقيقات بعد أن قضت خمسة أشهر، استطاعت هى وخطيبها أن يرى كل منهما الآخر من الزنزانة، خلال الشهر الأول. تحملا الضربات المميتة وكلاهما رغبة أن يتمكنا من البقاء على قيد الحياة للمقاومة وتحقيق حكمها المنشود بعودة اللقاء. فى بعض الأحيان يتجاور جسداهما المنبطحان على الأرض، إلا أنهما لا يتمكنان من تبادل الحديث. كانا يتبادلان نظرات من أعماق الألم والاحتضار. وبعد انقضاء أسبوعين، نسى المعذبان أمرهما، وحين تماثل دانييل شيئًا ما إلى التعافى، تلقى أمرًا وهو فى زنزانته أن يتبع أحد الضباط. ومن حينها لم يعد.

وكانت إيفا ألونسو مثلها مثل الآخرين، منقطعة عن التواصل ولم تتمكن من معرفة مصير دانييل. علمت عشية ذاك اليوم من أحد الضباط أن جميع المعتقلين – الإرهابيين – بدأوا اعتصامًا فى السجن الجديد. كان الوقت صباحًا يوم الثلاثاء حين نزلوا من حافلة الجيش المكسوة فى جوانبها بنسيج غليظ. اخترقت الفناء ما بين مئات المعتقلين، الذين توقفوا متجمدين بانتظار رؤية النزلاء الجدد. رُفعت أذرع كثيرة تشير بالتحية وارتفعت أصوات مشيرة "سنكون هنا أفضل من مقر التحقيقات، أضاف صوت آخر "على الأقل

سنستقبل زيارات". أخذت إيفا ألونسو تبحث عن خطيبها غير ملتفتة لتحذيرات المدير الكولونيل دراو. تطيل النظر بينما هى متوقفة فى جانب السيدات تتطلع إلى المساجين الذكور يفصلها عنهم ستون خطوة. تعرفت على العديد من رفاقها فى التعاونيات الزراعية وجهت لهم تحية حارة. بعد قليل تقلصت ابتسامتها وكسى الألم محياها : لم تعثر على دانييل. دانييل ليس بينهم، كانت ستراه لو كان موجودًا. عبرت التكهنات التعسة بخاطرها، متزامنة مع حالات الاختفاء التى تقع مؤخرًا، وحدثت لسجناء آخرين مثل الأشقاء "لوبيث"، فى سانتا روسا. كانت إيفا قد وصلت إلى إمبوسكادا مصادفة مع عائلة "لوبيث"، الأبوين والأشقاء والشقيقات، وأبناء العمومة وأبنائهم، وعددها تسع وعشرون فردًا، تفرقوا فى محابس متعددة للشرطة فى العاصمة، وعدة أشهر فى معتقل "أبراهام كوى" فى ميسونيس.

وجاءت بينهم طفلة فى الثامنة من عمرها، تعانى من الجفاف فى حالة متأخرة، مثلها مثل بعض الأفراد الآخرين البالغين الذين تلقوا إسعافًا عاجلاً من الدكتورة جلاديس سانيمان، التى تمكنت من تجهيز "عيادة ميدانية" رغمًا عن الكولونيل جراو. والدكتورة جلاديس واحدة من ضحايا "عملية كوندور"، وهو مشروع أسسته الدكتاتوريات فى الإقليم لتبادل المساجين.

تم نقلها من الأرجنتين فى ولاية ميسونيس حيث قضت بضعة أشهر فى السجن هناك قبل أن يتم تسليمها إلى باراجواى. وجهت إليها تهمة بصفتها ناشطة فى حركة كولورادو الشعبية المنشقة. يمد لجنة الكنيسة "العيادة الميدانية" بالمستلزمات الطبية اللازمة وهى كثيرة.

يتوجه والدا إيفا كل يوم إلى مكتب إدارة التحقيقات، يذهبان معًا، أو كل بمفرده، يسألان عن أية أنباء تخص ابنتهما. والإجابة هى نفسها فى كل مرة : لا يمكن التواصل معها. يتركان لها شيئًا من الطعام والملابس النظيفة.

يتشجعان مع أهالى آخرين، بينهم ذوو دانييل باريوس يطلبون من لجنة الكنيسة أن يتدخل محامون تابعون لها من أجل المساجين، إلا أن إجابة الشرطة ثابتة لا تتغير تجاه تدخل القضاء. وفى ذاك الثلاثاء توجهت والدة إيفا إلى مقر التحقيقات حيث أخبروها أن

ابنتها تم نقلها إلى إمبوسكادا، وبالإمكان زيارتها يوم السبت. أخيرًا تحققا أنها لا تزال على قيد الحياة وأن بإمكانهما رؤيتها بعد خمسة أشهر من الغياب عانقت والديها فى صمت طويل، ووضع اللقاء نهاية للرعب الذى عاشا فيه، على الرغم من أن قلقهما بشأن وضعها فى السجن مدَّ عذابهما.

بيد أنهم الآن مجتمعون معًا، يتلامسون ويداعبان ابنتهما، ويقبلانها بين الدموع الغزيرة ووسط إحساس بالحياة. ظلت متعلقة بوالدتها وسألتها بلهفة عن دانييل، فأجابتها: "يقولون إنه حتى الأمس كان موجودًا فى مركز الشرطة الثالث، وأنهم بصدد نقله إلى هنا فى أية لحظة". استمر اللقاء العائلى ثلاث ساعات، وهو الوقت الذى حددته المحكمة الجنائية لدوام الزيارات.

تم إخطار إيفا مواليس وخمسة عشر شخصًا آخرين أنهم سيمثلون أمام القاضى فى مكتبه فى أيام وساعات مختلفة للإدلاء باعترافاتهم بشأن اختراق قانون "٢٠٩". ويعتبر هذا الإجراء شكليا، والهدف الأساسى منه هو إسكات طلبات منظمات حقوق الإنسان فى البلاد والخارج بشأن التنظيم السياسى العسكرى والتعاونيات الزراعية. ومنذ هذه اللحظة سوف تصرح الحكومة أن القرار النهائى بشأن هؤلاء يقع على عاتق العدالة، وأنها لن تتدخل احترامًا لاستقلالية سلطات الدولة. من جانبهم يعرف القضاة تمام المعرفة ما يجب عليهم فعله يصدرون حكمًا بالسجن لمدة ثمانية عشر شهرًا بحق كل منهم. يتم الإفراج عن بعضهم بعد انقضاء ثلاثة عشر شهرًا، وبينهم إيفا ألونسو، وذلك فى شهر أبريل عام ١٩٧٦.

بدأت إيفا ألونسو من متابعة السجناء بدءًا من يوم الأربعاء التالى لزيارة والديها، بينما يخرجون من زنازينهم. لا ترى شيئًا، باستثناء شخص ما يمد رقبته عاليًا ناظرًا صوب جانب النساء، وكانت هى ورفيقاتها. بدأ الشخص يحرك ذراعيه بيأس وحماس ونشوة.

أراد أن يجرى نحوها لكن الحراس منعوه. تأخرت إيفا فى التعرف عليه. لا يشبه دانييل "القديم الأنيق المهندم، ظهر هذا الكائن مرتديًا بنطالاً مهترئا بالكاد يتماسك، ولبس شيئًا يشبه القميص، حافى القدمين، نحيف نحافة مخيفة، بشرته باهتة كمن لم ير الشمس

فى حياته. بالرغم من ذلك فإن البريق الذى ظهر بعينيه هو نفس البريق الذى اعتادت رؤيته. ردت له إيفا التحية بنفس الحماس وإن جاءت متأخرة لكنها عالية وزاهية. لم تتمكن أن تحبس الدموع التى انهمرت وجاش صدرها، هناك الذراعان اللتان تناديها، اللتان أحبتها. فى لحظة اندفاع جرت نحو دانييل متخطية الحدود والجنود الذين حاولوا منعها. اقترب منها دانييل وذابا فى عناق لم يتمكن أحد من فصله. أحاط بهما زملاؤهم فى دائرة ليحولوا دون فض العناق ولو لحين. عاقبهم الكولونيل جراو بالحبس الانفرادى خمسة أيام لكل منهم فضلاً عن منع الزيارة عنهما لمدة أسبوعين. مرت الشهور وبدأوا يخففون القيود، تدخلت منظمات حقوق الإنسان فى الداخل وخارج البلاد فلم تتوقف بلاغاتهم التى قويت شوكتها وتعمم وجودها. وذاع على المستوى العالمى ذكر المكان بصفته "معسكر تعذيب للسجناء السياسيين". يتشارك السجناء من النساء والرجال الفناء الآن حتى توقيت الذهاب إلى زنازينهم، وأصبح يُسمح لهم بتلقى الكتب والصحف بعد أن يتم فحصها بدقة.

وشكل أعضاء التعاونيات الزراعية والتنظيم السياسى العسكرى مجموعة ناشطة، ينظمون الأنشطة الفنية والثقافية للآخرين من نشاط مسرحى وموسيقى وقراءة قصائد، ومناقشة الأوضاع السياسية الراهنة، وموقف الحكومة ممن لديهم آراء تُصنف بأنها لزعزعة النظام أو "الوحدة الصخرية" كما يطلقون عليها.

وبينهم من يؤكدون أن الدكتاتورية بصدد السقوط، غير أنهم يستقبلون نبأ يقوض أملهم، وذلك أنه بانقضاء عشر سنوات لـ إستروسنر فى الحكم، يدفعون لإجراء استفتاء تعديل للدستور، يسمح للجنرال إستروسنر بالترشح مجددًا للانتخابات بعد انقضاء مدته. فى ذاك الحين شعرت إيفا ودانييل بقلق مع الآخرين بشأن مستقبل البلاد، غير أنهما جعلا يخططان لمستقبل زواجهما حين يعودان بعد أشهر إلى منزليهما، والذى سيصبح منزلاً واحدًا يضمهما. مرت هذه الشهور طويلة إثر اشتياقهما، كما شعرا بالخوف من السلطة التنفيذية القادرة على تطبيق قانون الطوارئ بحقهما والإبقاء عليهما فى السجن لفترة غير معلومة.

وفى صباح يوم أربعاء، طلب ضابط من المساجين أن يقتربوا لأنه سينادى أسماء بعض الأشخاص الذين سيغادرون السجن، ومن بينهم إيفا ألونسو ودانييل باريوس، وذلك بعد انقضاء ثمانية عشر شهرًا. سمحوا لهما بدقائق لتوديع رفقائهما بالسجن، وهما

على علم أنهما بصدد الخروج بعد إجراءات العدالة. تتضارب مشاعرهما ما بين السعادة بالخروج والحزن من أجل زملائهم الباقين.

يصعدون فى حافلة الشرطة متجهين إلى إدارة التحقيقات حيث يوقعون قرار إفراج، وفقًا لما أمرهم به الضابط المنوط بالترحيل.

يتحرك الصف المؤلف من ثلاثة وعشرين شخصًا ببطء بالرغم من قصره. يدخلون مكتبًا ويتأخر كل منهم. يطلب إليهم الموظف التوقيع دون عجلة. يتحدث فى التليفون بشأن كرة القدم مع زميله. وقفت إيفا ألونسو ودانييل باريوس أمام المكتب فى إدارة التحقيقات، الواقع أمام مسرح البلدية. جاء دور إيفا التى وقفت أمام دانييل توجه له ابتسامتها الوضَّاءة، تداعب ذقنه وتعبث بشعره، فى المقابل ينظر إليها بعذوبة لم تعهدها كأنه يدشن مشاعره لأول مرة. يعتقد أن خطيبته تأخرت أكثر من الآخرين، وأن مرجع ذلك شوقه إليها، يراها بعد ذلك تخرج من المكتب برفقة ضابط يصحبها إلى مكتب آخر. يتلقى دانييل الأمر بمغادرة الصف، وبعد مرور دقائق شعر فيها بالقلق، يعلن الضابط إطلاق سراحه.

يسأله قلقًا : وماذا عن الآنسة التى خرجت لتوها ؟

يجيب الشرطى بلا مبالاة : أطلق سراحها هى أيضًا.

– لكنهم ساقوها إلى مكتب آخر.

– لا أعلم، لا أرى شيئًا من هنا.

– ولكن...

– أمره بفظاظة أن يخرج : لو سمحت.

– عبر دانييل باريوس الشارع دون ماذا يفعل، يفكر، أنها ربما مرقت من شارع آخر وأنها تنتظره.

وبهذا الأمر توجه إلى مسرح البلدية، لكنها لم تكن هناك. بعد نصف ساعة يقرر أن يذهب إلى لجنة الكنيسة حيث يقابل المحامى الذى ظهر ليقابله فى دقائق مقر التحقيقات.

هناك أخبروه أنه تم طرد "الإرهابية". وفى هذه اللحظات تكون قد رُحلت إلى كلوريندا.

اقترب الاجتماع الذى غلبت عليه الدموع جنبًا إلى جنب مع الضحكات من نهايته. حل الظلام وسط الجليد الذى يكسو كل شىء. قال أحدهم وهو يخرج إن درجة الحرارة تشير للدرجة الثامنة تحت الصفر. لم يتبق غير إيفا وصديقتين من شيلى، بانتظار من سيأتى لاصطحابهما، تحلمان بالعودة إلى بلدهما وهو من المستحيلات.

قالت لها إحداهما : نحسدك لأن بإمكانك العودة.

أجابت إيفا بين التنهدات : هذه مشكلة جديدة لى، لن يكون الأمر سهلاً. فهنا عائلتى وعملى، وبعيدًا جدًا بلدى.

كل ما أذكره عنها الحافلة التى أقلتنى عبر شوارع ونواح إلى الضفة الأخرى، ونظراتى اليائسة إلى المبانى. لقد ألقوا بى فى كلوريندا دون وثائق أو نقود. نزلت فى فندق ومن هناك استطعت أن أكلم والداى، اللذين حضرا إلى بعد ساعات. افترضت أن خطيبى لم يكن قد وصل منزله حتى تلك اللحظة لكننى اتصلت به أيضًا. تحدثت مع والدته التى كانت بانتظاره، كانت مكالمة طويلة وجافة، فى بعض اللحظات لم تتمكن والدته من إخفاء غضبها. حملتنى مسئولية ما تعرض له دانييل وعائلته. أعطيتها رقم التليفون الخاص بى لتعطيه لـ دانييل. اتصل بى بعد ساعتين ولا أدرك كم الوقت الذى واصلتُ فيه البكاء.

شعرت به هو أيضًا يبكى. أخبرنى أنه ذهب بعد ذلك إلى التحقيقات ليسترد أوراق هويته ليتمكن من الحضور إلى. أخبروه أن يذهب بعد ثلاثة أيام، ثم الأسبوع التالى، وظل الأمر على هذا الحال. كان واضحًا أنهم لن يسمحوا له بالخروج. إنها أشياء تخص الدكتاتورية.

يطردون من لا يرغب فى الرحيل، ويمنعون من يريد الخروج. وصلتُ إلى هنا بعد شهر. كنا نتواصل من خلال الأصدقاء، ذلك أن جميع المراسلات كانت تخضع للمراقبة. كتب كل منا للآخر خطابات حب ويأس مطولة. تفاقم بمرور الأشهر شعورنا أنهم لن يتركوه يغادر البلاد. بعد مرور سنوات عرفتُ ممن سيصبح زوجى فيما بعد، بعثت إليه خطابًا أخبره فيه أننى لم أعد أستطيع الحياة فى ظل أحلام فى بلد صعب، حيث الوحدة بمقدورها أن تفضى بك إلى الموت، كنت أتمنى أن يفهمنى، إلا أنه لم يجبنى أبدًا.

المؤلف فى سطور :

الثيباديس جونثالث دل بايي (نيمبى، باراجواي، ١٩٣٦)،

صحفى وكاتب روائى ومسرحى. يكتب عمودًا صحفيًا دائمًا بصحيفة (ABC)، ورئيس تحرير الملحق الأدبى بالجريدة نفسها. شغل مناصب عديدة على مدار حياته المهنية فى العمل الصحفى ووسائل الإعلام.

أصدر كتاباً فى علم الصحافة بعنوان "دراسة الصحافة: ما الهدف ؟" موجه لطلاب ودارسى الصحافة والقرّاء من مختلف التخصصات. يؤكد التزامه ومسئوليته الاجتماعية فى عالم الصحافة، والأخلاقيات، وحرية التعبير، وهى الموضوعات المعتادة التى يعالجها فى عموده الأسبوعى.

لديه العديد من الكتب والدراسات المنشورة مثل "مسرح عام ٤٧ والتاريخ السرى للثورة"، و"مقاومية النسيان والحياة اليومية فى زمن إستروسنر"، و"تصويتى لأمتى"، فضلاً عن العديد من المقالات المنشورة فى (ABC)، خلال حقبة الدكتاتورية.

كما شارك فى سلسلة من الكتب، مثل "هيمنة كولورادو (١٩٤٧– ١٩٥٤)"، "وأنا وألفريدو وإستروسنر"، و"الركض خلف الريح"، و"الخطايا السبع العظمى"، و"حزب كولورادو وأسباب انهياره".

وصدرت له ثمانى عشرة مسرحية، تتنوع ما بين الفولكلور والتاريخ، وتشبه الأعمال الأولى المسرحيات الغنائية التى تعالج الأساطير والتقاليد الشعبية مثل "الصرخة"، و"الوقت متسع للبقاء"، و"سان فرناندو"، و" إليسا"، و"قتلى عام ٧٠ "، والمستوحاة من مشاهد حقيقية من حرب التحالف الثلاثى.

المترجمة في سطور:

د. عبير محمد عبد الحافظ

أستاذ ورئيس قسم اللغة الإسبانية – كلية الآداب جامعة القاهرة.

– حصلت على الليسانس في اللغة والأدب الإسباني من جامعة القاهرة.

– درست الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة وكلومبلوتنس مدريد.

– نُشرت لها العديد من الدراسات في أدب أمريكا اللاتينية وإسبانيا في دوريات دولية ومحلية باللغتين العربية والإسبانية.

– ترجمت باقة من الأعمال من أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية إلى العربية: روبرتو آرلت، خوليو كورتاثار، خوان جويتيسولو / مارتين فبيرو، منتخب الشعر الكوبي، وغيرها من الترجمات تحت النشر.

– نُشرت لها ترجمات من العربية إلى الإسبانية لدواوين لشعراء مصريين وعرب في كوستاريكا الإكوادور.

– فازت ترجمتها إلى الإسبانية لديوان "مطمئناً على الحافة" للشاعر على الحازمي بجائزة أفضل ديوان شعر في مهرجان أوروجواي عام ٢٠١٥.

التصحيح اللغوى : محمود فتحى
الإشراف الفنى : حسن كامل